فيوليت شمّاش

رسائل فيوليت

جولة في حياة يهود بغداد

ترجمة:
علي شاكر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

فيوليت شمّاش

رسائل فيوليت

جولة في حياة يهود بغداد

إعداد

توني وميرا روكا

ترجمة

علي شاكر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
MEMORIES OF EDEN
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونيًا من الناشر
Northwestern University Press, USA (2010)
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
Copyright © Mira and Tony Rocca
Arabic Translation Copyrights © Ali Shakir, 2020
All rights reserved
Arabic Copyright © 2020 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: تشرين الثاني/نوفمبر 2020 م - 1442 هـ

ردمك 978-614-01-3170-5

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (+9611)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (+9611)

إلى أبنائي الأعزاء لينا وميرا وسيمون

إلى أحفادي الأعزاء روبن وساره وسامانثا وديفيد

وإلى أبنائهم الأعزاء، الآن ومستقبلا...

المحتويات

رسالة من ابنة صاحبة الرسائل إلى المترجم........................9
عن الترجمة..13
رحلتي مع فيوليت..17
... الرسالة الأخيرة...23
الرسالة الأولى: الجنة..25
الرسالة الثانية: الطفولة...55
الرسالة الثالثة: السبت...81
الرسالة الرابعة: العراق..99
الرسالة الخامسة: حياة تتغيّر.....................................107
الرسالة السادسة: موسم الأعياد المقدّسة.........................147
الرسالة السابعة: قهوة موشي......................................173
الرسالة الثامنة: الحب والزواج....................................211
الرسالة التاسعة: الثلاثينيات......................................233
الرسالة العاشرة: الثورة...255
الرسالة الحادية عشرة: حظر تجوال...............................275
الرسالة الثانية عشرة: الفرهود....................................287
الرسالة الثالثة عشرة: الرحلة الجوية الأولى......................309
الرسالة الرابعة عشرة: آخر رحلة..................................315
... الما بعد كانون الثاني، 2006..................................329
خاتمة..335

رسالة من ابنة صاحبة الرسائل

إلى المترجم

في الثالث والعشرين من آذار، 2019

عزيزي علي

قد تندهش عندما تعلم أن والدتي لم تكن راغبة في نشر مذكراتها رغم استمتاعها الدائم برواية القصص لنا، ولم أتمكن من إقناعها بتغيير رأيها حتى قبل فترة قصيرة من مغادرتنا لندن أنا وتوني للإقامة في إيطاليا وفرنسا، إذ قلت لها إننا سنتذكر ما حكته لنا، لكن من حق أحفادها وأبنائهم أيضا أن يعرفوا ما حدث... حاولت التملّص في البدء بالقول: "لا أجيد الكتابة"، لكننا واجهناها بما اعتادت أن ترويه لنا عن حبها لمادة الإنشاء في المدرسة، فكانت حجّتها التالية: "لا أعرف كيفية ربط كل تلك القصص مع بعض"، عندها، اقترح عليها توني أن تكتب ما يخطر على بالها فورا، دون أن تعير اهتماما لنوع الورق أو الأقلام التي تستخدمها، ثم طمأنها بقوله: "اتركي الباقي عليّ!".

استغرق إنجاز المهمة عشرين عاما، حمل سعاة البريد إلينا خلالهم عددا كبيرا من الرسائل كانت عبارة عن قصاصات من أصناف

شتى من الأوراق التي دوّنت والدتي خواطرها عليها... الطريف أنها اعتادت أن تكتب على المظاريف بخط يدها المنمّق: "إيطاليا" أو "فرنسا"، واضعة اسمي الدولتين بين علامتي اقتباس، كما لو أنها لم تكن تصدّق عيشنا فيهما!

استحوذ عملنا في تلك الفترة على جلّ وقتنا، لكنني استطعت أن أقتطع منه ساعات معدودة في الليل لطباعة ما كتبته فيوليت وحفظه في ملف على الحاسوب، أطلق توني عليه اسم "وداعا بغداد!" وحرصنا خلال السنوات التالية على نقله إلى الحواسيب التي اقتنيناها تباعا، دون أن تتاح لنا الفرصة لمراجعته حتى وصولنا إلى فرنسا... اتسعت حدقتا توني دهشة عند رؤيته كم الصفحات التي تراكمت لدينا، كما واجهنا صعوبة في فتح الوثائق القديمة بسبب اختلاف أنظمة التشغيل، لكننا تمكّنا بعد جهد من العثور على برنامج أتاح لنا تحويلها إلى النظام الحديث وقراءتها.

الأمر الآخر الذي تحتّم علينا أخذه بنظر الاعتبار قبل المضي في مشروع النشر كان مدى مواءمة التفاصيل التي غصّت بها الصفحات عن الطقوس والأعياد اليهودية لاهتمامات القارئ المعاصر غير المختص بشؤون الدين، فكان قرارنا أن نبقي فقط على الحكايات المرتبطة بمجريات الحياة اليومية لأبناء الجالية في بغداد، مثل صنعهم الشموع بأنفسهم لتعذّر الحصول عليها جاهزة من الأسواق كما هو الحال اليوم.

عندما بات على والدتي استرجاع ما حدث خلال الفرهود، بعثت لي رسالة أبلغتني فيها عدم قدرتها على الاستمرار في الكتابة لأن

الموضوع مؤلم للغاية، بل أنها طلبت تجاوز الواقعة برمتها وعدم ذكرها... قد يبدو الأمر غريبا للوهلة الأولى، لكننا سنتفهم موقف فيوليت على نحو أفضل لو نظرنا إليه ضمن إطار الجرائم المُرتكبة مؤخرا ضد الأقليات العرقية والدينية، داخل وخارج العراق، خصوصا ونحن نتابع اليوم مراسيم جنازات ضحايا الاعتداء الإرهابي الذي تعرّض له المصلّون في مسجدي "كرايست تشيرتش"(*).

النص الذي بين يديك هو سيرة ومذكرات والدتي التي دوّنتها بحنين وشوق جارفين إلى عالمها المفقود دون أدنى رغبة منها بإثارة الأحقاد أو الانتقام، وهو ما حرصنا بدورنا على نقله للقراء، وسنكون بغاية السعادة لو أنك تمكنت من إيصال صوت فيوليت المُحِب إلى مواطنيها من العراقيين.

كل الود

ميرا

(*) في الخامس عشر من آذار، عام 2019 أقدم إرهابي على ارتكاب جريمة مروّعة بحق عشرات المصلّين من المسلمين عندما اقتحم مسجدين في مدينة Christchurch في نيوزلندا وأطلق النار عشوائيا على الموجودين فيهما، فراح ضحية المجزرة أكثر من خمسين شخصا، كما سقط العديد من الجرحى، وعدّت بذلك واحدة من أسوأ جرائم الكراهية في تاريخ البلد.

عن الترجمة

العنوان

نُشِر الكتاب باللغة الإنكليزية في طبعتين، كانت أولاهما في عام 2008 في بريطانيا، والثانية في الولايات المتحدة عام 2010، حملت كلتاهما عنوان ***Memories of Eden*** أو "ذكريات جنة عدن" وهو اسم الموقع الخاص بالكتاب على الإنترنت... بالرغم من شاعرية العنوان الأصلي، وجد المترجم أنه قد يثير لغطا بين القراء العرب بسبب اختلاف مدلولات جنة عدن في الأديان الإبراهيمية، كما قد يظن البعض أن الكتاب يتحدّث عن مدينة "عدن" اليمنية، ولذلك فبعد التداول مع محرري المذكرات (توني وميرا روكا)، استقر الرأي على اتخاذ ***رسائل فيوليت*** عنوانا للترجمة العربية لكونه يعكس حميمية النص وطبيعته أكثر.

الهيكلية

تم الحفاظ على الهيكلية الأصلية من تقسيم وترتيب الفصول والفقرات، باستثناء الحالات التي استُخدِمت فيها علامات زخرفية للإشارة إلى نقلات في الرواية ضمن أحداث الفصل الواحد، إذ قام المترجم عوضا عن ذلك بترك مسافة سطر إضافي لكونها تؤدي ذات الغرض، كما أنها مريحة للنظر أكثر.

الهوامش

حرصا على سلاسة القراءة، وبدلا من رص هوامش جميع الفصول في آخر الكتاب، أو إرباك القراء بوضعها أسفل كل صفحة، عمد المترجم إلى وضع الهوامش الخاصة بكل فصل في نهايته كي تكون مساحة للاستراحة ومراجعة وفهم معاني المفردات الواردة في كل رسالة.

اللهجة اليهودية

ليهود بغداد لهجة قريبة من اللهجة المحبّبة لأهالي مدينة الموصل، وهي ليست بعيدة تماما عن تلك المستخدمة في بلاد الشام، وتمتاز بنطق واضح لحرف "القاف"، وتحويل "الراء" إلى "غين" في معظم الأحيان، أما الكلمات المنتهية بـ "الهاء" و"التاء" المربوطتين، فكثيرا ما تلفظ "ياء"... على سبيل المثال: مفردة "دربونة" التي تعني الزقاق أو الشارع الضيق بلهجة البغداديين، يلفظها اليهود منهم: "دغبوني"، ولذلك فقد حرص المترجم على استبعاد اللكنة من النص كي لا تسبّب تشويشا للقارئ العربي، وللأخير أن يقوم بتشكيلها بنفسه بعد الاطلاع على هذه الملاحظة والمثال الوارد فيها.

النقاط الثلاث

اعتمدها المترجم ضمن الفقرات عندما يكون هناك تناول لأحداث وقعت في عصور مختلفة أو تنقّلات في الحديث عن أمور وشخوص أخرى، الأمر الذي تكرّر بكثرة في النص الأصلي بسبب

وصول الرسائل إلى المحررين على هيئة قصاصات مكتوبة في أزمان متفاوتة.

علامات التنصيص

استُخدِمت علامات التنصيص أو الاقتباس لأكثر من غرض، منها ذلك الوارد في اسمها، ولتمييز الحوارات بين الشخوص، وأيضا عند ذكر أسماء العلم للمرة الأولى فقط (استُثني من ذلك أسماء العلم المعروفة للجميع)، أما الغرض الثالث فهو لفت النظر إلى مسائل بعينها، ودعوة القارئ إلى مراجعتها وإصدار أحكامه الخاصة بشأنها.

الأقواس

تم استخدامها لتوضيح معنى بعينه خلال السرد، أو للاستطراد في شرح قصير.

الخط المائل

تمت الاستعانة بالخط المائل للتعبير عن خواطر وتساؤلات دارت في رأس صاحبة الرسائل، وكذلك عند ورود نص غير منشور أو موثّق.

الخط السميك

اعتُمد الخط السميك في عناوين الفصول/ الرسائل وكلمات بعض الأغاني، وكذلك في إهداء المؤلفة في بداية الكتاب وتوقيع رسالتها الأخيرة.

وحدات القياس

مع استثناءات قليلة جدا، تم تحويل وحدات قياس المسافة والمساحة والوزن والحرارة إلى "نظام الوحدات العالمي" المعروف أيضا بالنظام "المتري" لكون الأخير أكثر شيوعا في العالم العربي من "النظام الإمبراطوري" المعتمد في النص الأصلي.

أسماء الشهور

تم اعتماد أسماء الشهور "السريانية" المستخدمة في الوطن الأم لصاحبة الرسائل، مثل: "كانون الثاني" و"شباط" و"آذار"، إلخ، عوضا عن "الرومانية" المترجمة عن الفرنسية أو الإنكليزية، مثل: "يناير" و"فبراير" و"مارس"، إلخ.

الملحق

قام توني روكا بحسه الصحفي بإعداد بحث عن الفرهود وملابساته السياسية كي يكون عونا للقارئ الغربي على إدراك ما حدث قبل وخلال تلك الأيام العصيبة، وتم نشره كملحق للمذكرات في آخر الكتاب... بعد التشاور مع توني وزوجته ميرا، رأت الأخيرة أن من الأفضل ظهور الترجمة العربية لرسائل والدتها دون المادة البحثية خشية تعارضها مع روح وطبيعة الرسائل.

رحلتي مع فيوليت

أعترف أن رسائل فيوليت شمّاش لم تكن خياري الأول عندما عقدت العزم على ترجمة أحد النصوص المنشورة باللغة الإنكليزية عن يهود العراق وما مروا به من أهوال، إلى العربية، إذ لم أكن أبحث عن سيرة تنقل ملامح الحياة اليومية للناس خلال بدايات القرن العشرين، ولا كانت غايتي أن أطلعهم على وصفات الأطعمة التقليدية، أو تفاصيل الملابس الشائعة وقتها، أو النوادر والنكات التي تناقلها روّاد المقاهي وسيدات المنازل، والمقالب التي حاكها طلبة المدارس بمعلميهم... أردت وثيقة تختزل أوجاع ومرارة الانسلاخ عن الوطن الأم، والاضطرار للفرار بحثا عن سلام وطمأنينة هما في معظم الأحيان سراب يحسبه الظمآن ماء.

كانت عيني على نص حارق كي أرميه في وجه الطغيان الذي ما فتئ يفترس الأبرياء منذ ولادة العراق المعاصر في أوائل القرن العشرين من آشوريين وأكراد وأيزيديين وسواهم من شتى الأعراق والأديان والملل، وما زال مستمرا حتى اليوم... تلك كانت خُطّتي، لكن دفء رسائل فيوليت وسحر بوحها الرافديني تسللا إليّ من ثغرة في جدار غضبي المتأجّج، هي هاجس بغداد الذي يلازمني، والفصام الذي أعاني منه بين عشقي لها، وزعلي منها.

لعلّها مفارقة أن صديقتي الفلسطينية/ الأردنية "غادة" كانت من أوصتني بقراءة مذكّرات شمّاش خلال أحد لقاءاتنا في عمّان، وما أن بدأت بتقليب الصفحات الأولى حتى وجدتني أجول مع صاحبة الرسائل في أرجاء "قصر" أسرتها المطل على د-علة، ودهاليز الحي اليهودي في بغداد، وأتذوّق طعم الفواكه الطازجة التي قطفتها من أشجار حديقتهم، وأشم عبق الياسمين والقرنفل والورد الجوري الممزوج بالروائح الشهية للمعجّنات الخارجة توّا من الفرن، وأسمع جلجلة ضحكاتها الطفولية، وأدخل معها صفوف مدرسة "الأليانس"، وأطرب لعزف وغناء الجوقات الموسيقية، ثم أشعر بالوجل من تغير مشاعر الود والإلفة التي طالما جمعت بين اليهود وجيرانهم من مسيحيين ومسلمين ليحل محلها الشك والتوجّس، واعتصرني الألم لما حدث في "الفرهود" وما بعده، وقرار الأسرة بالرحيل إلى المجهول، حتى أني عندما أتممت ترجمة عبارات وداع فيوليت الأخير لبغدادها (بغدادي) وجدت الدموع وقد انسابت على خدي، رغم عهد كنت قد قطعته على نفسي يوم رحيلي عن بلدي عام 2006 بعدم البكاء عليه أبدا، مهما جنّ بي الشوق إليه.

مارست الكتابة والنشر متأخرا، تحديدا عند بلوغي سن الثامنة والثلاثين، فالتعبير عن الرأي لم يكن متاحا في العراق عندما كنت في العشرينات من عمري، ولذلك السبب تردّدت قليلا قبل الإقدام على تكريس سنتين أو أكثر لمشروع ترجمة نص ليس لي، خصوصا وأن رأسي كان وما زال يموج بالأحداث التي عشتها وأود أن أدوّنها قبل أن يطمسها

النسيان، لكن أهمية تسليط الضوء الآن عمّا حدث ليهود العراق تكمن في تفاصيل الحكاية التي تكاد تكون نموذجا أمثل لتكرار التأريخ لفصوله، فعدا عن كونها صدى لما حدث للجاليات اليهودية في كثير من مدننا العربية مثل دمشق والقاهرة وسواها، نرى مساراتها تتقاطع، بل تتطابق أحيانا مع حكايات مئات آلاف الهاربين من الاضطهاد في دول الشرق الأوسط في عصرنا الحالي... إنها بشكل أو آخر، قصتي أنا أيضا.

أمر آخر أدركته عندما توغّلت في الفصول وصفحاتها هو أن الكثير مما ذكرته فيوليت لم يعد موجودا... أسماء مطربين ومطربات، أحياء وأسواق، أطباق أطعمة وأمثال شعبية ومزاج سائد، كلها اختفت من الذاكرة أو كادت، وربما كانت الإشارة إليها عرضا في رسائل شمّاش آخر ما سيرد عنها إلى الأبد، فللأجيال التالية شؤون وهموم أخرى تحتل قوائم أولوياتها، كما أن ذاكرة الشعوب (خصوصا في جزئنا من العالم!) قصيرة العمر وانتقائية وذات قدرة عجيبة على ليّ عنق الحقائق وتحويل المظلوم إلى ظالم، والعكس صحيح، فكثيرا ما أردت أن أري أحد أصدقائي من الأجانب صورة لمبنى ما في بغداد، لأتفاجأ باختفاء كل أثر له، كما لو أنه لم يوجد يوما، وهو الأمر الذي عانيت منه خلال عملي على هذا النص والمصطلحات والقصص الواردة فيه.

سرعان ما باتت والدتي، وهي سيدة مسلمة في مثل عمر ابنة فيوليت تقريبا، ملاذي للتأكّد من صحة المعلومات ومعرفة النطق الصحيح لكثير من الأسماء (العربية)، وصارت اتصالاتي الهاتفية المتكرّرة بها جزءا من روتيني اليومي على مدار السنتين الماضيتين... استطاعت

والدتي بالفعل أن تمدّني بكثير من المعلومات التي ما كنت لأستطيع إنجاز مهمتي دونها، لكنها عجزت في أحيان كثيرة عن التعرّف على مقصد صاحبة الرسائل من ذكر لفظ ما هنا أو هناك، وبطبيعة الحال، لم تكن تفقه شيئا من المصطلحات العبرية.

خياري التالي كان اللجوء إلى عالم الإنترنت ومحرّكات البحث وقراءة المقالات والكتب والدراسات المتوفّرة عليها، كما قمت بمتابعة عدد هائل من ساعات المواد الفيلمية والسمعية عن يهود العراق، بل وعن اليهود بشكل عام وطقوسهم الدينية وتراتيلهم وأدعيتهم، علّني أعثر فيها على النطق الصحيح لمفردة بعينها ذكرتها فيوليت في إحدى رسائلها، أو أتأكّد من وقوع حدث في زمن ما، أو أتوصّل لمعرفة مراحل إعداد طبق تقليدي، أو موقع حيّ قديم، أو اسم مدينة لم يعد متداولا... كثيرا ما أثمرت محاولاتي في العثور على مبتغاي، لكنني فشلت في أحيان أخرى في أن أجد أثرا لما كنت أبحث عنه، فكان عليّ ذكر ذلك في الهوامش، ودعوة القارئ إلى استكمال البحث بما يرى من طرق، أو الركون إلى المنطق في قبول أو رفض ما جاء في النص.

شعرت في منتصف الرحلة تقريبا أني كمن اتخذ أطول الطرق وأشدها وعورة لبلوغ مكان قريب منه، فبرغم فارق السن الكبير بيننا، نمت بيني وبين فيوليت رابطة وثيقة كما لو أنها واحدة من أقاربي، أو جدتي التي كلما زرتها (في صفحات كتابها) وجدت في جعبتها المزيد من القصص المدهشة... المشكلة كانت أن جدتي (الافتراضية) روت لي حكاياتها عن وطننا الأم بالإنكليزية، فكان عليّ أن أعيد إليها صوتها

العراقي الذي غيّبته غربة اللغة الأجنبية دون الغوص في المحلية الفجّة، خشية أن تُنفِر الأخيرة القارئ العربي المعني بكثير مما ورد في هذه الوثيقة الحيّة عن زمن رسم، وما زال يرسم بعض ملامح حياتنا اليوم.

تضمّن الكتاب المنشور بالإنكليزية صورا عِدة لبغداد القديمة، معظمها مأخوذ من الأرشيفات البريطانية، وقليل جدا من الصور العائلية لآل شمّاش، ولا صورة على الإطلاق لصاحبة الرسائل من مرحلة تدوين شهادتها وما تلاها... لم أعرف حتى انتهائي من ترجمة النص شكل فيوليت المُسِنّة، فقد أرسلت لي المحررة صورة لوالدتها المسنة قبل فترة قصيرة كي تظهر في النسخة العربية للمذكرات ولم أطلب من ابنتها أن ترسل إليّ صورتها وهي على أبواب التسعين لسبب بسيط (أو ربما مُعقّد) هو أن خيالي قد تكفّل برسم ملامح خاصة بها، وأعطاها صوتا شابته حشرجة خفيفة وغلّفته العذوبة، فما حاجتي إلى أكثر من ذلك، أو أقل؟

دون تخطيط مسبق منها، أو مني، أنقذتني فيوليت من عدد من المحن التي عشتها خلال انكبابي على ترجمة نصّها، ولقّنتني دروسا قيمة في الحياة، إذ كان لشمّاش أكثر من سبب كي تكتئب وتنهار تحت وطأة الضغوط الهائلة التي تعرّضت لها مع أسرتها، قبل وبعد تركهم العراق، لكنها لم تفعل، وبقيت متمسّكة حتى النهاية بحبل الأمل في أن تحمل الأيام القادمة لها ولمن تحب اليسر والفرج.

كان لها الحق في الحنق والسعي إلى الانتقام ممن تسبّب لها بكل ذلك الأذى، لكنها اختارت التجاوز والعفو وعدم تعميم الظلم وإصدار الأحكام جزافا، بل نراها حريصة على شكر كل من مدّ لها يد المساعدة

من الجيران والأصدقاء المسلمين ووفّر لها الحماية مع أطفالها خلال سواد أيام الفرهود الحالك... علمتني أن نار الكره تحرق الصدور التي تضطرم فيها، وتعيق الحركة إلى الأمام والتغيير نحو الأفضل.

لم تترك فيوليت فرصة للفرح دون أن تغتنمها، حتى وهي تحزم حقائبها وتقفز من بلد لآخر كما فعل أسلافها خلال ترحالهم في سنوات الشتات، نراها لا تكف عن الاستمتاع بالموسيقى والغناء والتواصل مع الناس المحيطين بها من أهل المدن المضيفة، ومتابعة أخبار بلدها الأم ومناقشتها مع أشقائها المبعثرين في أرجاء المعمورة، والاعتناء بأبنائها وأحفادها.

لا أزعم امتلاكي قوة وعزم وتفاؤل فيوليت شمّاش، لكنني ممتن لوجودها المشرق في حياتي طيلة السنتين الماضيتين، ولمشاركتها الصادقة التي ألهمتني الصبر على كثير من المشاكل والأوقات الصعبة، فكم من أمر أجزعني في البدء، ثم وجدته يصغر ويتلاشى بمجرد أن قارنته بما مرّت به من أزمات.

فيوليت، سيدتي الكريمة... الآن وقد بلغت رحلتنا معا محطتها الأخيرة، سأفتقد حتما رفقتك الجميلة، لكنني سعيد لتمكّني من تحقيق رغبتك بالعودة إلى بغداد وأهلها (أهلك) الذين سيطلعون على شهادتك عن ماضي مدينتهم، وقد يجدون فيها كما وجدتُ السلوى، والرجاء في خيرٍ آتٍ.

علي شاكر

... الرسالة الأخيرة

في التاسع من نيسان عام 2003، كنت واحدة من بين ملايين المشاهدين حول العالم الذين راحوا يتابعون وقائع إسقاط التمثال الهائل لصدام حسين في وسط بغداد، ورقص العراقيين وتلويحهم بالأعلام احتفالا بنهاية حكمه المقيت... بدت الحشود مبتهجة وهي تجر رأس التمثال عبر شوارع كنت أتذكّر أسماءها، لكنني لم أعد أستطيع التعرّف إلى معالمها.

حفيدي "روبن" كان قد أعدّ لي التلفاز الذي تكفّلت ابنتي "ميرا" بإيصاله بجهاز استقبال البث الفضائي، بينما أحضر زوجها "توني" حزمة من الوثائق التي افترشت الطاولة أمامي، وضمّت تأريخ بلدي والأحداث التي شكّلت الخلفية في قصة حياتي... تلك الخطوب التي لم أفقهها في مطلع العمر تجسّدت أمامي من جديد، وجعلت عينيّ تغرورقان بصور من الماضي البعيد.

في الوقت الذي كانت فيه عدسات المصورين ترصد مرور الدبابات الأمريكية ونعال البغداديين التي انهالت على لوحة جدارية لصدام، وهي الإهانة الأشنع في العرف العربي، كان تفكيري قد ارتحل إلى عصر آخر، إذ أبصرتُ النور قبل ربع قرن من ولادة صدام، قبل

إنشاء الملكية في العراق، وقبل أن تقوم دولة أجنبية أخرى هي بريطانيا باستعراض قواتها المنتصرة عبر المدينة التي غزتها تحت ذريعة نشر الديمقراطية، فكنت شاهدة على تجاوز بلدي مُخلّفات الماضي، وسيره قدما نحو ما بدا لنا كمستقبل واعد مشرق.

حدث كل ذلك في بغداد، مدينتي التي عشت فيها سعيدة مُتنعّمة وسط مجتمعي اليهودي المتآلف مع جيرانه من المسلمين... كانت بغدادي فاتنة، يفوح منها عبير الذكريات الأثيرة، وها أنا أراها اليوم وقد تغيرت كلية، وطُمِست معالمها كما لو أن ممحاة قد أزالت خطوط الطباشير من على السبورة لكتابة قصة جديدة.

نشأ نظام صدام تحت رماد الأحداث التي مررنا بها قبل خمسة وستين عاما عندما تسبّب الاستبداد في زلزال أسفر عن تشظّي الجالية اليهودية الأقدم في الشتات... ما زلت أرتعد كلما فكرت في فظاعة ما مررنا به، لكنني أعود فأذكّر نفسي بنعمة النجاة من المحنة.

أشعر كما لو أني سردت عليكم أضغاث حلم بعيد، وآمل ألا يكون عسيرا عليكم تجميع أجزائه مع بعضها البعض.

ف. ش.

لندن، كانون الثاني 2006

الرسالة الأولى

الجنة

لم يكن القرن العشرون قد بلغ فتوته بعد عندما ولجت هذا العالم العجيب ذات ليلة شتوية في وسط بغداد، إذ عكّر وصولي احتفال أسرتي بعيد "الهانوكا"[1] في دارنا الكائنة في ذلك النسيج المكتظ من الدور المتلاصقة والأزقة الضيقة التي شكّلت الحي اليهودي القديم في المدينة... كانت ولادتي بمثابة كارثة لوالديّ العزيزين رحمهما الله، ماثلت في وقعها هول الأنباء الواردة عن غرق سفينة "تايتانك"[2] لأني كنت خامسة أطفالهما، ورابعة الإناث.

ولادة البنت كانت تعد عبئا في مجتمعنا، ولم يكن مهما جمال المولودة أو صحتها، فمجرد كونها أنثى كان مدعاة للهم، رغم أن المبلغ الذي تنفقه الأسرة على تنشئة الفتاة وتعليمها وإطعامها كان مساويا لما تنفقه على ابنها الذكر، لكن الابنة ستترك أهلها عندما تكبر كي تصبح جزءا من عائلة ثانية، ويتحتّم على والدها حينئذ أن يدفع قدرا إضافيا من المال، تبعا لمقدراته، كمهر للعريس[3]... لم يكن هناك مهرب من المحنة، فالخسارة مؤكّدة كما لو كانت ضريبة واجبة الدفع، ولذلك كانت ولادة الأنثى في العوائل اليهودية مدعاة للكآبة والحزن، بدلا من الفرح، أما عبارة "مازل توف"[4] فكانت ترافقها دائما مشاعر المواساة

مثل: "حمدا لله على سلامة الأم!" أو "نسأل الله أن يكون المولود التالي صبيا!" بينما لو كنت قد وُلِدتُ ذكرا، فالتهنئة ستكون: "جعله الله طليعة أبناء سبعة (من الذكور)!" أو "جعله الله فألا حسنا!" إذ كنت سأكبر لأكون عونا لأبي في عمله، ثم أتزوج من فتاة ثرية تقدّم لي مهرا معتبرا، وتدخل دارنا لرعاية والديّ والاعتناء بهما.

يبدو أن غرق التايتانك قد تسبّب بصدمة حقيقية لبابا الذي كان متابعا لأنباء إبحارها، وبقي يتذكر الواقعة خلال سنوات طفولتي ونضجي في الدار التي كان قد أتم تشييدها في ذات السنة (1912) على أرض كانت في الأصل بستان نخيل واسعا في جنوب المدينة... أوه، كم زمن طويل مرّ على ذلك كله! عندما أنظر إلى خريطة بغداد اليوم، أرى أن حي الكرّادة الذي كان في تلك الفترة جزءا من الريف قد أمسى مركز المدينة. ترى، ما كان حال المكان لو أن صدام حسين لم يختر أن يبني له مقرا وحصنا في الجهة المقابلة لمسكننا عبر نهر دجلة، والتي تُعرف اليوم بالمنطقة الخضراء؟

كان قصرنا (كل بيت واسع، متين البنيان ومطلّ على النهر كان يّسمى "قصرا" في مدينة بُنيت جلّ بيوتها من الطين) جاهزا لاستقبالنا عندما بلغت نانا (والدتي) المرحلة الأخيرة من الحمل، لكن بعده عن المدينة وانعزاله جعلا والديّ يتريثان في الانتقال إليه... قيل لوالدتي في البدء أنها ستلد ذكرا (الأمر الذي تسبب فيما بعد بالشعور بالخيبة) فاستقرّ في وعيها أن ولادتها في دارنا القديمة التي شهدت مولد أخي سلمان قبل سنوات أربع ستكون فألا حسنا لقدوم ابن ثان. كان والداي

على أهبة الاستعداد لوصولي، وقاما بدعوة الأقارب والأصدقاء إلى الحفل الذي سيقام بعد أسبوع من الولادة بمناسبة الـ "بريت ميلا" أو الختان، فلما وُلِدتُ أنثى كان عليهما إجراء تغييرات سريعة لإقامة حفل "ليلة الستة"(5) الذي تتم فيه تسمية المولودة بعد مرور خمسة أيام على أبصارها النور(5).

لم يبخل أبي في إنفاقه على الحفل، إذ كانت تجارته مزدهرة في تلك الفترة، وأمضى الجميع وقتا ممتعا. ما أن حضر الضيوف حتى انطلقت "الدقّاقة" بغناء مازل توف، كما كُسِرت جرة ماء فخارية "تُنكاية" لجلب الفأل الحسن، وتلا ذلك نثر الخليط التقليدي من الحلوى الصغيرة والمكسرات والفشار المعروف بـ "شِشّه" على الأطفال الذين راحوا يتلقّفونه بحماسة وهم يردّدون أهزوجتهم الساذجة: "شِشّه، بيت أبو فيوليت طبخوا محشّه"... أُختير لي اسم "فيوليت" الحديث كي يُضاف إلى اسمي التوراتي "سِمحة" الذي هو اسم جدتي لوالدتي، وضمت الوليمة أطباقا مختلفة، كان من بينها الأرز بالزعفران والدجاج المشوي على الفحم، وانطلقت خلالها ضحكات الحضور ونكتهم حتى أن سيدة شابة من المدعوات تعثّرت من فرط قهقهتها وتدحرجت إلى أسفل الدرج، لكن المدهش أنها لم تصب بأي أذى، وهو ما أثار المزيد من البهجة. سمعت القصة مرارا في سنوات صباي من قبل معارفنا الذين كانوا موجودين في تلك الليلة.

كانت مصادفة أن يُرزق اثنان من أخوالي ببنات في نفس شهر وعام مولدي. أحدهما كان الخال "جو" المقيم في لندن، أما الآخر فهو الخال

"موشي" الذي كان مسكنه مجاورا لنا في حي "حنّوني" اليهودي القديم في بغداد، أي أن جهة والدتي من العائلة شهدت ثلاث كوارث في تلك السنة، وما كان ليخطر ببال والديّ أن الزمان سيحمل إليهما المزيد من الخطوب، إذ رُزِقا بعدي بأختي "ديزي"، ثم تلتها أختي "مارسيل"، ولم يولد لهما صبي آخر، فلم يكن أمامهما سوى الرضا بما قسمه القدر لهما... بالرغم من توالي الخيبات. الحق يُقال إن بابا ونانا أحبا كل فرد من أبنائهم السبعة ولم يدّخرا وسعا في رعايتنا جميعا.

زواج بابا ونانا، وهما أبناء عمومة من الدرجة الثانية، كان قائما على الحب وإن تم بتدبير من عائلتيهما، شأنه شأن كل الزواجات الأخرى في تلك الفترة، وقد يجوز القول إن الأمر لم يكن يخلو من المنفعة أيضا، إذ جلبت نانا معها مهرا معتبرا... كان بابا في العشرين من عمره، شابا وسيما بهي الطلعة، تجاوز طوله المتر وثمانين سنتيمترا، وإن بدا أطول من ذلك بسبب قوامه المنتصب. كان ذا عينين أخّاذتين رماديتي اللون وشارب كثيف مُطلق على الطريقة التركية، وكان حريصا على وضع "الفينة" التركية على رأسه مثل معظم الرجال في زمانه.

كانت نانا أكبر منه بعام أو اثنين، سليلة عائلة ثرية محترمة، وكانت تُكنّى بـ "نونو" لصغر قوامها، لكن بابا سرعان ما أطلق عليها لقبا من تأليفه هو "خاتون" أو السيدة باللغة التركية، وظل يناديها به طيلة حياتهما معا... كانت ذات وجه جميل، أحاط به شعر طويل بلون بني فاتح، مجدول في ضفائر، وكانت عيناها رماديتي اللون أيضا، وهو ملمح ورثاه من عائلتهما.

سلك بابا سبيل التجارة مثل والده "حزقيل" ونجح فيه، كما عمل صرّافا خاصا وفق تخطيط من والدته (جدتي) "غلا" التي كنّا نناديها بـ "يمّة"، رغم أن رغبته الحقيقية كانت في أن يصبح معلما مثل جده "حاييم" الذي عُرِف بتديّنه وبإلقائه الدروس في معهد "بيت زلخة" اللاهوتي الحاخامي الذي تأسّس في عام 1839 وكان كسائر زملائه يتلقّى من الجالية صحنا كبيرا من الأرز المطبوخ وأربعة أرغفة من الخبز له ولأسرته مرتين في الأسبوع على الأقل... التحق بابا في طفولته بالمعهد الذي كان مختصا بالدراسات الدينية المتقدمة، وأتم تعليمه فيه عندما بلغ الثانية عشرة من عمره وصار ملمّا بصنوف المعرفة الدينية التي كانت بحوزة أستاذه، حتى أنه نسخ بخط يده، مستعملا الريشة والحبر، كامل نص "هاغادا شل بيساح" وهو كتاب الدعاء الذي يُقرأ في عيد الفصح. كان بابا يستيقظ فجر كل صباح وينهمك في القراءة والنقاش والدرس، الأمر الذي شكّل بداية رحلة بحث مدهشة فتحت له أبواب عالم كان بوسع قلة فقط من أبناء جيله ولوجه، وأضفى عليه هيبة العلّامة والفيلسوف في تلك المرحلة العمرية المبكرة. علم بابا الغزير ومعرفته بكل المواد التي كنّا نتلقاها في المدرسة كانا مبعث سعادة في أسرتنا، فكثيرا ما كان يقوم باختبار معلوماتنا خلال تناولنا العشاء، وكان يروق له أن نقوم نحن باختباره أيضا.

دروسي الأولى كانت في معظمها عن "بلاد الرافدين" التي نشأت على أرضها، والتي اشتُقت تسميتها في اللغة الإغريقية (ميزوبوتاميا) من موقعها بين دجلة والفرات العظيمين، إذ تعلّمنا أن النهرين يحملان

الجليد المنصهر من جبال تركيا إلى مياه الخليج الدافئة... حرص بابا على التأكيد على خصوصية هويتنا الرافدينية، وإن كنا نعيش ضمن الإمبراطورية التركية العثمانية التي حكمتنا قرابة أربعة قرون، كما قال لنا أن أسلافنا اليهود الذين قدموا إلى البلاد قبل ألفين وستمئة عام كان لهم تاريخ طويل ومشرف ساهم في ازدهار الحضارة البابلية.

كانت نانا قد تجاوزت العشرين من العمر عند زواجها وهو ما قد يبدو أمرا طبيعيا اليوم، لكن هذه السن كانت تعد متأخرة جدا لزواج الفتاة بالنسبة إلى الأجيال السابقة، فطيلة القرن التاسع عشر كان يتم تزويج البنات في سن صغيرة للغاية، خصوصا في الأسر رقيقة الحال التي كانت الأعباء المادية تثقل كاهلها، إذ كان شائعا أن يقوم الأهل بتزويج الإناث بعمر الثامنة أو العاشرة، أما الأبناء من الذكور فكان يتم تزويجهم في عمر الثامنة عشرة أو العشرين... كانت البنت التي تبلغ الخامسة عشرة بلا زواج تعد عانسا وتقل بذلك فرصها للارتباط، فيمّة، على سبيل المثال، زُوِجت وهي لما تزل في التاسعة من عمرها إلى رجل ناضج كان قد ترمّل مرتين وله من الأبناء اثنين. كانت مجرد طفلة تلهو بعرائسها عند الزفاف، فتعين على عريسها أن ينتظر وصولها مرحلة البلوغ قبل إتمام الزواج فعليا، ثم أنجبت بابا في الخامسة عشرة، وكانت في العشرينيات عندما أتم دراسته حيث كان قد وُلِد لها ثلاثة أبناء آخرين من الذكور، وابنتين.

كون العروس طفلة كان أمرا معتادا حينها، كذلك كان سكن العروسين في بيت والدي العريس حيث اليد الطولى لأمه دائما، ولم تكن حياة العروس في منزل حماتها سهلة وكثيرا ما كانت تنشب أزمات

عائلية بسببها، مثلما يحدث عندما يجتمع النمر والمعز في مكان واحد، كما ورد في الأمثال[6]... سلطة القرار كانت بيد الزوج، وكان على الزوجة أن تطيع وتبجّل حماتها وتخضع لتدريبها لها في كيفية تدبير شؤون البيت منذ اليوم الأول.

بالرغم من أن يمّة لم تكن متعلمة، إلّا أن نشأتها وفق نظام تربية صارم مكّنتها من إدارة أمور أسرتها الكبيرة (وفق معايير هذه الأيام) بكفاءة وحنكة، وكان مدهشا أنها أنجبت أصغر بناتها في ذات العام الذي أبصرت فيه "ريجينا" شقيقتي الكبرى النور، فكانت العمّة في نفس عمر ابنة أخيها... كانت جدتي حسنة المظهر، ذات عينين عسليتين، دقيقة القوام ومُرتّبة الهندام، حازمة ولطيفة في ذات الوقت، وكانت تحب بابا بشدة لكونه بكر أبنائها الثمانية، كما كانت تحب ابني زوجها أيضا، وتحرص مع جدي حزقيل الذي كنا نناديه "سيدا"[7] على العناية بي كلما زرتهما خلال سنوات طفولتي. أذكر أن جدي قد شرع بتعليمي القراءة عندما كنت بالكاد أستطيع الكلام، وما أن صرتُ قادرة على الفهم حتى راح يروي لي الحكايات عن جنة عدن وبرج بابل وحدائقها المُعلّقة، باعتبارها فصولا من تراث بلادنا العظيم.

نمط حياتنا خلال سنوات طفولتي كاد أن يطابق ذاك الذي كان لأسلافنا، وكانت تقاليدنا مماثلة لتقاليدهم أيضا، فعائلتنا بأكملها، بما في ذلك جد وجدة بابا، كانت تقيم في المسكن الذي وُلِدتُ فيه في حي حنّوني والذي ضم عشر غرف نوم.

جميع بيوت الحي كانت مُحصّنة البنيان ومُلائمة لظروف المناخ، كما صُمِمّت لتلبية متطلبات الأسر الممتدّة التي كانت تسكنها، إذ كانت غرفها موجّهة نحو الفناء الداخلي كي توفّر الأمن والحماية وتحجب العيون المتلصّصة عن أهل الدور، وقلّل غياب النوافذ المطلّة على الخارج من الثغرات، فكانت الجدران المبنية بالآجر كل ما يطالع السائرين في الشوارع الضيقة التي بالكاد تتّسع لمرور عربة فيها... كانت الأزقة قذرة وتفتقر إلى الجاذبية، تتراكض فيها الجرذان والصراصير وتتراكم على امتدادها بقايا الأطعمة التي تتغذى عليها القطط الضالة، الأمر الذي جعل نانا مهووسة بالنظافة في داخل منزلنا.

مثل سائر البيوت الأخرى، كان لباب دارنا الخارجي مفتاح هائل يبلغ طوله قرابة أربعين سنتيمترا وتتطلّب إدارته استعمال يدين اثنتين، يفضي الباب إلى ممر أو "دربونة" تؤدي إلى فناء وسطي مفتوح للسماء ومزروع بأشجار النخيل والزهور... البيت التقليدي كان ذا مستويات عدّة، فوق وتحت الأرض، ويرتبط عن طريق ممرات تسمّى "مسالك" في الطابقين الأرضي والأول بالبيوت القريبة حيث كان يسكن أفراد العائلة الآخرون، على نحو مماثل لبُنى خلايا النحل.

أشباه الأقبية التي يُسمّى مفردها بـ "نيم سرداب" كانت تُهوّى باستخدام ملاقف عريضة تدعى "بخاري"[(8)] تمتد عاليا إلى السطح لجلب الهواء وتدويره، وتوفّر فضاءات باردة كانت تستعمل لحفظ الأطعمة طازجة، وملاذا لأفراد العائلة للحصول على قيلولة خلال قيظ الصيف، أما الطابق الواقع تحتها فيُسمى "سرداب" وهو بارد ومظلم،

ولذلك كان يُستخدم لتخزين الجبن والمربى والخل، وكانت مخللاتنا الشهية أو "الطراشي" تُحفظ في جرار فخارية مزجّجة كبيرة الأحجام... في بعض الدور، كان يوجد تحت السرداب حوض، أو بئر، يُعرف بـ "بيرغ تبيلا" (ميكفه بالعبرية) كي تستحم النساء المتزوجات فيه ويتطهّرن بعد انتهاء دوراتهن الشهرية، حيث كن ينزلن درجات قليلة ثم يغمرن أنفسهن في الماء شديد البرودة ثلاث مرات، وكن يصطحبن معهن في الشتاء أباريق مليئة بالماء الساخن كي يشطفن أجسادهن به ويتدفأن بعد الانتهاء من طقس الغمر.

الغرف التي علت سطح الأرض كانت مخصصة للمعيشة واستقبال الضيوف، أما "الشناشيل" فكانت تشرف على الشارع من جهة واحدة مثل المقصورات، وكان بوسعنا مراقبة المارة عبر نوافذها المشبكة دون أن يرانا أحد، كما كان للبيوت المشيّدة على ضفاف دجلة شرفات تطل على النهر للمحافظة على خصوصية ساكنيها.

كنا نحصل على احتياجنا من المياه من النهر بواسطة السقّاء الذي اعتاد أن يحمل الماء إلينا كل يوم في قربته المصنوعة من جلد الماعز، ثم يقوم بسكبه في "الحبّ" الفخاري الكبير، وبسبب مناخ بغداد الجاف كان الماء يتغلغل في المسامات ويبرد قبل أن تترشّح قطراته من الأسفل وتتجمّع في إناء فخاري أصغر حجما، فتتم تنقيته باستخدام الشاش وسكبه في أباريق لاستخدامه للشرب والطهي، كما كانت لدينا حاوية يتم ملؤها بالماء المخصص للاغتسال... كان على كل أسرة أن تتخّذ لها سقّاء يكون موضع ثقتها كي يقوم بتزويدها بالمياه بشكل منتظم لعدم

توفّر خزّانات المياه في تلك الأزمان، وكان المرحاض عبارة عن شق في الأرض بطول متر وعمق متر تقريبا، تتصرّف الفضلات منه إلى حفرة تحته، فكانت الرائحة الكريهة تغشى الداخل للمكان بمجرد فتح الباب.

كما ترون، كانت مظاهر حياتنا فيما عُرِفت بـ "مدينة" بغداد بدائية إلى حد كبير، فلو أخذنا إيقاد النار على سبيل المثال، لم تكن أعواد الثقاب معروفة بعد وكان الناس يستخدمون حبلا مكسوا بالشمع يتم إشعال طرفه بواسطة الاحتكاك (عُدّ ظهور علب الثقاب في الأسواق لأول مرة حدثا مدهشا وكانت تباع بأثمان مرتفعة نسبيا) وكانت لكل بيت غرفة خاصة لخزن الوقود، لكنها لم تكن تضم فحما أو خشبا، بل أكياس من مواد شتى، كان بعضها سريع الاحتراق وبعضها الآخر بطيء يُستخدم لأغراض الخبز في الفرن... روث الأغنام المجفف الذي يتم شراؤه بالأكياس كان مرغوبا لعدم إصداره للدخان، أما الثمر الأحمر غير القابل للأكل لنبات الزعرور البري[9] فكان أكثر الأصناف طلبا بسبب إطلاقه رائحة زكية عند الحرق.

عندما أُتيحت لي لاحقا فرصة الاطلاع على خريطة بغداد في القرن السابع عشر، لاحظت أن المدينة في العقد الثاني من القرن العشرين لم تكن قد تغيّرت كثيرا في حجمها وملامحها عمّا كانت عليه قبل قرون، ومن ملامح الماضي كان عدم وجود أسماء لشوارعنا، إذ اعتاد الناس أن يشيروا إليها بذكر أكثر ساكنيها جاها... على سبيل المثال، عندما كان يقال "كجة"[10] بيت "باهر"، فذلك كان يعني الشارع الذي يعيش فيه آل باهر، كما كانت الأزقة شديدة القذارة لعدم وجود عمال نظافة، وكانت

تشكّل مع بعضها البعض متاهة يسهل على المرء أن يضل طريقه فيها، ويحاذيها كثر من الباعة الأفظاظ، فقد كان واردا أن يحشر حلاق نفسه وعدته في ركن ضيق دون أن يكون له محل، ثم يقوم بعرض خدماته المختلفة للزبائن (بالإضافة إلى حلاقة الذقن وقص الشعر) مثل خلع الأسنان وفقع الدمامل التي كان ينجزها على مرأى من الجميع، شأنه في ذلك شأن حدّاد السكاكين الذي يقف على مقربة منه عارضا سن نصال السكاكين للراغبين، وسائر الباعة المتجولين الذين يروّجون لبضاعتهم بإطلاق نداءات مثل: "تازة يا فجل" كناية عن الفجل الطازج الذي تتدلى الأوراق الخضراء من نهايته، أو "خستاوي يا نبق" التي تعني أن النبق (ثمر شجرة السدر) ماثل في حلاوته البلح المحلي المعروف من صنف الخستاوي.

المار ببيوت الأحياء الفقيرة كان سيلاحظ وجود فردة حذاء قديم أو نعل مهترئ معلقة فوق بعض الأبواب للحماية من عيون الحاسدين، أما بيوت اليهود فكانت أبوابها تحمل "الميزوزا" وهي لفافة موضوعة في علبة خُطّ عليها دعاء قصير لحفظ البيت ومن فيه... كانت الأزقة الضيقة تعاني أيضا من مرور صعب لبائعات الحليب وأبقارهن كي يقمن بتزويد البيوت التي رُزِقت نساؤها بأطفال حديثي الولادة بالحليب الطازج، فكانت الواحدة منهن تشرع بحلب بقرتها عند عتبة البيت، بينما تتم مراقبتها عن كثب كي لا تقوم بغش بضاعتها بإضافة الماء إليها، ومن المشاهد المثيرة الأخرى كانت حركة الفتيات الصغيرات القادمات من القرى البعيدة وهن يمضين إلى سوق "الشورجة" الكبير مع حمولاتهن

الثقيلة من العلب الخشبية المليئة باللبن الزبادي المُستقرة على رؤوسهن، واحدة فوق الأخرى، كأبراج مساوية في أطوالها لقامات حاملاتها، وقد تصل زنتها إلى أربعين كيلوغراما.

أولى ذكرياتي كانت عن الماء والحر، إذ كانا من أبرز مفردات حياتنا خلال فصل الصيف الطويل شديد السخونة، وكان يستحيل علينا النوم في داخل الدار عندما تناهز درجات الحرارة الخمسين مئوية، فكان السطح ملاذنا الأمثل كي ننعم فيه ببرودة النسمات العابرة في ليالي القيظ، وكانت "التيغة"، وهي سياج واطئ، الفاصل الوحيد بيننا وبين جيراننا الذين كانوا في غالبيتهم من الأقارب. بمجرد أن يحل المساء، كنا نهرع إلى السطح لترتيب أسرتنا عليه، وكان الأطفال منا يعبرون التيغ للعب مع أقرانهم في الأسطح الملاصقة، بينما يمضي الكبار وقتهم في الدردشة، وعندما يتطرق الحديث إلى أمور لم يكن مسموحا للصغار سماعها، كان أهلنا يلجأون إلى استخدام ما اصطلحوا على تسميته بـ "لسان الطيور" كي لا نفهم ما يقولونه، لكننا تمكنا من فك شفرتهم بسهولة، إذ كانوا يضيفون حرف "الزاي" إلى مقاطع كلامهم... لعلكم تتساءلون الآن عن العرسان الجدد وكيفية ممارستهم للعلاقة الحميمة في مثل تلك الأجواء؟ الجواب بسيط: كانوا يسدلون ستارة تعرف بـ "الكُلّة" حول فرشهم، الأمر الذي كان بمثابة تحذير منهم للآخرين بعدم الإزعاج!

صياح الديكة كان يتكفّل بإيقاظنا من النوم عندما يأتي الصباح، خصوصا وأن كل أسرة كانت تملك دجاجات عدة وديكا، فكانت

الديكة تبدأ صياحها مجتمعة وبلا توقف في ذات التوقيت، لكن خلافا للاعتقاد السائد، كانت الديكة تصيح خلال ساعات الليل أيضا، بل أنها تطلق أولى صيحاتها بعد انتصاف الليل بقليل، ولذلك كان قول أحدهم أنه "استيقظ مع بدء صياح الديك" يعني أنه لم يحظَ بما يكفي من النوم.

أذكر عندما ظهرت ساعات اليد، كان الأطفال يتجمّعون عند النواصي كي يسألوا كل عابر تبدو عليه آثار النعمة عن الوقت، فلم تكن لدينا ساعات في تلك الأيام، وكان مدهشا بالنسبة إلينا أن يخرج المرء قطعة من المعدن من جيبه كي يقرا الوقت الظاهر على قرصها... تعلّمنا لاحقا في صفوف الدرس أن السومريين كانوا أول من اكتشف فكرة قياس الوقت بدقائقه الستين وساعاته الاثنتي عشرة، بالإضافة إلى وضعهم التقويم ذي الاثني عشر شهرا.

راودت بابا فكرة بناء القصر بعد حدوث ما عُرِف بالفيضان الكبير الذي تفشّت الكوليرا في بغداد على أثره، وكان الوضع الصحي المزري السبب وراء انتشار العدوى سريعا عبر الطرق القذرة الضيقة المغطاة بالوحل، فمرور أكثر من شخصين في زقاق كان يقتضي أن يقوم أحد الثلاثة بالسير بمحاذاة الجدار كي يفسح المجال للآخرين بالمضي قدما... مفردات كالنظافة العامة والرعاية الصحية لم يكن لها ذكر في محادثاتنا، فتحت الحكم العثماني الذي استمر حتى عام 1917 كانت مهمة الإشراف على الخدمات العامة من تنظيف وإنارة الشوارع (إن وجدت) وتجهيز المياه وإطفاء الحرائق ومراقبة حال الأسواق كلها منوطة بالقاضي.

كان لكل من أحياء المدينة المختلفة دورية شرطة للنهار وأخرى لليل، بالإضافة إلى وجود بوابات وحرس للحماية، وكان معظم الأثرياء يسكنون المركز بالقرب من مقر السلطة، أو في المناطق التي كانت مركزا لنفوذهم، فيما لجأ البعض منهم إلى السكن في أطراف المدينة حيث الهواء أكثر نقاوة والأراضي أكثر وفرة، أما أصحاب الحرف وصغار التجّار فقد كانوا يسكنون الأحياء المكتظة بالقرب من مقار أعمالهم، وكان الدين عاملا آخر أثر في التوزيع السكني ونتج عنه التمركز حول الجامع أو الكنيس أو الكنيسة، وبقي السوق الكبير في الشورجة ملتقى لأتباع الديانات المختلفة... كانت الأحياء بؤر الحياة لساكنيها الذين جمعت بينهم المراسم والاحتفالات ومناسبات الولادة والأعراس والجنازات، وعندما نمت بغداد وتطوّرت، ظهرت فيها مناطق جديدة عُدّت أكثر رقيا من سواها، فتراجعت مكانة بعض الأحياء القديمة مثل حنّوني الذي أمسى سكنا للفقراء.

مجتمعات المدينة كانت متعايشة مع بعضها البعض بسلام، وإن تشاكست فيما بينها حول الديانة على نحو محبب وبلا حزازات، فقد عُرِف عن اليهود، على سبيل المثال، تخصّصهم في صياغة الحلي والمجوهرات، وكان من بين الحكايات اللطيفة ما سمعناه عن سيدة مسيحية قصدت جواهرجيا يهوديا كي يصنع لها صليبا من الذهب مطعما بحبات الماس كي ترتديه على صدرها بمناسبة أعياد الميلاد... عندما أصبحت القطعة جاهزة، لاحظت السيدة أن أحد ذراعي الصليب بدا مائلا قليلا، ولم يكن نظيرا للذراع الآخر.

"ألا يكفيكم معشر يهود أنكم قتلتم يسوعنا؟ وها أنتم الآن تريدون تشويه صورته أيضا!" قالت السيدة شاكية.

"مهلا سيدتي!" أجابها الجواهرجي "يعقوب الصائغ"، ثم عقّب: "طالما أنكِ تتهمينني بقتل يسوعكم، فأنا أدرى بالطريقة التي تم بها الأمر، وأستطيع أن أؤكد لك أن الصليب الأصلي لم يكن متناظرا، والدليل على قولي أنك عندما سترتدين هذه القطعة ستجدين أنها أفضل تعويذة عندك!"... قيل إن السيدة ناولته الثمن يومها، وبقيت تضحك على طرافة رده حتى وصلت إلى بيتها.

خشية بابا من تحول مرض الكوليرا إلى وباء في ظل تلك الظروف الصحية السيئة دفعته إلى مشاركة أحد أصدقائه من أيام الدراسة في شراء قطعة أرض زراعية في منطقة كانت تعتبر حينها من ضواحي العاصمة وتُعرف بـ "الكرادة الشرقية"، وتقسيم مساحتها فيما بينهما كي يبني كل واحد منهما قصرا في الجزء الخاص به. كان ذلك قرارا شجاعا ومكلفا أيضا، إذ تحتم عليهما نقل مواد البناء والعمالة من المدينة في "كفة" وهي قارب أسود اللون دائري الشكل على هيئة إطار سيارة عملاق، مصنوع من نسيج النباتات والأغصان المطلية بالقار على نحو مشابه للقوارب ذات المجاديف التي استعملها السومريون قبل سبعة آلاف عام لنقل الناس والبضائع عبر نهري دجلة والفرات، ولم يكن هناك متسع للجلوس في القفف، فكان على الجميع البقاء واقفين طيلة زمن الرحلة، لكن الوضع لم يكن مناسبا لمراقب العمال الذي أصر على التنقّل في قارب لوحده. أمر آخر كان ينبغي مواجهته هو حدوث سرقات متلاحقة

في الموقع، وهو ما دفع صديق بابا إلى الانسحاب من المشروع وترك نصيبه من الأرض بلا تعمير... لا شك أن بابا قد أصيب بخيبة أمل، لكنه ما كان ليدع الأمر كي يثبط عزيمته، بل اعتبر ما حدث ميزة، فعدم وجود جيران ملاصقين لنا أو مبان قريبة منا سيجعل بيتنا متمتعا بالخصوصية ولن تكون لأحد إطلالة عليه.

مع تفاقم الأوضاع الصحية، اتخذ والدا بابا قرار ترك بيتهما في حنّوني والانتقال للسكنى في حي أقرب إلينا هو "كجّة النصارى"(10)، مع ذلك كانت الرحلة إليهما تستغرق ساعة باستخدام "العربانة" التي يجرها حصان، وهي الوسيلة التي اعتمدنا عليها في تنقلاتنا اليومية. دارهما الجديدة كانت تُسمّى "بيت البرازالي"، وكانت ذات فناء كبير جدا حتى أنهما ربيّا بقرة وعجلا في واحدة من غرف الطابق الأرضي، لكن سعة الدار عجزت عن استيعاب قاطنيها من أبناء سبعة كبار وابنتين متزوجتين وأسرهم... يصعُب عليّ الآن أن أحصي الساكنين المكتظين في البيت الذي أغرمت به لكثرة غرفه ولعبي المستمر فيه، بالإضافة إلى التدليل الذي كنت أحظى به من الجميع.

بعد مرور بضع سنوات، كنا مجتمعين حول مائدة الطعام في قصرنا ذات ليلة سبت لتناول وجبة عشاء خفيفة، وبينما كان الشاي يجهز على نار هادئة في "السماور"، انتبهنا إلى اندلاع النيران على مبعدة أمتار خمسة من موضع جلوسنا، فتعالى صراخنا وهرعنا بالنزول مذعورين وباحثين عن دلاء وقدور طهي وطاسات لملئها بالماء وإخماد اللهب المتصاعد، إذ كان حريق قد شبّ في مخزن وقودنا.

أخرجونا نحن الأطفال سريعا إلى الشارع كي ننادي: "شرطة! شرطة!" لكننا كنا معزولين بلا خدمات أو رجال مطافئ أو هاتف أو تأمين... لمحنا عربانة تتجه نحونا، وعندما دنت منا دهشنا لمرأى جدتنا يمّة بداخلها مع واحدة من عمّاتنا وعمّنا. لم تكن الزيارة متوقعة، لكنها أعطتنا دعما وتمكنّا بمساعدتهم من السيطرة على النار وإخمادها قبل وقوع ضرر كبير.

كان الضيق باديا على يمّة التي لم تفصح عن سبب قدومها، لكننا علمنا لاحقا أن هاجسا قد راودها وجعلها تطلب زيارة بابا على الفور، فحاول الجميع إقناعها بالانتظار حتى صباح اليوم التالي، لكنها كانت قد حزمت أمرها وأصرّت على الخروج دون إبطاء.

انتقالنا للعيش في الكرادة شكّل نقطة تحوّل في حياتنا، إذ كان علينا التأقلم مع قصرنا ذي الطابقين الذي احتل موقعا بارزا على ضفة النهر، وكان مُلفِتا للأنظار بجدرانه الصفراء مع روابط بيضاء تخلّلتها، رغم أن تصميمه الداخلي كاد أن يكون نسخة عن بيتنا القديم في حنّوني، لولا بعض التعديلات التي ثبت فشلها بسبب استعانة بابا بمهندس غير مؤهل نسي أن يضع في الخريطة ملاقف للتهوية، الأمر الذي عانينا منه بشدة خلال فصل الصيف... كان المبنى مهيبا بشرفاته وجدرانه التي بلغ سمك الواحد منها قرابة متر، وكانت شبابيكه ذات قضبان حديدية مع مصراعين متينين لكل منها للحماية، فكنا نحرص على إغلاقها في الليل، أما الشناشيل أو الشرفات البارزة المطلة على النهر فكانت بالغة الجمال هي الأخرى، وكان يُخيّل للناظر من خلالها أنه واقف في وسط المياه.

بالرغم من أن بغداد كانت على مسيرة ساعتين منّا شمالا، كان بوسعنا رؤيتها بوضوح من موقعنا، وعندما كنا ننظر غربا عبر النهر كانت تطالعنا "الجزرة" التي توسّطته، وعلى مسافة إلى الجنوب كان يقع مركز الشرطة بمبناه المُطل على النهر أيضا، وكانت الطريق من هناك تؤدي إلى المنطقة المعروفة بـ "السبع قصور". بدلا من اكتظاظ أزقة المدينة وصعوبة السير فيها، شعرنا في موقعنا الجديد كما لو أننا نطير على بساط سحري، ترافقنا زقزقات البلابل في أعشاشها وهي تملأ الجو بنغمات فائقة العذوبة، فأينما جلنا بأبصارنا كانت تطالعنا بساتين النخيل والمزارع وحقول الخضروات... تلك المناظر الخلابة كانت تسعدني وتعطيني شعورا بالراحة والاستمتاع بالحياة، ثم أصبحت طفولتي أكثر إثارة وسحرا عندما بت قادرة على فهم حكايات "علي بابا" و"علاء الدين" و"السندباد البحري" التي روتها "شهرزاد" لزوجها "هارون الرشيد"[11]، خليفة بغداد في القرن الثامن الميلادي.

قصرنا كان من أوائل الأبنية المشيدة بالآجر والحجر في منطقة كادت أن تكون أرضا زراعية بحتة، حيث لا أسوار أو أسيجة تحيط بالممتلكات وترسم حدودا لها... أستطيع تذكر أسماء الأماكن المجاورة لنا كما لو أنني كنت موجودة هناك بالأمس، فهذا "بستان جاسم" وذاك "بستان موسى" وهنا "بيت الأسود" وهناك "بيت النقيب"، أما البيوت التي كانت موجودة في المنطقة عندما عزم بابا على تشييد دارنا، فكانت مبعثرة بين المزارع الشاسعة التي أُقيمت عليها لاحقا بناية وزارة النقل ومنشآت جامعة بغداد، وكانت (البيوت) مبنية باستخدام لبن الطين وذات أحجام صغيرة.

"بيت النقيب" المملوك لزعيم الطائفة السنية والذي كان يعد أهم الشخصيات الدينية في تلك الأيام كان الأبرز، إذ تم تشييده على قطعة أحاطت بها المياه من جهات ثلاث، فبدت كالمرفأ في عرض النهر... إلى جوارنا، كان يقع "بيت عطوامي"، وهو مسكن ذو طابق واحد عاش فيه رجل مسلم كان يملك ناعورا أو دولابا لسحب الماء من النهر يتكون من عجلتين متعامدتين يحركهما ثور يقوده رجل، فاعتدنا مراقبة الماء وهو ينسكب من دلو إلى آخر قبل أن يجري في ساقية محفورة يدويا في أرض جارنا الذي اتفق بابا معه (قبل أن يقوم بشق نظام ري خاص بنا) على تحويل مجرى المياه باتجاه حديقتنا يوميا في توقيت بعينه لسقيها.

بيتنا الجديد كان فسيحا على نحو زاد عن حاجتنا، إذ ضم ثماني غرف نوم مع فضاء كبير مشرف على الفناء كان يُعرف بـ "الطرار" وكنا نستخدمه كصالة مفتوحة، وبطبيعة الحال، كان لدينا أيضا ميكفه (حوض الاغتسال والتطهّر للسيدات) يتم الدخول إليه عبر الحديقة... عندما بدأ توافد الأسر للسكن في الحي، عرض والداي على السيدات استخدام حوضنا من باب اللياقة، فكن يأتين أزواجا مُتلفّعات بعباءاتهن الحريرية السوداء مع حُجُب سميكة تغطي وجوههن كي لا يتمكّن أحد من التعرّف عليهن، وكان علينا في البدء إرشادهن إلى مكان الميكفه، لكنهن سرعان ما عرفن الطريق وبتن يكثرن من التردّد عليه. أحد الخدم كان يقوم بإعطائهن المفتاح الضخم الذي يبلغ طوله أكثر من عشرين سنتيمترا، وكن يتركنه حذو الباب عند خروجهن كي يتكفّل المستخدمون بإقفاله وراءهن.

طقس التطهّر كان يقتضي من النساء التجرّد تماما من جميع ملابسهن وحليهن، وأذكر هنا أن إحدى السيدات نسيت ذات مرة أن تخلع خاتم زواجها، فأصابها قلق شديد لدرجة أنها قصدت الحاخام كي تستفتيه في الأمر... عندما فحص الحبر إصبعها، وجد أن الخاتم لم يكن لصيقا به وكان بالإمكان تحريكه بسهولة، فأفتى بعدم وجود تثريب على المرأة طالما أن خاتمها لم يحل دون وصول الماء إلى الجلد، وبأنها "كوشر" أو نظيفة، ولا حاجة بها إلى معاودة الغطس في الماء لمرات ثلاث.

تمكّن بابا من إقناع شقيقته وأسرتها بالانتقال للسكنى معنا، فقد كنا بأمس الحاجة إلى رفقتهم، إذ لم يكن التكيّف مع العيش في الريف خاليا من المصاعب، خصوصا لمن اعتادوا حياة المدينة مثلنا، وإن كان مدهشا وجودنا في وسط المزارع التي تزوّد أسواق بغداد بشتى الغلال من تمور وفواكه وخضروات طازجة... الأراضي المحيطة بنا كانت مزروعة بالكامل ومفتوحة، وهو ما جعلنا عرضة للسرقات، فتكرّر خلال أيامنا الأولى في القصر أن نستيقظ في الصباح لنجد التمور التي انتقيناها بعناية ووضعناها جانبا استعدادا لخزنها وقد اختفت مع ملابسنا التي نشرناها على حبال الغسيل كي تجف.

كنا نحن الأطفال نظن أننا نحيا في الجنة، حيث كانت لدينا ثلاث شجرات نبق مثمرات، إحداهن كانت بجوار البيت والأخريان أبعد منها، كما كانت النخلة الخستاوية على قارعة الطريق مثالية للتسلّق بحجمها الكبير وسمك جذعها وظلالها الوارفة، ولذلك كان يطيب لنا

تناول غداءنا تحتها، خصوصا في المناسبات كأيام السبت أو العطلات، فكانت طاولة مستديرة مع كراس من القماش تستقر بشكل دائم عندها، لكننا قلّما استخدمناها، إذ كنا دائمي الحركة بين ركض ولعب. أما شجرتنا المفضّلة على الإطلاق فكانت النخلة المنحنية التي نما جذعها بشكل أفقي جعله يسير الارتقاء بالنسبة لنا لقطف ثمرها الشهي، على العكس من النخلات الباسقات الأخريات اللاتي ناهز عددهن خمسا وعشرين، وتوزّعن في أرجاء الأرض... كنا نجد متعة غامرة في جني وأكل الفواكه الناضجة من تين وعنب وإجاص ومشمش وخوخ وينكدنيا (مشمش هندي) وتوت، كما كانت عندنا أشجار برتقال ورمان ولوز وجوز، والأخير تحديدا كان مرغوبا لدينا نحن الفتيات، فقبل نضوج الثمار وقسوة قشورها كان بوسع عصيرها أن يصبغ شفاهنا بلون بني غامق وثابت، تماما كحمرة الشفاه التي لم تعرفها أسواق بغداد حتى نهايات العشرينيات، وهو ما كان يشعرنا بالنضج والجمال وإن تسبب بألم وشقوق في شفاهنا. اعتدنا أيضا أن نأكل التمور قبل نضجها وهي لما تزل خضراء وتُسمّى بـ "خلال الطوش"، بالإضافة إلى المشمش الأخضر أو "الجقال"، و"الكوجة" وهي الأجاص الأخضر، وحبات الليمون التي كنا نرشها بالملح قبل لعقها، ولو أنها كثيرا ما سببت لنا آلاما في المعدة، لكن أيادينا الصغيرة استمرت بجمع كل ما طالته من ثمار غير ناضجة، رغم نهي والدينا الصارم لنا وتحذيراتهما المتكررة.

غياب شريك لبابا في الأرض التي ابتاعها أتاح لنا استخدام الشرفة الواطئة للقصر لشؤوننا الخاصة، فأشعة الشمس التي كانت تغمرها في

الشتاء جعلت منها مكانا مثاليا لتناول غدائنا، وبسبب انفتاحها وبرودتها في الصيف كنا نستمتع بالتعشّي فيها تحت سماء مطرزة بالنجوم وأغصان التوت المتدليّة وثمارها الشهية المتساقطة.

كنا نمضي ليالي الصيف على السطح أيضا، لكننا استعضنا عن الدردشة مع الجيران بالحديث مع المستخدمين، كما باتت لدينا مساحة أوسع للحركة وتربية الدجاج والديوك الصادحة، فما أن تغرب الشمس حتى كان يتم حمل إبريقين كبيرين إلى الأعلى كي يتسنى لماء الشرب فيهما أن يبرد، وفي كل صباح كان رجل يقوم بتزويدنا بلوحين ضخمين من الثلج، غير أنهما وبسبب عدم توفّر الصناديق التي تحافظ على البرودة في تلك الفترة كانا يذوبان خلال ساعة أو اثنتين... اعتدنا النوم على السطح العالي الذي أتاح لنا إطلالة شاملة على الأراضي المجاورة، أما المستخدمون فكانوا يفترشون السطح "الناصي" أو الواطئ على الجانب الآخر من الدار (باستثناء خادمتنا الأرمنية التي كانت تبيت معنا)، وكنا نشرف عليهم أيضا من موقعنا المرتفع، وكان السطح الناصي يطلّ على "الطرار" المفتوح على الفناء الداخلي الذي كان بمثابة القلب في القصر، وكان واسعا لدرجة أنه استوعب أكثر من مئتي ضيف مع جوقة موسيقية كاملة خلال حفل زفاف شقيقتي الكبرى فهيمة.

كما ذكرت سابقا، كنا نستخدم الطرار كصالة جلوس صيفية، إذ كانت تحيطه دكّات خشبية عليها وسائد خاصة محشوة بالقطن ومغلفة بقماش أبيض ناصع، وكانت له أربعة شبابيك مزدوجة تُرِكت عمدا بلا

ستائر كي يتسنّى فتحها على مصاريعها، فيتسلّل عبرها نسيم منعش مُحمّل بروائح الحديقة العطرة، وما زال مزيج شذا زهور البرتقال والياسمين والغاردينيا والورود يذكّرني بأيام طفولتي حتى اليوم... كان بوسعنا مشاهدة الحديقة من داخل الطرار ومراقبة ما يحدث فيها، فهي لم تكن لمجرد الزينة كما كان الحال في كثير من بيوت بغداد، بل كانت لها فوائد أخرى مثل تحقيق الاكتفاء الذاتي من الغذاء، وهو ما طمحنا له حسب قدراتنا وظروفنا، خصوصا مع صعوبة حفظ الأغذية في مثل ذلك المناخ الحار، فأتاحت لنا زراعة المحاصيل الحصول على غذاء طازج على الدوام، وابتعنا فيما بعد بقرتين كنا نربطهما مع عجولهما في أقصى الجانب الأيسر تحت التعريشات العالية المحمّلة بعناقيد العنب، أما أقصى اليمين فاحتله قن الدجاج مع حظيرة شتوية للماشية.

نعم، كنا نحيا في جنة عدن حتى اندلعت حرب عظيمة في أوروبا بعد مرور وقت قصير على انتقالنا للعيش في فردوسنا الصغيرة، فبدأ صدى المعارك المحتدمة يتناهى إلينا ويخيّم على شتى مجريات حياتنا رغم بعد المسافة بيننا، إذ كان العراق تابعا للإمبراطورية العثمانية التي تحالفت مع ألمانيا، وسرعان ما انطلقت حملات لتجنيد الرجال قسرا في صفوف الجيش التركي لمحاربة البريطانيين، وهو ما أثار مخاوف بابا ورفاقه ممن كانوا يكنون الإعجاب لبريطانيا، ووضعهم في موقف صعب.

شهد عام 1915 تعكّرا مفاجئا لصفو حياتنا، فذات نهار أرعبت نانا ضربات عنيفة انهالت على باب القصر من قبل رجال يرتدون الزي

الرسمي التركي، جاءوا لاقتياد بابا بعيدا عنّا لأنه كان ضمن مجموعة من أبناء الأقليات، صدرت الأوامر بأخذها وتسفيرها إلى الموصل في شمال البلاد على مقربة من الحدود مع إيران لشبهة تعاون أفرادها مع العدو... أكثر من خمسين شابا من أبناء الأسر اليهودية والمسيحية، كان معظمهم زملاء بابا في الدراسة، بالإضافة إلى شقيقين لنانا هما خالاي "عزرا" وموشي، فُرض عليهم خوض الرحلة الشاقة تحت حراسة ألمانية وتركية، إما سائرين على الأقدام، أو راكبي الدواب للمقتدرين منهم.

كان الحدث جللا بالنسبة إلى والدتي التي وجدت نفسها مسؤولة عن أطفال صغار كنتُ خامستهم عددا وأحدثهم سنا، فقررت مغادرة القصر كي تكون بالقرب من أفراد العائلة والأصدقاء خلال تلك الأوقات العصيبة التي حتّمت على النساء المتروكات لوحدهن مع أطفال بلا معيل تدبير أمورهن وأمور أسرهن، بينما اختبأ الشباب من الرجال في العليّات والأقبية ولم يجرأوا على مغادرتها خشية إلقاء القبض عليهم... كثيرون فرّوا إلى دول أخرى أو اتجّهوا جنوبا إلى البصرة التي كان البريطانيون قد أحكموا سيطرتهم عليها، واستطاع البعض الآخر شراء نجاته من محنة التجنيد بتقديم رشى ضخمة بلا ضمانات بعدم تعرّضهم للمضايقة مستقبلا، وكان أولئك من المحظوظين، إذ سيق الرجال اليهود من صحاح الأبدان على عجل وبلا تدريب أو تجهيز إلى خطوط المعارك الأمامية للقتال ذودا عن سلطان معتل الصحة لم تكن تقاليدهم أو قيمهم تعني له الكثير. قلة فقط بلغت وجهتها، إلا أن أحدا منهم لم يعد إلى أهله، فعندما تيقّن الأتراك من الهزيمة، قاموا بصب جام

غضبهم على المجنّدين المساكين، وقتلوهم عن بكرة أبيهم.

فجأة وبلا سابق إنذار أو توضيح، سُمِح لبابا وصحبه من المُبعدين بالعودة إلى ديارهم، وربما كان السبب وراء ذلك هو خلو خزانة السلطان، الأمر الذي دفع الأتراك إلى محاولة الحصول على كل ما طالته أيديهم من أموال قبل إسدال الستارة الأخيرة على عهدهم... تم إعدام عدد من اليهود مع بعض المسلمين والمسيحيين بتهمة الفرار من الجيش أو لعدم قدرتهم على تدبير الذهب اللازم لشراء نجاتهم، وعندما تذمّر عدد من الصيارفة والمصرفيين من إجبارهم على إبدال المسكوكات الذهبية والفضية التي كانت بحوزتهم بأوراق العملة التركية المطبوعة حديثا عديمة القيمة، كان رد الأتراك حاسما بإلقاء القبض على المتمردين وسوقهم إلى دجلة حيث قُتِلوا وقُطّعت أجسادهم قبل أن تُلقى في مياه النهر في أكياس، وتزامن ذلك مع موسم الحزن العظيم عند اليهود المُسمى بـ "تشعة باب"[12].

ما سمعه والدي وشاهده خلال رحلة عودته إلى بغداد جعله يدرك مدى خطورة الإقامة في قصرنا النائي الذي لم يعد استئناف حياتنا السابقة فيه خيارا متاحا، لكن المدينة هي الأخرى لم تعد ملاذا آمنا لرجل بعمر التجنيد، ولذلك قرّر بابا مع عدد من رفاقه في عام 1916 أن يعودوا إلى المنفى على نحو طوعي هذه المرة، فلا أحد كان يعلم ما يخبئه القدر لهم في تلك الأوقات الحرجة... سارع بابا وصحبه بجمع بعض المسكوكات الذهبية مع وثائق سفرهم الدولية، وتوجهوا على ظهور الدواب نحو الشمال الشرقي على خطى قوافل العصور الغابرة

سعيا لبلوغ بلاد فارس التي تدعى اليوم إيران، والبقاء في "كرمنشاه"(13) حتى تضع الحرب أوزارها، إذ كان لبابا بعض معارف العمل في المدينة، ولم يكن بوسع المسافرين اصطحاب أهليهم معهم لكون الرحلة بالغة الخطورة.

كان مؤلما بالنسبة لأبي أن يترك أسرته الصغيرة للمرة الثانية بعد وقت قصير فقط من لم شمله بها، أما نانا فقد وافقت على قرار رحيل زوجها لأنه كان أضمن لسلامته... حرص بابا قبل مغادرته على تدبير أمورنا والتأكد من أننا سنكون بأمان، ثم قام بتكليف شخص كانت علاقتنا به تعود لسنوات عديدة سابقة بالتسوّق لنا وتلبية كل احتياجات نانا، فتكفّل الرجل بشراء البقالة وجلبها لبيتنا في كل صباح على ظهر الحمار، أما ثمن المشتريات فكان سكرتير والدي مسؤولا عن تسديده، وأذكر هنا أن بابا كان دائم الشكوى من عدم تحديد نانا الوزن المطلوب من كل صنف، وهل كانت تقصد "أوقة" أم "أوقية"، وهما وحدتان عثمانيتان قديمتان للوزن كانتا متداولتين في تلك الفترة، لكن الثانية كانت تعادل ربع الأولى، الأمر الذي تسبب بحصولنا على أكثر من حاجتنا من كل شيء، ولم يفت بابا أن يوصي سكرتيره ببعث رسائل يومية إليه تتضمّن سطورا بخط كل فرد من أبنائه أو توقيعه، فكان أحد الكبار يقوم بإمساك يدي وتحريكها على الورقة كي أضيف شخبطتي إلى الرسالة نظرا لحداثة سني وقتها.

رافق بابا وصحبه في رحلتهم التي استمرت أياما عديدة دليل من البدو، وعندما بلغوا الحدود قام الجنود الروس الذين كانوا حلفاء

للبريطانيين بإيقافهم وارتابوا في أمرهم حتى أنهم كادوا أن يأسروهم، لكن "إلياهو مير" وهو أحد أفراد الركب، وكان يمتاز بشعر وبشرة فاتحي اللون، خاطب الضابط بالإنكليزية معرّفا نفسه كقائد للمجموعة، وقام بابا بتأييد زعمه بالإنكليزية أيضا، فسمح لهم بالمرور ومضوا في سبيلهم بخطى واثقة، غير أن اللصوص تمكّنوا من الإيقاع بالقافلة بعد مسير ثلاثة أيام عبر الجبال، وجردوا أفرادها من كل أمتعتهم، بما في ذلك أموالهم ومتعلقاتهم الأخرى وحتى ملابسهم، ثم تركوهم عراة إلا من ألبستهم الداخلية... ضلّ المسافرون الطريق بعدها أكثر من مرة، لكنهم استهدوا بحدسهم، وتمكّنوا أخيرا من بلوغ غايتهم التي غادروها مرة أخرى إلى "همدان"[14] حيث أمضوا ما بقي من زمن الحرب.

هوامش الرسالة الأولى

(1) يلفظ يهود بغداد المفردة: "حنوكة"، وهو "عيد الأنوار" الذي يمتاز بإيقاد الشموع على امتداد أيام ثمانية، ابتهاجا باستعادة "الهيكل الثاني" وتطهيره في عام 164 قبل الميلاد.

(2) RMS Titanic سفينة نقل ركاب بريطانية عملاقة، غرقت في المحيط الأطلسي الشمالي اثر اصطدامها بجبل جليدي في رحلتها الأولى من ساوث هامبتن في بريطانيا إلى نيويورك في الولايات المتحدة، ولقي أكثر من ألف وخمسمئة ممن كانوا على متنها حتفهم.

(3) المهر المقصود هنا هو حصة من ميراث الفتاة من والدها، كانت تذهب حسب العرف اليهودي القديم للرجل الذي يتزوجها.

(4) تهنئة شائعة بالعبرية تعني تمني البركة والحظ السعيد.

(5) هل تسمية السيدة بالست في اللغة العربية المحكية (جمعها ستات) مشتقة من ذلك الطقس؟

(6) لم يُعثر على مثل النمر والنعج المذكور، ولا أي ذكر مقارب له ضمن الأمثال العراقية الدارجة.

(7) "زيدا" لقب يطلق على الجد في اللغة اليديشية القديمة، وان لم تكن الأخيرة شائعة بين يهود العراق.

(8) التسمية الشائعة لها بين البغداديين هي "البادكير"، ولم يُعثر على أصل أو سابقة لاستخدام كلمة "بخاري" في موضع آخر.

(9) لم يتم العثور على ذكر لاستخدام الزعرور البري في صناعة البخور في مصدر آخر.

(10) التسمية المعروفة للمكان هي "عقد النصارى"... ورد ذكر مفردة "كجة" أكثر من مرة، وتعذر العثور على أصل لها في العربية أو العبرية أو التركية التي كان تأثيرها جليا في كثير من مسميات تلك الفترة، وأقرب ما وُجد هو تسمية المكان أو الشارع بـ "كوجة" أو "كوجا" في الفارسية، ولا يُعرف إن كان ذلك هو الجذر الحقيقي للتسمية.

(11) خلط بين الواقع والخيال وخطأ يقع فيه بعض العوام عند زجّهم باسم الخليفة العباسي الشهير باعتباره الحاكم الذي روت شهرزاد له حكاياتها ضمن النص القصصي المعروف بـ "ألف ليلة وليلة"... اسم الشخصية المقصودة هنا هو "شهريار"، وإن ورد ذكر هارون الرشيد في سياق عدد من حكايات الكتاب.

(12) "تشعة بآف" أو التاسع من شهر آف/آب هو نهاية لفترة صوم طويلة واليوم الأكثر حزنا في التقويم اليهودي، إذ يؤرخ لذكرى تدمير الهيكل المقدس في أورشليم.

(13) عاصمة مقاطعة "كرمنشاه" الواقعة في غرب إيران بمحاذاة الحدود مع العراق.

(14) عاصمة مقاطعة "همدان" الواقعة في الغرب أيضا، وتُعرف بأنها واحدة من أقدم المدن الإيرانية.

الطفولة

استأجر بابا خلال سنتنا الأولى في القصر رجلا يمتلك حمارا كي يقوم بإيصال أكبر ثلاثة من أبنائه وهم ريجينا ونعيمة وسلمان إلى المدرسة الريفية الأقرب لسكننا... كان جلّ الاهتمام منصبّا على سلمان الذي حرص والدي على جودة تعليمه وتزويده بالمهارة والكفاءة المميّزتين اللتين تمتّع بهما، أما الفتيات فكن مجرد مرافقات للصبي طالما أن ظهر الحمار يتسع لحمل ثلاثة، فكان سلمان يجلس في الوسط محاطا ومحميا بشقيقتيه الكبيرتين.

ريجينا ونعيمة كانتا محظوظتين إذ سمح والدانا المستنيران لهما بالالتحاق بالمدرسة في وقت شهد شبه إجماع على كون تعليم الفتيات مضيعة للوقت والمال، وأن مهمة البنات الأساسية تقتصر على تربية الأطفال وتدبير شؤون المنزل، ولذلك كان تعليم الفتاة منا يعدّ مكتملا (أو بعبارة أصح، منتهيا!) عند بلوغها السادسة عشرة من عمرها، فيتحتّم عليها أن تلزم البيت بانتظار أن يتم تزويجها من رجل غريب أو من أحد أبناء العمومة أو الأخوال في أفضل الأحوال، لكن العرف الصارم طرأت عليه بعض التعديلات عند اقترابي من تلك السن، فسُمِح لي البقاء في الدراسة والالتحاق بدورات متقدّمة وأخرى تخصّصية

لاحقا، وإن كانت صفوفنا أقرب في حقيقتها للنوادي منها إلى قاعات درس نظامية، لكنها أتاحت لأهلنا التخلّص من إزعاجنا لهم، والزعم بأننا نتلقّى "تعليما" كان عبارة عن دروس في كيفية إجادة الطهي والخياطة وما شابههما.

شكّل سقف التوقعات العالي من سلمان بأن يحذو حذو أبيه عبئا ثقيلا على كاهله الغض، فالمنافسة كانت عاملا أساسيا في دفع بابا للاجتهاد والمثابرة خلال طفولته، وكانت تشعره بالتفوّق على أشقائه الثلاثة الأصغر منه سنا، خصوصا عندما كان يعود إلى البيت برفقة جده في نهاية يوم من الصلاة والدرس في الكنيس، بينما امتاز أخواه غير الشقيقين عنه بمساعدتهما والدهما حزقيل في عمله والتحاقهما بمدرسة "الأليانس" لتعليم اللغات الأوروبية الحية، الأمر الذي دفع يمّة إلى الإصرار على حصول ابنها البكر المفضّل عندها على المؤهلات التي من شأنها أن تثبّت قدميه على طريقه المستقبلي كما رسمته له... تمرّد بابا على رغبة والدته في البداية، فقد كان يصبو إلى أن يصير مثل جده، وكانت إجادته للعبرية ستتيح له العمل كمعلّم، وهو ما اتسق مع تربيته ونشأته الدينية، كما أنه لم يكن يرى جدوى من تعلّم لغات أخرى.

استطاعت يمّة أن تحسم الجولة النهائية لصالحها باتباع حيلة ماكرة، إذ منحت بابا كنزا عادل في قيمته نفائس بابل، وكان عبارة عن خزانة خاصة به، قامت بتسليمه مفتاحها... قد يبدو الأمر تافها الآن، لكن في تلك الدار المزدحمة، كان بوسع الجميع العبث في أغراض الآخرين بلا رادع أو رقيب، وهكذا صارت لبابا خزانة كي يحتفظ فيها

بأشيائه الخاصة، ولم يعد بإمكان أشقائه الصغار الوصول إليها خلال غيابه عن البيت للدرس.

بالرغم من أن "الاتحاد الإسرائيلي العالمي"، وهو الاسم الرسمي للجهة التي أنشأت وأدارت مدارس الأليانس كان قد تأسّس في عام 1860 في باريس، لم تفتح المدرسة أبوابها للطلبة في بغداد إلا بعد مرور أعوام أربعة على ذلك التاريخ، وكانت عشرون عاما قد مضت على تدشين المدرسة عندما التحق بابا بها حيث كان أخواه غير الشقيقين يمضيان سنتهما الدراسية النهائية فيها أيضا.

تعليم والدي السابق كان ذا نفع كبير له، فقد حظي بالتقدير لتمكّنه اللافت من اللغة بالإضافة إلى معرفته الدينية المستفيضة، وكان المنهج الدراسي للأليانس يشمل تعليما إلزاميا للغات خمس هي بالترتيب، ووفقا لأهميتها في تلك الفترة[1]: العبرية والعربية والفرنسية والتركية والإنكليزية، إذ كان النفوذ الفرنسي واضحا في أرجاء الإمبراطورية العثمانية حتى أن محادثاتنا اليومية ضمّت كثيرا من المفردات الفرنسية... أحرز بابا نجاحا كبيرا في تعلّم الفرنسية لدرجة أن المدير "مسيو دانون" أوكل له مهمة تدريس اللغة لطلبة المراحل الأولية ومرحلته أيضا عندما كان المعلّم المختص يتغيّب عن الدوام لدواعي المرض، وهكذا فقد كان بابا يمضي نهاراته منهمكا في الدراسة وفي البحث عن فرص للعمل، أما في المساء، فكان يستعين بالضوء الخافت المنبعث من وعاء خزفي مليء بالزيت والماء مع فتيلة رقيقة مجدولة يدويا في أوسطه في مذاكرة دروس الأدب الفرنسي الكلاسيكي، كأعمال

"فيكتـور هوغـو"[2] و"لامـارتين"[3] و"كورنيـل"[4] و"راسـين"[5] التـي تغلغلت عميقا في وجدانه.

مؤهلات بابا مكّنته من أن يصبح شريكا لوالده في تجارته، فبذل كل ما في وسعه لتوسيع مجالاتها، وتكلّلت جهوده بالنجاح وازدهار أعمال المؤسسة بفضل إجادته للغات عدة، كما باتت له مكانة بارزة بين أبناء الجالية كرجل مثقف رغم حداثة سنه، وانتُخِب عضوا في "المجلس الجسماني" الذي يحتكم اليهود إليه في حل نزاعاتهم الداخلية، ثـم صار عضوا فاعلا في مجلس الثقات المشرف على مدرسة الأليانس، وداعيا دؤوبا لتطويرها واستقدام المدرّسين الأجانب من فرنسا وبريطانيا للعمل فيها.

استغنت الأسرة عن خدمات صاحب الحمار عندما بلغتُ سن الالتحاق بالمدرسة، علما أن رجلا آخر كان يقوم بمهمة اصطحاب الأطفال بشكل يومي إلى مدرستهم ومرافقتهم في طريق العودة منها عندما كنا نقيم في حنّوني، ونظرا لكون مدارس العاصمة أفضل بكثير من مدرسة الريف التي التحقنا بها عند انتقالنا للعيش في القصر، فقد قرّر بابا أن نعود جميعا إلى المدرسة القديمة، باستثناء شقيقتي الكبرى ريجينا التي كانت قد بلغت السادسة عشرة من العمر، واعتُبر بذلك تعليمها "مُكتمِلا".

استأجر والدي سيارة وسائقا لإيصالنا إلى المدينة في كل صباح، وكانت السيارات حديثة الظهور وقتها، فعدّ ركوبها خطرا، كما أذكر أن تلك السيارة بالتحديد كانت مُرخصة لحمل أربعة ركاب فقط، الأمر

الذي كان مناسبا جدا لنا لولا إصرار بابا على مرافقتنا كي يقوم السائق بإيصاله إلى مقر عمله، أي أن المكان المتبقّي كان يكفي لثلاثة أطفال فقط، تماما مثل أيام التنقّل على ظهر الحمار، فأُخِذ القرار بإعطاء الأولوية لبابا، ومن بعده سلمان، رغم أنه كان ثالث الأبناء، ثم نعيمة، وأخيرا فهيمة، أي لم يعد هناك متسّع لي معهم، ولم يكن واردا أن أذهب إلى المدرسة سيرا لوحدي، فتحتّم عليّ البقاء في البيت.

استغرق الحصول على رخصة تتيح للسيارة حمل خمسة ركاب بدلا من أربعة شهورا ستة، وتأخر معها بدء تعليمي النظامي، لكن الوضع لم يكن كارثيا، بل عاد عليّ بالنفع في المحصّلة، إذ أتاح لي البقاء مع نانا وريجينا في القصر، والأخيرة كانت تكبرني بسنوات تسع تقريبا، فاعتبرت رعايتها لي إنقاذا من رتابة المهام التي كانت نانا تكلّفها بإنجازها كتطريز مفرش طاولة كبير ليكون جزءا من جهازها عندما تتزوّج، وكان الجميع مدعوّين للمساهمة في العمل الشاق الذي انتهى بزواج ريجينا بعد سنوات قليلة... كانت شقيقتي أول من جعلني أدرك أن الكتاب الذي كنت أراه مجرد حزمة من الأوراق المطبوعة، كان يحمل بين ضفتيه قصصا مدهشة فاقت في عددها وتشويقها الحكايات التي اعتادت زوجة البستاني أن ترويها لي وتأسرني بجاذبيتها، كما علّمتني ريجينا مبادئ القراءة والكتابة فهيّأتني بذلك لولوج المدرسة، وأبلغتني فيما بعد أني كنت أمتص المعلومات التي لقّنتني إياها بنهم شديد، كما لو كنت ورقة نشّاف.

لم يكن أمامنا نحن الفتيات سوى قبول قدرنا والرضى به، فلم يكن جائزا للنساء من مستوانا الاجتماعي التفكير في الحصول على وظيفة، أيّا

كان نوعها، ولذلك كبرنا ونحن مؤمنات أن لا سبيل أمام الواحدة منا عندما يحل عيد ميلادها السادس عشر سوى أن تلزم البيت مع والدتها، وبالنسبة لرجل بمكانة بابا، كان السماح لأيّ من بناته بالتدرّب على مهنة ما سيُعد مهينا، إذ كان الناس سيظنون أننا نعمل لتأمين لقمة عيشنا، وأنه عاجز عن تلبية احتياجاتنا حتى نتزوّج.

كان بوسع الفتيات من الأسر الأرقّ حالا ممارسة أعمال يدوية كشغل الإبرة في الورشة الواقعة على مبعدة أقل من عشر دقائق سيرا على الأقدام من الحي اليهودي، والتي قام بتأسيسها عزرا، أكبر أشقاء نانا المعروف بإحسانه ودعمه للكثير من الأعمال الخيرية، لكن ذكره ارتبط بتلك الورشة تحديدا، رغم أنها باتت تعرف بمشغل "حاقولي" نسبة إلى الشخص الذي عُيّن لإدارتها وبقي ممارسا لمهامه فيها حتى النهاية... تعليم الفتيات اليهوديات المحتاجات حرفة يعتشن منها بلا عار أو حرج كانت فكرة ذكية أتاحت للكثيرات منهن العمل في الورشة التي تردّدت النساء الموسرات عليها للقاء الصديقات وشراء بعض القطع، وبحلول عام 1923 افتُتِحت في مدرستي ورشة أخرى لتعليم الفتيات الفقيرات واليتيمات مهارات الخياطة والتطريز، فصارت مقصدا لسائر نساء الجالية لتجهيز فساتين السهرة والأعراس، وكان شغل الإبرة والتطريز يُعدّ من أهم الفصول في مدرستنا حيث كان يتم تعليمنا طريقة توشية الديباج بالخيوط الذهبية.

غادر الخال عزرا بغداد مع أسرته بعد نهاية الحرب العالمية الأولى متجّها إلى بريطانيا حيث قام بشراء معمل للقطن في "مانشستر"[(6)]،

وشهد عمله هناك ازدهارا ملحوظا، فحرص على رفد الورشة في بغداد بالمعدات اللازمة التي تكفّل بشحنها من إنكلترا وشملت المئات من ماكنات الخياطة، لكن النجاح الباهر تحقّق اثر وصول الماكنة التي تصنع الطيّات في الأقمشة، وكانت الأولى من نوعها في العراق... مع رواج تصاميم الألبسة الغربية واندثار القصات التقليدية القديمة، أصبحت الطيّات موضة سائدة، وبات لزاما على كل سيدة أن تضم خزانة ملابسها تنورة "بليسيه".

تكفّل خالي في البداية بكل نفقات المشروع الذي حرص على أن تتلقّى العاملات فيه (الصغيرات منهن، تحديدا) تعليما أساسيا يتيح لهن القراءة والكتابة لمدة ساعة أو اثنتين في اليوم، بالإضافة إلى دروسهن في الخياطة والتطريز وشغل الإبرة... كانت نتيجة ذلك أن العاملات في مشغل حاقولي اكتسبن ثقة بالنفس ونجحن في شق طريقهن في الحياة أكثر من الفتيات الأخريات، ومع النجاح اللافت للمشروع، صارت الورشة قادرة على تمويل نفسها بنفسها، وبقيت أبوابها مشرعة للعاملات والزبائن لسنوات عديدة تالية.

بالرغم من عدم تلقّي نانا تعليما منهجيا (شأنها في ذلك شأن سائر الفتيات في تلك الأيام)، كانت مُدرّبة على القيام بشتى مهام الزوجة من طبخ وخياطة، بالإضافة إلى إتقانها مهارات صعبة كشك الحرائر بالسلك المصنوع من الذهب... كانت نانا سيدة فاتنة للغاية، وكانت من أبرز مؤهلاتها إجادتها لفن الإقناع، الأمر الذي أتاح لها الحصول على مبتغاها من بابا على الدوام عن طريق المُلاطفة، كما نجحت في جعلنا

(بناتها) نمتثل لأوامرها بسرعة، فكلمات قليلة منها بصوت خفيض كانت قادرة على نزع فتيل أشد الخلافات بيننا، وكان من النادر أن نحتاج إلى الاحتكام إلى سلطة بابا العليا، أو أن نطلّب تدخّله.

حرصنا على الحفاظ على فستان زفاف والدتي لزمن طويل قبل أن نقوم بالتبرع به كي يُعرض في متحف في إسرائيل، وكان مصنوعا من قماش رائع من الساتان الحريري قشدي اللون، كما زيّنت أطراف تنورته الطويلة كشاكش مطرّزة بكثافة بالخيوط الذهبية، أما القسم العلوي منه، فكان مُبطّنا بالكامل وضيقا عند الخصر وفق طراز "البرنسيس" أو الأميرة، يتوسّطه صف من الأزرار الدقيقة التي تنتهي عند خط العنق المرتفع، وله كمان طويلان مزمومان عند المعصم... أزياء النساء في بغداد بعد نهاية الحرب العالمية الأولى كانت تتسم بالاختلاف والتنوع، وان استمرت بعض السيدات اليهوديات بارتداء ملابس ماثلت تلك التي ارتدتها نظيراتهن من المسلمات حتى ثلاثينيات القرن العشرين، كالجلابيب الطويلة والفساتين ذات التنانير الفضفاضة والسراويل، وكذلك أغطية الرأس والخُمُر اللاتي كن يسدلنها عليهن عندما يخرجن من بيوتهن، فأُطلِقت تسمية "الخيلية" على الخمار الأسود الذي يتم غزل قماشه من شعر الخيل كي يحجب وجه من تضعه عن الناظرين بشكل تام، لكنه كان يتيح لها الرؤية من خلاله، واعتادت النساء على ارتداء "الإزار"، وهو رداء بسيط بلون واحد للاستعمال اليومي، وقد يكون ملوّنا في بعض الأحيان، ويتكوّن من قطعتين لتغطية كامل جسد المرأة، أما إزار المناسبات الخاصة، فكان يُصنع من الحرير

قشدي اللون مع حواش مذهبة، علما أن أفضل أنواع الأزر وأكثرها فخامة على الإطلاق كانت تلك التي يتم جلبها من بلاد فارس، وتُسمّى بـ "الجرعلي".

كان يروق لنانا ورفيقاتها أن يطوّقن أرجلهن بالخلاخيل الذهبية، ويُسمى المفرد منها بـ "الحِجل"، وتتدلّى منه أجراس صغيرة تحدث رنينا مميّزا عند الحركة كي يعلم الجميع أن صاحبته لديها مصاغ ثمين، كما شاع ارتداء التعويذات من شتى الأنواع لدرء شر عين الحسود، وكان بعضها يُثبّت على ألبسة الأطفال للحماية، وتحمل أحجارا شبه كريمة... اعتادت الأمهات وبناتهن عند حضورهن المناسبات الخاصة على جدل "الضفائر" مع شعورهن وفق التقاليد العثمانية، والضفيرة كانت عبارة عن أشرطة من قماش بُنّي اللون تحمل أغصانا من الذهب في نهاياتها، وأذكر أني قد ارتديتها لأول مرة عندما كنت طفلة صغيرة، إذ أرسلتني نانا برفقة ابن عم لي كان في العشرين من العمر لمشاهدة الجسر الأول الذي تم تشييده على نهر دجلة، فشعرت بسعادة غامرة يومها وصرت أميل برأسي من جانب لآخر كي تُحدِث ضفائري خشخشة مُحبّبة، لكنني أحسست بالتعب سريعا وقمت بالإبطاء من حركتي، فتسلّل أحد الأوغاد من الخلف وقام بقص ضفائري دون أن أشعر. عندما عدتُ إلى بيتنا، فزعت نانا لرؤيتي بلا ضفائر وسألتني عمّا حدث، فعقدت الصدمة لساني ولم أدرِ بم أجيبها.

مع حلول العقد الثالث من القرن العشرين، ركنت كثرة من النساء اليهوديات إلى ارتداء "العباية" السوداء فوق ملابسهن غربية الطرز عند

الخروج كي لا يتم تمييزهن عن نظيراتهن المسلمات، وكان يرافق العباءة عادة "بوشي"، أو خمار أسود كن يربطنه عند مؤخرة الرأس على مستوى الجبين تقريبا، لكن صراع الثقافات لم يكن قاصرا على النساء، فقد حرص بعض الرجال على الالتزام بالزي العثماني التقليدي، فيما كان القسم الآخر تواقا إلى تبنّي الحداثة والظهور بمظهر أوروبي... نتج عن ذلك التذبذب أننا كنا نُدعى إلى حفلات زفاف في المدينة، فنجد العرائس فيها مرتديات فساتين "الشارلستون" القصيرة المنسدلة بلا أكمام مع شعور مقصوصة بشكل حاد، تعلوها قبعات "الكلوش"، وفي ذات المكان كانت تُرى بعض المدعوات ممن أبقين على تقاليد اللباس العثماني ومفرداته، بما في ذلك الضفائر.

قص الفتيات لشعورهن لم يكن مقبولا قبل الثلاثينيات، فشعر البنت كان بمثابة تاج لعزّتها، ولذلك كانت الطريقة الأمثل لتشذيب خصلنا الكثيفة المتموّجة بتقسيمها إلى جزءين على جانبي الرأس، ثم تشكيلها على هيئة أنابيب، لكن العملية كانت شاقة وتستغرق منّا وقتا طويلا، كما أن التسريحة النهائية كانت تبدو رتيبة، عفا عليها الزمن... حدثت الانتقالة عندما افتُتح أول صالونات تصفيف الشعر في بغداد وشهد إقبالا كثيفا من الفتيات، وهو ما عدّه الكبار خرقا للأعراف السائدة، فراجت أغنية في تلك الفترة صوّرت استنكارهم للأمر، ردّد مطلعها: "بنيّة بت البيت قصّت شعرها"، وكان المستمعون يعقّبون بالقول: "أعنّا يا الله! إلى أين سيقودنا تخلّي فتياتنا عن حيائهن؟".

سنحت لي الفرصة برؤية صورة قديمة لنانا تعود إلى أوائل عهدها بالزواج، بدت فيها بهيّة وهي ترتدي "الجرعلي" الحريري الأبيض الموشّى بخيوط الذهب مع كرات النسيج الصغيرة على امتداد أطرافه، وشكّت دبوسا ذهبيا كبيرا عند الكتف على هيئة ألبسة الرومان القدماء... عندما استوضحناها عن طبيعة الإكسسوارات المستعملة في تلك الأيام، قالت أنها كانت ترتدي خلخالا ذهبيا كبيرا ذا أجراس صغيرة، بالإضافة إلى عقد سميك حول عنقها، توسطه قرص ثقيل من الذهب، كما جعلها حرصها على الأناقة لا تكتفي بجدل الضفائر ذات الأغصان الذهبية في شعرها، بل كانت تحيط رأسها أيضا بعُصابة من المخمل الأسود المشكوك بحبات اللؤلؤ الطبيعي، صنعتها لها سيدة مختصّة بفن التطريز باللؤلؤ، واستغرق العمل فيها يومين متتاليين تحت مراقبة حثيثة لمنع سرقة أيّ من الحبّات الثمينة.

أتذكر أيضا أن فستانا طويلا من فساتين والدتي كان مصنوعا من الساتان ذي اللون الأزرق الملكي، ومطرّزا بكثافة بالأزهار النافرة والشرائط الملوّنة بألوان الطيف، وكانت ترتدي معه عقدا ملاصقا للرقبة يتكوّن من صفوف عدة من حبات اللؤلؤ الطبيعي الصغيرة، بالإضافة إلى العديد من الأساور والخواتم الذهبية... كان الفستان يثير إعجاب كل من يراه، ولم تكن نانا تتردّد في إعارته لصديقاتها كي يرتدينه في حفلات الخطوبة، إذ كانت كريمة النفس، سخية اليدين وحريصة على مساعدة المحتاجين بتكتّم وبلا ضجيج.

بعد انقضاء عطلة الصيف الطويلة وموسم الأعياد المقدسة[7]، حان أخيرا وقت التحاقي بالمدرسة في شهر تشرين الأول، فغمرتني الحماسة كي أرتدي الزي الموحد أحمر اللون ذا الأزرار اللؤلؤية، الخاص بتلميذات "الأسيل"[8] أو روضة الأطفال في قسم الفتيات في مدارس الأليانس الإسرائيلية العالمية التي أُطلِق عليها اسم مدرسة "لورا خضوري للبنات"، نسبة إلى السير "أليعازر خضوري"[9] الذي كان يعُدّ من أبرز فاعلي الخير بين يهود بغداد، وإن كان يعيش ويعمل في "شانغهاي" الصينية... حملت المدرسة الجديدة اسم زوجة خضوري "لورا"، تكريما لها بعد تبرّع زوجها بالمال اللازم للبناء.

كان شعري طويلا في تلك الفترة لدرجة أني لم أكن أستطيع تصفيفه لوحدي، فكانت نانا تتكفّل بمهمة تمشيط خُصله بعناية، وربط أطرافها بشرائط جميلة في كل صباح قبل ذهابي إلى المدرسة كي يبدو مظهري حسنا... حرصت نانا أيضا على تغذيتي على نحو جيد كي أبدأ يومي بنشاط، فكانت تجعلني آكل بيضة وأشرب كأسا من الحليب الدافئ بالرغم من مقتي لهما، لكن ما باليد حيلة، إذ كانت تهدّدني بقولها: "لا بيضة، لا مدرسة!" بينما كانت السيارة تقف في الخارج بانتظاري.

لم يكن مسموحا لنا أن نترك المدرسة قبل نهاية اليوم الدراسي في ذات التوقيت الذي كان يغادر المبنى فيه قرابة ألفين من التلاميذ الآخرين، وأذكر هنا أن أرضيات غرف الدراسة في الطابق الأرضي كانت معبّدة بالبلاط العادي، أما صفوف الطابق العلوي فكانت ذات أرضيات رخامية، كما كانت قاعات الأطفال الصغار تشهد اكتظاظا بالتلاميذ

الذين قد يصل عددهم إلى خمسين أو ستين في الصف الواحد، بينما تراوحت أعداد تلميذات المراحل الأكثر تقدما بين خمس وثلاثين وأربعين فتاة في الصف... كانت مدرستنا تضم أيضا بناية لسكن المعلّمات الأجنبيات الشابات، وكنا ننادي الواحدة منهن "دموزيل" التي تعني آنسة باللغة الفرنسية، وكانت لكل منهن غرفتها الخاصة في الطابق العلوي، بينما كن يتشاركن في استخدام المرافق الخدمية والفضاءات العامة الموجودة في الطابق الأرضي، كالمطبخ وغرفة الطعام والمرافق الصحية والحمام.

ضم "أسيل" أو روضة "مدام صبّاغ" التي أُلحِقتُ بها قرابة مئة طفل وطفلة ممن كانت أعمارهم دون السبع سنوات، وتم تقسيمنا إلى ثلاث أو أربع مراحل استنادا إلى السن والقدرات التعليمية، وكانت مدام صبّاغ، وهي سيدة باريسية جميلة، تحمل اسم "الآنسة نيغري" عند وصولها إلى بغداد في عام 1909 كي تمارس عملها كمدرّسة في القسم الأساسي الخاص بالأولاد في الأليانس، ولم تكن تفهم أية كلمة بالعربية ولا تتحدث سوى الفرنسية، لكن ما كادت تمر سنة على وصولها حتى تزوجت من الأستاذ "صبّاغ" الذي كان زميلا لها (كان الأمر شائعا بين معلّمات المدرسة الأجنبيات اللاتي ارتبط عدد منهن بزملائهن في العمل)، وسرعان ما رزق آل صبّاغ بصبي أسمياه "جورج" التحق بالأسيل خلال فترة وجودي فيه، وأصبح فيما بعد رئيسا لقسم الشرق الأوسط في "جامعة كاليفورنيا" في "لوس أنجليس"... ضم الصف الذي التحقت به عددا من التلاميذ الأفضل أداءً، وكان معظمهم من الإناث،

فوزعوا علينا في يومنا الأول علب معجون الصلصال الخاص بالأطفال (الطين الاصطناعي) مع أوراق للرسم وأقلام تلوين، كما زودونا ببعض الإرشادات، وكانت مفاجأة بالنسبة لي عندما أوشكت على مغادرة المدرسة بعد سنوات، إذ دعتني مدام صبّاغ إلى مشاهدة خزانة العرض الزجاجية الخاصة بها، فوجدت قطع الصلصال التي كنت قد شكّلتها بيدي قبل زمن طويل معروضة في مكان بارز منها.

اعتمد أسلوب مدام صبّاغ التدريسي على الغناء بشكل أساسي، إذ كانت تغني لنا وهي تعزف على غيتارها، ثم تدعونا إلى ترديد ما تتفوّه به وراءها كالببغاوات، فكنا نحاول تقليد لفظها للكلمات والمقاطع دون أن نفقه شيئا من معانيها... على سبيل المثال، عندما طلبت زميلتي التي كانت تجلس إلى جواري الأذن من مدام صبّاغ كي تشرب الماء، ردّت الأخيرة عليها بصوت عال: "mais oui" وهو ما بدا لي مشابها لـ "ميوي"!

بذات الطريقة تعلّمت الصيغة الفرنسية لطلب الأذن بالخروج: "Est-ce que je peux sortir?" والتي سمعتها كـ "أسكي بوه سو تي"، وظللت أردّدها على ذلك النحو مع بقية زملائي حتى مغادرتنا الأسيل... لم تواجهنا عقبات كبيرة في دروس الفرنسية، باستثناء محاولتنا عبثا أن نجيد لفظ "بونجور"، لأن حرف "الجيم" في الأبجدية العربية يُنطق ثقيلا، لا مخفّفا كما في الفرنسية، فكان لفظنا يخدش أذني المدام الموسيقيتين المرهفتين، لكن محبّتي لمعلّمتي التي صارت بسرعة المفضّلة لدى جميع التلاميذ في الصف جعلتني أسعى لإرضائها بتقليد نطقها للكلمات وحفظ أغانيها، فكنت أنشدها خلال لهوي

بطابتي، وعندما أسترجع كلمات الأغاني الآن أضحك لسذاجتها[10]، لكنها نجحت في الالتصاق بذاكرتي ورفضت أن تغادرها طيلة العقود العديدة الماضية.

حملت مدام صبّاغ غيتارها ذات نهار وقالت لنا إنها ستعلّمنا أغنية جديدة، كي يتضح لنا لاحقا أنها لم تكن سوى الـ "هاتيكفاه"[11]، وهي القصيدة التي أصبحت بعد مرور سنوات طويلة النشيد الوطني لإسرائيل... لم أكن أعلم في البدء أن الكلمات كانت بالعبرية، فوقعها على سمعي بدا مشابها لسائر الأناشيد، وفي عالمنا الخالي من التسجيلات ومحطات الإذاعة والتلفزة، كان تمييزنا بين اللغات الأجنبية مُتعذّرا، خصوصا وان لهجة المدام لم تبدُ مختلفة كثيرا، فافترضنا بأن الأغنية كانت فرنسية أيضا.

لم نكن نستخدم الفرنسية خارج نطاق المدرسة، إذ كانت مثل اللاتينية التي يتعلّمها بعض الطلبة اليوم في مدارسهم دون أن يُتاح لهم استعمالها كلغة حية خارجها، لكن الحال تغيّر بعد مرور عامين عندما ابتعنا جهاز "غرامافون" كان يُدار يدويا مع عدد من الأسطوانات التي حملت واحدة منها تسجيلا للهاتيكفاه، فذُهِل الجميع عندما رحت أنشِدُ النص مع اللحن في الوقت الذي جاهد فيه باقي أفراد أسرتي لتمييز وفهم كلماته... حينها فقط أدركت أن الأغنية التي تعلمتها في مدرستي كانت بالعبرية الحديثة، وهو ما يستدعي إلى ذهني الآن طرفة عن إسرائيلي دخل أحد مطاعم نيويورك المختصّة بتقديم وجبات الكوشر، فقام على خدمته نادل آسيوي يتحدث العبرية. عندما انتهى الزبون من تناول

طعامه وهمّ بالمغادرة، خطر له أن يثني على إجادة النادل العبرية أمام مدير المطعم، لكن الأخير قال له: "اخفض صوتك من فضلك، فهو يظن أني قد علّمته الإنكليزية!".

لم يذهب جهد شقيقتي ريجينا في إعدادي للدراسة سدى، إذ اجتزت امتحانات نهاية العام بتفوّق أهّلني لدخول المدرسة النظامية في الصف التاسع، بمعنى أن تسعة صفوف تبقّت أمامي لإتمام تعليمي المدرسي.

كان الصف التاسع مدخلا لولوجي مرحلة النضج التي حلّ الجد فيها محل اللهو، فخلعت عني زيّي الموحّد الأحمر، ولبست عوضا عنه زيا جديدا أسود اللون مع ياقة بيضاء، كما تزامنت نقلتي تلك مع تطورات كبيرة شهدتها بغداد، كان أحدها مرور الحافلات بمحاذاة القصر بعد غياب تام لوسائل النقل العام، فصرنا نستقلّها للذهاب إلى محطتها الأخيرة في "شارع الرشيد"، إذ كان دخولها إلى الشوارع الأخرى متعذرا بسبب ضيقها، كما بات بوسعنا الذهاب إلى المدينة عن طريق الزوارق ذوات المُحركات عندما يكون منسوب الماء مناسبا لسيرها، وإن بقيت الرحلة تستغرق وقتا طويلا نسبيا بسبب شق الزوارق طريقها عكس اتجاه انسياب النهر.

تضمن منهاجنا الدراسي عدة مواد، لكن دروس التاريخ كانت أكثر ما استهوتني، وأدهشتني معرفة أن بلادي قد شهدت في فجر التاريخ اكتشاف السومريين للعجلة والكتابة المسمارية التي كانت أولى طرق التدوين، وكذلك الحساب، وكان السومريون القدماء يعيشون في مدينة تقع إلى الجنوب من أرض ما بين النهرين، تُدعى "سومر"[(12)].

بالإضافة إلى الفرنسية، قام أساتذتنا (كان معظمهم من أبناء البلد) بتعليمنا اللغات العربية والعبرية والإنكليزية، وأذكر أن إتقان الأبجدية العربية تحديدا كان واحدا من أصعب التحديات التي واجهتنا، فكل حرف فيها يُكتب بثلاث طرق مختلفة على حسب موقعه من الكلمة، أي كان علينا إتقان ثلاث أبجديات، بدلا من اثنتين كما هو الحال مع الإنكليزية والفرنسية اللتين تُكتب حروفهما بطريقتين فقط: كبرى لبداية الجمل وأسماء العلم، وصغرى لما سواها... مبادئ الحساب التي كنت قد تلقيتها في الأسيل يسّرت عليّ دراسة المادة وفهمها، فكانت معاناتي الأكبر في تعلّم اللغات الأربع التي لم يكن بوسعي ممارسة التحدّث بها خارج المدرسة، حتى العربية بدت مختلفة تماما عن المحكية التي كنا نستخدمها في حياتنا اليومية، وهي مشكلة تواجه الكثيرين كما عرفت لاحقا، إذ تختلف اللهجات على نحو كبير من بلد عربي لآخر ومن منطقة لأخرى، بل إنها تتباين أيضا وفق ديانات من يتحدثونها، ولذلك فإن عددا لا بأس به من العرب اليوم لا يفهمون ما يقوله العرب الآخرون من خارج بلدانهم، أو حتى من خارج مدنهم.

تدريسنا الإنكليزية كان يتم عن طريق التلقين وترديد القول وراء معلمتنا التي أدرك الآن كم كان لفظها سيئا. كمثال على ذلك، أمضينا وقتا طويلا في تعلّم "blue dress"، أي الفستان الأزرق، ثم أسفرت محاولتنا العاشرة لإتقان اللفظ على نحو يُرضي المعلمة ويطابق طريقة نطقها عن: "بلو دري يس"... الأمر ذاته تكرّر مع مفردة "neighbour"، أي جار، والتي كنا نقرأها: "نكبور".

يبدو أني قد أبليت بلاءً حسنا، إذ قامت معلمتي في العام التالي بتهنئة بابا على نجابتي، وعرضت عليه أن تضعني المدرسة في الصف السابع مباشرة، لكن عوضا عن أن يفرحه الأمر، بدا الارتباك جليا على ملامح وجهه، وسمعت همهمته: "ويهُ ويه!" التي كان يكثر من استخدامها بطبقات صوتية مختلفة، تعبيرا عن الدهشة أو الصدمة أو الإعجاب أو حتى الاستهزاء، ثم قال لها إن عليه التشاور حول الموضوع أولا مع نانا... عندما استمعت خفية لنقاش والديّ، أدركت أن الخبر لم يرق لهما، إذ كانا قلقين مما يمكن أن يسفر عن استمراري على ذات المنوال في التفوّق، كأن ينتهي المطاف بي إلى ملازمة البيت في عمر أصغر من عمر ريجينا عندما أنهت دراستها، فحسما أمرهما بأن أتابع تعليمي على نحو معتاد، وأن من الخير لي وأنا في عمري الغض أن ألهو وأستمتع بأوقاتي، بدلا من إرهاق نفسي وعقلي بالإكثار من المذاكرة.

... ويهُ ويه!

امتثلت لنصيحة بابا، خصوصا وأن أداء فروضي المدرسية كان في غاية السهولة بالنسبة إليّ.

"الست فرح"، مرشدة صفنا الجديدة، كانت قد جاءت من سوريا لتعليمنا قواعد اللغة العربية، لكنني لم أُعجب بها قط، وكان ذلك شعور سائر الفتيات نحوها... طلبت منا في البداية أن نناديها بلقب "ست"، وهو مرادف "آنسة" في المحكية الشامية، لكنه يعني في محكيتنا "الجدّة"، فامتثلنا لرغبتها وشرعنا نناديها به بمكر حتى أدركت سبب قهقهتنا ذات

يوم، فقالت: "من الآن فصاعدا، بوسعكم مناداتي بمدموزيل!". للأسف، كان الوقت قد تأخّر لتغيير ما اعتدنا عليه، وبقي لقب ست لصيقا بها.

صوت الست فرح كان مرتفعا لدرجة أن الموجودين في باقي الصفوف كان بوسعهم سماعها عندما تكون النوافذ مشرعة، لكننا لم نجرؤ على الشكوى حتى عندما كان زعيقها يرتفع على نحو مزعج وهي تجاهد لإقناعنا أن كلمة "بزّونة" التي يستخدمها جميع البغداديين من مسلمين ومسيحيين ويهود ليست صحيحة، وان علينا استبدالها بـ "قطة"، لندرك فيما بعد أن السبب الحقيقي وراء استيائها كان معنى بزّونة المُشين في لهجتها الأم، لكنها كانت محقة في ما ذهبت إليه، فالمفردات الصائبة لغويا هي "قطة" و"هر" حتى وإن لم ترق لنا أو نعتد على استعمالها لأن غالبية أمهاتنا لم يكنّ من المتعلّمات في المدارس، ولم يكن منطقيا أو متاحا لنا أن نقوم بتعليم الفصحى لمن حولنا كي نستطيع التواصل معهم عبرها، ثم كيف سيتسنّى لنا إقناع أهلنا باستبدال مفردات مثل "قندرة" بـ "حذاء"، أو "جريدي" بـ "فأر"[13]؟

لم تكن الست فرح قادرة على إدارة الفصل بكفاءة، واعتمدت أسلوب الصراخ وفرض العقوبات بكتابة مفردة أو عبارة ما لآلاف المرات، فكانت تصر عليّ بوضع النقط بشكل منفصل تحت حرف الياء لأني كنت معتادة على الكتابة بخط منمّق مائل مع استخدام إشارات، سميكة أو رقيقة، فوق الحروف وفق الطريقة الفرنسية... استفزني إلحاحها لأني كنت أجيد رسم الإشارات بقلمي المبري وأدرك أثرها معاني الكلمات، كما كنت أستطيع التمييز بين النصوص الفرنسية

والإنكليزية من خلالها، وهي أمور تعلّمناها في مرحلة مبكرة من دراستنا، ولم أكن مستعدة لتشويه انسيابية كتابتي لمجرد إرضاء رغبات الست فرح! الأسوأ من ذلك، أنها لم تكن تسمح لي بوضع النقط لاحقا، بل كانت تريدني أن أضعها أثناء كتابتي لحرف الياء، فطفح بي الكيل ذات يوم وقمت بمشاكستها بوضع النقط عشوائيا وبصوت عال على كافة أرجاء الورقة، ولكي أغيظها أكثر، قمت بملء صفحة أخرى في كراستي بالنقط علّ ذلك يجعلها تكف عن الشكوى من غيابها، ومن حسن حظي يومها أن جرس الفرصة رنّ قبل أن تتسنى لها معاقبتي على فعلتي.

صرنا نتلهّف لحلول موعد درس الست فرح كي نمارس معها شرورنا الطفولية، فبمناسبة كذبة أبريل قمنا بوضع مكنسة قديمة من القش في داخل علبة حذاء وقدمناها لها كهدية، تلميحا إلى أنها كانت شبيهة بساحرة عجوز! وفي مرة أخرى، أكملت إحدى زميلاتي العقوبة التي كانت الست قد أوقعتها عليها، ثم رزمت الصفحات التي خطّت عليها الكلمات المطلوبة لآلاف المرات، وأرسلتها إليها بالبريد على عنوان المدرسة... ما أن فتحت الست فرح الطرد حتى تبعثرت الأوراق التي كانت بداخله على الأرض على مرأى من جميع المدرّسين، فاستشاطت غضبا وجاءت إلى صفنا وهي تزمجر: "أية حماقة أن ترسلي إليّ عقوبتك البائسة عن طريق البريد؟".

"خطر لي أنك أوقعت العقوبة عليّ لحاجتك الماسة لها، وبما أن يوم أمس كان عطلة، لم أشأ أن أؤخر استلامك الأوراق، فقمت بإرسالها إليك

عبر البريد. هل ثمّة مشكلة في ذلك؟" أجابت رفيقتي بكل هدوء.

"حاجتي لها؟ أنا؟ حاجتي لها؟" راحت الست فرح تصرخ على نحو هستيري، ثم قالت: "وما حاجتي لعقوبتك أيتها الغبية؟".

"ربما من أجل أن تستخدميها كأوراق مرحاض، ست!" همست فتاة أخرى، لكن الجميع سمعوا ما قالته بسبب الصمت الذي كان مطبقا على فصلنا.

كادت الست فرح المسكينة أن تفقد وعيها يومها، لكن عجزها عن التواصل معنا على نحو سليم كان السبب الحقيقي وراء الصعوبات التي واجهتها في عملها... رد فعلها على الإهانة التي تلقّتها كان إنهاء الدرس مبكرا بعد وضع علامات صفر على أوراقنا جميعا، لكنها ما لبثت أن وقعت في خطأ آخر، إذ طلبت منا بعد مرور فترة قصيرة أن نكتب قطعة إنشاء اختارت لها موضوعا هو: "بعد مرور خمسين سنة من اليوم"، وكانت بذلك كمن يجر المشاكل على نفسه جرّا، خصوصا وأن درس الإنشاء كان المُفضّل عندي، فكتبتُ:

بلغني أن معلمتي المُسنّة الست فرح تعاني من الكثير من المشاكل، وتعيش تحت وطأة الفقر والمرض، فقمت بارتياد الطائرة لزيارتها، ثم سألتها: "هل تذكرين كل تلك الأصفار؟" فأجابتني: "فيوليت، لطالما شعرت بالندم على أفعالي تلك، أرجوكِ أن تغفري لي؟ هلّا سامحتني؟" فسامحتها، وأصبحنا منذ ذلك اليوم صديقتين مقرّبتين.

أسترجع الآن ما حدث قبل عشرات السنين، فأدرك كم كنا قساة مع معلمتنا، شأننا في ذلك شأن جميع الأطفال المشاغبين في مثل سننا الصغيرة.

عندما بلغتُ الثانية عشرة من العمر، تمت خطوبة صديقتي المقربة التي كانت تكبرني بعام واحد بعد تعهّد والديها بالسماح لها بإكمال الدراسة، فجاءت إلى صفّنا ذات يوم وهي تضع عطرا فوّاحا، وكمية كبيرة من مسحوق التجميل الذي راحت ذراته تتساقط عن وجهها كما الدقيق عندما خرجنا للتمشّي خلال الفرصة، الأمر الذي جعل الفتيات الأخريات يتبعنها، ويحدقن إليها بدهشة، وكأنها مخلوق فضائي جاء في زيارة لكوكب الأرض... عوضا عن أن أقوم بتهنئتها، قلت لها أن ما أقدمت عليه كان فعلا غبيا، لكنها سرعان ما غابت عن المدرسة ولم تعد إليها قط، فافتقدتها كثيرا، وإن كنت أعلم استحالة استمرار صداقتنا بعد أن أصبحنا غريبتين عن بعض.

كان بابا يشجعنا على اللعب دائما، وأذكر هنا أنه عاد إلى البيت يوما وهو يحمل بزهو علبة "ليدو"[14] كان البريطانيون قد أعطوها له، كما كنا نحن الفتيات نمضي وقتا طويلا في اللهو بالدمى الخاصة بنا، أما في المدرسة، فكانت الساحة مكانا مثاليا لممارستنا رياضة نط الحبل وألعابا أخرى مثل "بيوت" التي كنا نتقافز فيها بين مربعات نخطّها على الأرض، وكذلك "شدّ عيون" حيث كان يتم عصب عيني فتاة من بيننا، ويُطلب منها العثور على بقية اللاعبات بعد أن تدور حول نفسها مرات خمس، وأيضا لعبة "المُخْتباية"[15].

اللعبة التي لم يُسمح لنا أن نمارسها قط كانت "الكعاب"، فكنا نرقب الصبية بدشاديشهم المهترئة وهم منكبّون على لعبها في نواصي الأحياء الشعبية ذات الغالبية المسلمة، وكانت قواعد اللعبة تقتضي رمي

الكعـاب (مكعّـب كبيـر ذي حـواف منحنيـة، مـأخوذ مـن عظـام ركبـة الخروف) عاليا في الهواء، ثم جمع أكبر عدد ممكن من القطع المنثورة على الأرض قبل سقوطه عليها، وكانت لكل وجه من الأوجه الستة للكعاب قيمة معينة كما في النرد، وإن غابت عنها الأرقام أو أية إشارات دالة أخرى، باستثناء ما هو موجود طبيعيا في قطعة العظم... كانت اللعبة ممتعة ومنتشرة لدرجة أن جيوب جلابيب الصبية الصغار كانت تُرى دائما محشوة بقطع الكعاب النافرة.

لا أذكر أني قد حظيت يوما بتوجيه أو مساعدة في الدراسة من قبل أفراد أسرتي، فبسبب عدد الأبناء الكبير وتنافس الجميع للحصول على الاهتمام، تعيّن علينا الاعتماد على أنفسنا في المذاكرة وانتظار ظهور النتائج عند حلول نهاية العام الدراسي، ثم ترقّب فتح المدرسة لأبوابها من جديد في فصل الخريف... كانت شهور العطلة الصيفية ممتعة جدا بالنسبة إليّ، إذ كنا نكثر فيها من الدعوات واستضافة الأصدقاء، وكنا نذهب معا في رحلات نهرية في كثير من الأحيان.

حلـول موسـم الأعيـاد المقدّسـة كـان مؤشـرا لقـدوم الخريـف وقـرب عـودتي إلـى الدراسـة، فكـان الحمـاس يغمـرني للقـاء رفيقـاتي ومعرفة إن كان قد تسنّى لهن تحقيق أيّ من أحلامهن الساذجة خلال العطلة

... تُرى، هل ذهبت فلانة إلى هوليوود كما كانت ترجو؟ وهل أصبحت الأخرى قائدة طائرة؟ وماذا حل بتلك الثالثة؟

كان هناك العديد من الحكايات لسردها وسماعها، وكان والدي قد وعدني (إن أبليت بلاءً حَسَنًا في دراستي) أن يقوم بإرسالي إلى "كلية بوفمونت" في باريس التي كانت تعلّم الفتيات اللياقة وتعدّهن لولوج عالم المجتمعات الراقية، وهو حلم رافقني لوقت طويل وكان دافعي للتفوق، خصوصا وأن الامتحانات الرسمية للحصول على شهادة التخرّج من المرحلة الابتدائية الفرنسية[16] كانت ستجري لأول مرة في بغداد في مسكن السفير الفرنسي، فتم انتقاء عدد من الصبية والفتيات بعناية من بين تلاميذ الأليانس كي يترشّحوا للمنافسة، ووجدت نفسي واحدة من تلك الصفوة... من الصعب وصف حماستي للحدث، فلن يكون بوسعي الحصول على الدبلوما الفرنسية فقط، بل إن الفرصة ستسنح لي كي أزور بيت السفير، وأتفرّج عليه من الداخل أيضا.

امتدّ زمن الامتحان لنهار بأكمله، وكان علينا النجاح في جميع المواد للحصول على الشهادة، بما في ذلك اللغة الفرنسية والحساب والتاريخ والجغرافية والعلوم... وأخيرا، أُعلِنت النتائج مباشرة وأبلغتُ بنجاحي، لكن كما سترون لاحقا، لم يُتح لي السفر إلى باريس أبدا!

هوامش الرسالة الثانية

(1) وجهة نظر كاتبة الرسائل، أو ربما إدارة المدرسة؟

(2) من أبرز شعراء وروائيي فرنسا وأحد رموز المرحلة "الرومانسية" في الفن، من أبرز أعماله رواية "البؤساء" (1802-1885).

(3) شاعر ومؤرخ فرنسي من رموز المرحلة الرومانسية، لعب دورا سياسيا قياديا في "الجمهورية الثانية"، وتُعد مجموعة "تأملات شاعرية" من أبرز أعماله (1790-1869).

(4) أحد أهم المؤلفين المسرحيين الفرنسيين في القرن السابع عشر، عُرِف بميله إلى المأساوية، ومن أشهر مسرحياته "سِيد" (1606-1648).

(5) شاعر ومؤلف مسرحي فرنسي من أبرز أدباء فرنسا خلال القرن السابع عشر، عُرِف بتفوقه في الكتابة الكلاسيكية المأساوية، من أعماله الشهيرة مسرحية "فيدرا" (1639-1699).

(6) واحدة من أهم المدن والمراكز الصناعية في بريطانيا، تقع في شمال غرب إنكلترا.

(7) تبدأ بـ "روش هاشاناه"، أو عيد رأس السنة اليهودية) في الشهر التاسع من التقويم الميلادي) وتستمر لعشرة أيام يحل في آخرها "يوم كيبور" أو عيد الغفران.

(8) نسبة إلى تسمية Salle d'asile باللغة الفرنسية. تُلفظ "السين" فيها كـ"زاي"، فتكون: / أزيل/ .

(9) ثري ومحسن يهودي بريطاني، عراقي الأصل (1867-1944) حصل على لقب "فارس" أو Sir في عام 1926.

(10) النص الأصلي يورد كلمات أنشودة باللغة الفرنسية عن صبية تلعب بطابتها في يوم العطلة (السبت).

(11) معناها بالعربية "الأمل".

(12) "سومر" هي التسمية المتداولة للحضارة الأقدم والأرض التي نشأت عليها وشملت مدنا عدة، لا مدينة واحدة، كان من بينها "أريدو" و"أور" وسواهما.

(13) "جرذ" هي مرادفة جريدي بالفصحى، لا "فأر".

(14) لعبة تنافسية بين شخصين أو أكثر، تتكوّن من رقعة لعب وأقراص ملوّنة ونرد.

(15) المقصود بها لعبة الاستغماية أو الغمّيضة المعروفة باللهجة الدارجة بـ "الخِتّيلة"، لم يتم العثور على ذكر "المُخُتباية" في مصدر آخر.

(16) الشهادة المعروفة باسم Certificat d'études التي تم وقف العمل بها في عام 1989.

الرسالة الثالثة

السبت

سواء كان الفصل شتاء أو صيفا، كانت ساعات دوامنا في المدرسة طويلة، إذ كانت الحصص تبدأ عند السابعة والنصف صباحا، وتستمر حتى يحين وقت فرصة الغداء عند منتصف النهار، ثم نعاود الدرس من الساعة الثانية حتى الرابعة بعد الظهر... الأمر كان مختلفا في يوم الجمعة الذي يشهد تحضيراتنا لليلة السبت، ولذلك كان جدولنا فيه مقتصرا على الفصول الصباحية التي اعتادت كثيرات من زميلاتي التغيّب عنها، مؤثِرات البقاء في بيوتهن للمساعدة في الاستعدادات المكثّفة لليوم التالي.

كان علينا طهو العديد من الأصناف التي لم يكن إعدادها سهلا، فطعام أيام السبت كان يجب أن يكون مميّزا... على سبيل المثال، كان عشاؤنا في مساء الجمعة (ليلة السبت) مكوّنا من "الكُبّة" التي يُعدّ غلافها الخارجي من خليط الأرز المطحون مع اللحم والبهارات، وكذلك "عروق السمك" التي تُصنع بعجن الأرز والسمك والأعشاب، خصوصا الشبت، وفي كلتا الحالتين كان على الأقراص المقلية المقدّمة أن تكون أدق وأرق ما أمكن كي تثبت مهارة طهاتها واقتراب أطعمتهم من بلوغ الكمال، أما "كبة الشمندر" فكانت من الأطباق التي أحببناها لمذاقها

الجامع بين الحامض والحلو، وكنا نكثر من تناولها في فصل الشتاء، ثم نستعيض عنها في الصيف بـ "كبة بامية" المُنكّهة بالنعناع والليمون، ونظرا لكون إيقاد النار في يوم السبت محظورا، تحتّم علينا أن نقوم بتهيئة طعام غدائنا فيه قبل يوم، وتركه كي يستوي على نار هادئة في الفرن طيلة الليل، ولعل "التبيت" هو أكثر الأصناف شيوعا، وكان يُسمّى أيضا بـ "الحميم"[1]، وهو عبارة عن دجاج محشو بالأرز ومشوي مع "بيض التبيت" الذي يترك دون تقشير حتى إذا ما نضج الطعام وقمنا بإزالة قشوره وجدنا لون البيض قد أصبح بُنيّا، وبالإمكان الحصول على النتيجة ذاتها عن طريق وضع البيض في قدر مع رمل وطهوه على نار الجمر حتى نهار اليوم التالي. الأطباق المعدة باستخدام لحم الضأن مثل "المحاشي" كانت محببة لدينا أيضا، وكنا نقدّمها في المناسبات حيث تُحشى الخضروات بخليط من اللحم المفروم والأرز والبقدونس والنعناع والتوابل الأخرى، أما "الباجة" فكانت تُعد بحشو رأس الحمل وأرجله وأحشائه الأخرى بالأرز.

كانت نانا ملكة المطبخ بطبيعة الحال، واعتادت الإناث الأخريات المتواجدات في الدار على تقديم يد العون لها وللطاهي الشاب "حاقولي" وسائر العاملين معه، فكان يعلو في المكان ضجيج هائل، يخالطه صوت دق "الهاون" لصنع مزيج البهارات الخاص بكل صنف من أصناف الطعام المختلفة... الروائح الزكية التي عبق بها مطبخنا ما زالت تسكن ذاكرتي ولا تكف عن إثارة براعم التذوّق في فمي، بل إني أكاد أسمع ضربات الهاون تتردّد في أذني.

الجمعة كانت أكثر أيام الأسبوع إثارة، وإن كنا نحن الأطفال نهوى التواجد في المطبخ في مختلف الأوقات بسبب الدهشة التي كانت تثيرها في نفوسنا مراقبتنا لعمليات إعداد الأطعمة... كمثال على ذلك، لم تكن نانا ترضى بطهو اللحم قبل أن تُتم "الكوشرة" بنفسها، حتى وان كان قادما للتو من "الشوحيط" وهو الجزّار المُرخّص للقيام بالذبح وفق الشريعة اليهودية، فكانت تحرص على إزالة كل غشاء أبيض خالط اللحم وأيّة شوائب أخرى قد تجعله "غير كوشر"، ثم تقوم بشطفه بالماء ثلاث مرات على الأقل قبل أن تغطيه بالملح قرابة خمس وأربعين دقيقة (ثلاثين دقيقة للدجاج) للتخلّص من كلّ ما تبقّى فيه من دم، وتعيد بعدها شطفه مرة أخرى كي يصبح جاهزا للتقطيع أو الفرم قبل الطبخ، فاللحم الكوشر ينبغي أن يكون نظيفا وخاليا تماما من الدماء، أما في حالة الكبد، فكان يُنظّف جيدا ثم يشوى على لهيب النار المتقدة للتأكّد من خروج الدم منه بالرغم من أن شي اللحوم على النار كان يُغني عن قيامنا بتمليحها وتصفيتها مُسبقا، ولطبخ القلب، كان يتم تقطيعه طوليا كي يخرج منه الدم وكافة الأجزاء الأخرى غير المرغوب بها، وبعد الانتهاء من كل الإجراءات السابقة كانت نانا تشعر بالاطمئنان، فتأذن للطاهي بالقيام بمهامه.

كانت أبقارنا تدر الحليب بغزارة خلال فصل الربيع، فكنا نستخدم ما فاض عن حاجتنا منه في صناعة الزبدة، ويا لها من مهمة! الخطوة الأولى كانت تتطلّب قيام خادمتنا بتحويل الحليب إلى لبن زبادي تسكبه في قربة من جلد الخروف[2] وتضيف الماء إليه بما يعادل ثلث مقداره،

يلي ذلك نفخها القربة حتى تحيلها بالونا، وهو مشهد كنا نجد متعة كبيرة في متابعته، ثم تتخّذ لها مجلسا على الأرض بجوار القربة حيث تمسك بالأقدام والذيل بيد والأكتاف باليد الأخرى، وتشرع بالرجّ إلى الأمام والخلف قرابة نصف ساعة، فيطفو الزبد على السطح وتقوم بجمعه بعناية في وعاء مع الاحتفاظ ببعض المصل لعمل "الشنينة" أو شراب اللبن الزبادي المخفّف المُملّح المشابه لشراب "لاسي"[3]، وكانت الخادمة تكرّر العملية مرات عدة حتى يتجمّع عندها ما يقارب كيلوغرامين ونصف من الزبدة.

لم تكن تلك نهاية المطاف، فللتخلص من السوائل المتبقية كانت الزبدة توضع في قدر كبير على النار مع إضافة كمية من الأرز المغسول غير المطبوخ إليها، وما أن يبدأ الخليط بالغليان حتى يكون الأرز قد امتصّ السائل، فتقوم الخادمة عندها بجمع الزبدة "المُنقّاة" التي تطفو على السطح وخزنها في السرداب لبرودته... الأرز المتبقي في قاع القدر ما كان ليذهب سدى هو الآخر، إذ كانت نانا تضيف إليه قليلا من الملح، وكنا نهفو جميعا إلى التمتّع بمذاقه الحامض والمالح، بينما اعتادت المُنظّفة على الحصول على ما تبقّى منه كي تطعمه لأطفالها بعد أن تضع معه كسرا من الخبز.

مطبخنا كان على شكل حرف اللام، وكان للقسم الخاص بالطهو فيه باب خلفي يفتح على الحديقة وعلى الفضاء الذي يوجد فيه "التنّور" وهو فرن طيني وقوده من قطع الخشب، كان يُستخدم لشي الكباب

والمعجنات والخبز المصنوع على هيئة أقراص كبيرة مقرمشة مشابهة لأقراص "البيتا"[4] حيث كانت كرات العجين تُفرد على وسادة خاصة مستديرة تُدعى "مِلزاقة" لتثبيت الأقراص على جدران الفرن، وكان يتم إخراجها منه عندما تنضج باستخدام كمّاشة معدنية.

أذكر وجود مساحة واسعة أحاط بها سور وتوسّطها حوض ماء صغير بالقرب من المطبخ، كنا نربّي فيها الدجاج والديوك الرومية والبط، أما غرفة الغسيل التي ضمّت صنبور ماء فكانت مجاورة للمطبخ هي الأخرى، وكانت أرضيتها مائلة كي تسمح بتصريف المياه المستعملة في عملية الغسل في فتحة واقعة عند مدخلها، وكان المُستخدَمون في الدار يستحمّون فيها أيضا.

غرفة الغسيل كانت تليها غرفة البستاني "جاسم" الذي بقي ملازما لنا لسنوات عدة، وكان ضخم الجثة قوي البنيان، أما زوجته "فطّوم" فلم تكن تسكن معه في غرفته، بل كانت تبيت في دارها بعد أن تحضر له طعام العشاء في كل مساء، والذي كان في معظم الأحيان مكونا من مرق البامية مع قطع من لحم الضأن، بينما كان الغداء عبارة عن أقراص من الخبز المصنوع من نخالة القمح (الأقل كلفة) مع البصل النيئ وبضعة حبات من التمر واللبن الزبادي، أو كوب من الحليب.

كنا نرى فطّوم أكثر خلال عطلتنا الصيفية، إذ كانت تأتي إلى دارنا لمساعدة زوجها في عمله، وكانت تجلس عند عتبة غرفتها بعد الظهر لتنال قسطا من الراحة وتغزل الصوف كي تصنع منه عباءة تقيها برد فصل الشتاء القادم. كانت فطّوم تبتاع الصوف خلال موسم جز شعر

الأغنام في الربيع بسعر مخفّض من زوج ابنتها الذي كان راعيا، فكانت تغسل الشعر أولا وتُمشّطه، ثم تحيله إلى خيط عن طريق برمه ولفّه حول بكرة كانت نهايتها تبدو لي كلعبة "المُصرع"[5] التي لا تكف عن الدوران. المهمة كانت تتطلّب قدرا كبيرا من المهارة، ولم أدرك صعوبتها حتى سمحت لي فطوم أن أجربها ذات مرة، فوجدتها أكثر تعقيدا مما كنت أظن... خلال غزلها الصوف، اعتادت فطوم أن تقصّ علينا نحن الأطفال حكايات طويلة عن الفروسية والغرام مستوحاة في أغلبها من "ألف ليلة وليلة"، وكنا نجد متعة كبيرة في الإصغاء إلى قصصها وإدراك نهاياتها السعيدة على الدوام. بعد مرور أسابيع قليلة، كانت فطوم تحمل خيطها الصوفي إلى النسّاج كي يحيله قماشا يكفي لخياطة عباءتين، واحدة لها والأخرى لزوجها كانتا ناتج عملها الشاق الطويل.

بجوار سكن البستاني كانت هناك غرفة بلا باب تستخدم كحظيرة، فكانت الأبقار تلجأ إليها للاحتماء بسقفها من المطر المنهمر في ليالي الشتاء، كما كنا نخزن فيها الحطب لكونها ملاصقة لغرفة الوقود... احتل الموقد الطرف الآخر من مطبخنا، وكان من الضروري أن تبقى ناره مشتعلة لتسخين المياه وأرضية الحمّام الحجرية، فسواء كان الموسم صيفا أو شتاء، كان على الجميع الاستحمام في المساء السابق ليوم السبت كي يكونوا طاهرين عند حلول "يوم الرب".

اعتدنا على تناول وجبة سريعة وبسيطة من القرع قبل دخولنا الحمّام الذي كان يكفي لاستيعاب ثلاثة منّا في ذات الوقت، وكنا نقوم

بخلع ملابسنا في مدخله، ثم نخطو على أرضيته الساخنة، فيسري دفء لذيذ في أوصالنا، خصوصا عندما يكون الجو باردا في الخارج، واذا تعذّر علينا احتمال الحرارة كنا نجلس على الدكات المنخفضة المعدّة لذلك الغرض، وكانت أزواج عدة من القباقيب الخشبية ذوات قياسات مختلفة تستقر بجانب الباب كي ننتعلها عند خروجنا، فكان ارتطامها بالأرض خلال خطونا يصدر أصواتا عالية... الغرفة التي نمر عبرها عند دخولنا الحمام وخروجنا منه[6] كانت على هيئة حرف اللام مثل مطبخنا، تحيطها دكات مفروشة بالبسط كي نرتاح عليها، بينما توزعت أرضيتها قطع سجاد فارسية الصنع ذات أحجام مقاربة لسجادات الصلاة، وعلت أحد جدرانها مرآة ذات إطار فضي كانت جزءا من جهاز نانا، أما الركن فاحتلته سلة كبيرة ضمّت مناشف ملفوفة وأردية نظيفة كانت مخصصة لما بعد الاستحمام الذي يسبق يوم السبت.

لم تكن نانا تستحم حتى ننتهي نحن الأطفال من الاغتسال، إذ كانت حريصة على مساعدتنا على تمشيط شعورنا الطويلة عندما نعجز عن تمشيطها بأنفسنا، ولم تكن تعهد بالمهمة إلى خادمتنا أبدا. بعد إتمام غسل شعري الكستنائي الطويل الكثيف والمموّج بالصابون العادي المُسمّى بصابون "الرقّي"[7]، كانت نانا تقوم بوضع "طين خاوة"[8] عليه لدقيقة أو اثنتين، ثم تشطفه بالماء، فتصبح خصله حريرية سهلة التمشيط، وتظل كذلك حتى يحين موعد غسلها في الجمعة التالية... كنت أصعد إلى الطابق العلوي بعد الاستحمام كي يتسنى لشعري أن يجف تحت أشعة الشمس خلال جلوسي في "الطارمة"، وهي شرفة

محاطة بسور من الحديد المطروق كانت تطلّ على فناء الدار الوسطي مربّع الشكل، ولم يكن الأمر يستغرق وقتا طويلا، خصوصا عندما يكون الفصل صيفا وفي الجو بعض النسيم.

أحواض الاستحمام المنزلية لم تكن معروفة في ذلك الوقت، وبالتالي لم يكن متاحا للمغتسلين أن يغمروا أجسادهم في الماء كما هو حالنا هذه الأيام... أذكر خلال سكننا في حي حنّوني أننا كنا نغتسل في طشت من النحاس في المطبخ، وكان ذلك شأن الجميع، كما لم يكن هناك غاز أو كهرباء، فكان يتم تسخين الماء على موقد الحطب، ثم يُسكب مقدار منه في الطشت يكفي للاستحمام، فيما يتكفل الضوء المنبعث من الفانوس بإنارة المكان، إذ كانت الشموع مرتفعة الأثمان، واقتصر استخدامها على الأعراس والمناسبات الاحتفالية.

كانت نانا تكلّف واحدة من بيننا نحن الفتيات بإعداد المائدة في يوم الجمعة كي تكون جاهزة قبل حلول السبت... عندما كان الدور يأتي عليّ، كنت أقوم أولا بمدّ مفرش نظيف، وأضع عليه رغيفين كاملين غير مكسورين من الخبز تتوسّطهما مملحة، ثم أغطّي الجميع بمفرش السبت الرائع الموشّى يدويا بالخيوط الذهبية، وكان البعض يستعيض عن الرغيفين المُغطيين باثني عشر قرصا من الخبز، كناية عن أسباط بني إسرائيل. كنت أضع على المائدة كذلك إبريق العصير الفضي ذا الغطاء بانتظار أن يقوم بابا بتلاوة دعاء طلب البركة، فلم يكن مسموحا أن نضع أي شيء آخر على الطاولة قبل إتمام دعاء "القدّوس"، وهي تسمية كنا

نطلقها أيضا على العصير الخالي من الكحول الذي استعضنا به عن النبيذ، وكنا نصنعه بنقع الزبيب في الماء وتركه حتى الصباح في الشتاء، أو طيلة النهار في أيام الصيف خشية أن يفسد تحت الحرارة العالية ويصير حامضا.

عندما تجهز المائدة وقبل أن تغرب الشمس بقليل، كانت نانا تضيء "القرّاية" وهي كرة زجاجية مليئة بالماء وزيت السمسم، تتدلى فيها خمس فتائل مثبتة على مسند من السلك، وكانت الفتائل تصنع يدويا بلف القطن الصوفي حول عيدان دقيقة مأخوذة من جذوع النخيل لكونها بطيئة الاحتراق، وذلك قبل توفّر الشموع الرمزية المعروفة في يومنا هذا... إنارة القرّاية كانت ذات دلالة خاصة، وكان لازما أن تتم قبل غياب قرص الشمس وراء خط الأفق، مؤذنا بحلول السبت وبداية ست وعشرين ساعة من التحريم قد يجوز اختزالها بكلمتين هما: "لا تفعلوا!" فكل شيء تقريبا كان محظورا علينا خلالها، ولذلك عند اقتراب الموعد المحدد كانت نانا تصيح فينا بين الدقيقة والأخرى منذرة: "أوان القرّاية، أوان القرّاية، أسرعوا! الشمس تغرب، لقد تأخّرنا!" وفي بيوت أخرى كان الصبية يصيحون: "صار وقت الشعلة، شعلوا! شعلوا!" في كل مرة كان أحدنا يتوسّلها للحصول على دقيقة إضافية لإتمام كتابة سطر ما هنا أو فعل شيء تافه هناك، لكن حالما تُضاء القرّاية كان وقت الكتابة والعمل يعدّ منتهيا، فيصير وهجها الخافت الذي يستمر عادة إلى ما بعد منتصف الليل هدانا الوحيد ومُعيننا على القراءة قبل أن نخلد للنوم، إذ لم تبدأ صناعة الشموع

الكوشر التي حلّت محل القرّاية حتى نهاية العشرينيات، وكان أول ظهورها في فلسطين.

قبل أن تغرب الشمس مباشرة، كانت نانا تضع على رأسها أجمل ما عندها من أغطية الشعر، وتشرع بتلاوة دعاء "البراخا" أو البركة وهي تضيء القرّاية، ثم تهمس في سرّها بطلب خاص لا يسمعه سوى العليّ القدير، تستدير بعده نحونا، وتقول: "شاباث شالوم".

اعتاد بابا أن يعود إلى البيت مبكرا في أيام الجمع كي يستحم، ثم يتجه إلى الصلاة في الكنيس الذي كان قد شيدّه عند انتقالنا إلى القصر واختار له موقعا في نهاية الحديقة، فلولاه، كان عليه السير مشيا على الأقدام إلى المدينة للصلاة فيها، إذ نصّ الشرع على أن يكون السبت يوما لراحة الدواب أيضا، وفي عصرنا هذا قام غلاة المتدينين بتوسيع القاعدة كي تشمل وسائط النقل الأخرى.

بالتزامن مع بناء الكنيس، قام بابا بشراء الأرض الواقعة على الجانب المقابل لنا من الطريق، ثم شرع بتقسيمها وبيعها كقطع سكنية، فتوافد العديد من أصدقائه على السكن في حينا، وأدّى وجود الكنيس والنهر القريبين دورا مهما في إقناعهم على الإقدام على تلك الخطوة... أقرب الساكنين إلينا كانا "إلياهو" و"رحمة خزام"، إذ ابتاعا دار النقيب المطل على النهر وجاءا للعيش فيه مع أسرتيهما، وعندما تزوّجت شقيقتي الكبرى ريجينا كانت وزوجها من أوائل من بنوا دورا جميلة مواجهة لبيتنا، وهكذا فقد أصبحت المنطقة مرغوبة، وإن كان عدد المصلّين في الكنيس قليلا في بادئ الأمر، فكان بابا يرجع إلى الدار مبكرا

بسبب عدم اكتمال النصاب اللازم لإقامة الشعائر، أو الـ "منيان"[9].

عند عودة بابا من الصلاة، كان يجدنا جميعا مغطيي الرؤوس وواقفين على أهبة الاستعداد بانتظار أن يتلو دعاء القدوس وهو يحمل كأس النبيذ[10] في يده، فكنا نرد عليه في مواضع محدّدة من الدعاء وفي خاتمته بقولنا: "آمين"، يقوم بابا عندها بأخذ الرشفة الأولى من الكأس، ثم يناوله لنانا وباقي الأبناء بالدور كي يشرب الجميع منه. كنا نسارع إثر ذلك بلثم يد والدنا، فيقوم بمباركة كل منا بوضع يده على رأسه وهو يردّد بالعبرية: "حفظك الرب!" يلي ذلك توجّهنا لتقبيل يد نانا أيضا، إذ كان لثم أيدي الوالدين دليلا على تقدير وطاعة الأبناء لهما. فقط الأطفال الصغار كان بوسعهم تبادل القبل على الخدود مع الكبار... المراسيم كانت تتوالى مع ذهاب بابا لغسل يديه، وعودته لرفع الغطاء عن المائدة وتقطيع الخبز وتوزيع كسره على الجميع بعد أن يقوم بغمسها في الملح، وكانت المملحة المصنوعة من الفضة ذات الغطاء المائل جزءا من جهاز نانا هي الأخرى.

أكل كسر الخبز المُباركة كان مؤشرا لتمام طقوس استقبال الشابات أو السبت، فكان يُسمح لنا أخيرا بوضع أدوات المائدة من أطباق وسواها، ثم الجلوس لتناول وجبة العشاء الأفضل في الأسبوع، والأطايب التي لم يُتح لنا تذوقها طيلة الأيام الستة الماضية من حلويات وفواكه طازجة، إذ كانت تُحفظ جميعها للسبت، وكانت الوجبة تبدأ تقليديا بتقديم "مرق بجيج" أو شوربة الدجاج المطهوة مع كثير من الحمص والأرز الذي كان مكوّنا أساسيا في معظم أصناف طعامنا. كنا نتناول بعد

ذلك كبة السمك، أما السلطة فكانت عبارة عن شرائح الخيار مع خل مصنوع منزليا ونعناع وثوم طازجين، بالإضافة إلى سلطة مشكلة مع ليمون وملح بلا زيت، فلم يعتد البغداديون على وضع الزيت في سلطاتهم، كما اعتمدت كثرة من وصفات مطبخنا على قاعدة مزج المذاقين الحلو والحامض باستخدام دبس التمر وكثير من الليمون الطازج والمجفف[11] والخل وتمر الهند وشراب الرمان... بعد العشاء، كان يحين موعد الفعالية الأكثر بهجة في الأسبوع، فتجلس عائلتنا بأكملها حول الطاولة، ثم نبدأ بغناء المدائح المعروفة بـ "سباحوث"[12].

عند عودة الرجال من الكنيس في صباح الشاباث، كانت تستقبلهم الرائحة الفوّاحة للتبيت المطبوخ خلال الليل، فيجدون البيض بني اللون ساخنا شهي الشذى تصعب مقاومته، خصوصا في صباحات الشتاء الباردة... بيض السبت أمسى واحدا من الوصفات الراسخة في المطبخ الإسرائيلي فيما بعد.

العيد الأقرب إلى نفسي كان "البوريم" أو ما اعتدنا أن نسميه بـ "المجلّة"، ويحيي اليهود فيه ذكرى نجاتهم من المذبحة التي كانت قد أُعِدّت لهم في زمن الإمبراطورية الفارسية[13]... بالنسبة لنا في بغداد، كانت للمناسبة دلالة خاصة، إذ كانت بابل جزءا من تلك الإمبراطورية، أي أنّ أثر ما حدث في المجلّة كان حتما سيطال أجدادنا.

ترقّبنا للمناسبة كان يبدأ مع نهاية شهر كانون الثاني ومطلع شهر شباط عندما تظهر أولى البراعم والأزهار، مُعلنة نهاية فصل الشتاء

القصير، وحلول عيد رأس السنة للأشجار، أو ما كنا نسميه "طبق الاسجار"، فكنا نضع على مائدتنا شتى أصناف الفواكه المجففة كالتين والتمر والبرقوق والمشمش والزبيب، بالإضافة إلى المكسّرات، ثم نتلو عليها دعاء طلب البركة قبل العشاء، وكأننا بذلك نودّعها ونستعد لاستقبال تشكيلة الثمار الطازجة التي سيحين قطافها قريبا... كنا ندرك قرب قدوم البوريم بمجرد أن تهلّ علينا بشائر الربيع، وكان الأطفال ينتظرون حلوله بلهفة أكثر من أي عيد آخر في تقويمنا، إذ كان يُسمح لنا فيه فعل كل شيء بلا محظورات أو "أسور"، فكنا نرتدي الملابس التنكرية ونتناول الكثير من المعجنات، ونحصل على المال أيضا.

ذهبت الرواية الدينية إلى أن النجاة قد حصلت خلال عهد الملك الفارسي "أحشويروش" أو "زركسيس" الذي امتد سلطانه من الهند إلى الحبشة، وكان له وزير طيب من اليهود هو "موردخاي"، وللأخير ابنة عم رائعة الجمال شابة ويتيمة هي "أستير"، فهام الملك بحبها، ونصبّها ملكة وفعل كل ما بوسعه لإسعادها حتى جاء الشرير "هامان" الذي شق طريقه بمكر إلى السلطة وأمسى من المقرّبين إلى الملك، لكن موردخاي رفض أن ينحني لهامان عند مروره، فاستفزه ذلك وأضمر الشر لموردخاي، ثم تمكّن بدهائه من الحصول على مرسوم بقتل جميع اليهود... كان هامان يريد أن يجعل من موردخاي أمثولة وعبرة عن طريق شنقه أمام العوام في منتصف الساحة الرئيسية، فضجّ اليهود جميعا صغارا وكبارا بالبكاء، ولجأوا إلى الصوم ولزموا الحداد وهم يوقنون أن فناءهم بات قريبا، أما موردخاي فقد استسلم لقدره وذهب لزيارة أستير كي يودّعها.

اجتاح الملك قلق على أستير عندما وجدها صائمة تنتحب. استفسر منها عن سبب كربها، فروت له الحكاية، ثم توسّلت إليه أن يتركها كي تموت مع قومها.

"ومن ذاك الذي سيقتل قومك؟" سألها الملك.

"إنّه هامان يا مولاي"، خرجت كلمات أستير بحرقة من فمها الجميل، وكان الملك لا يزال مفتونا بها، فقال:

"أعِدُكِ أني سأجعل الوغد الذي استغلّ رعايتي له يتجرّع الكأس التي أراد أن يذيقها لكم... جفّفي دمعك، فستسعدين لبقية حياتك!".

يبدو أن الملك أحشويروش كان يتمتع بحس دعابة، إذ أمر بإقامة مأدبة ضخمة، وأجلس أستير إلى جواره، ثم استدعى إليه هامان، وخاطبه قائلا:

"أود تكريم رجل تثمينا لما قدّم إليّ من خدمات، فبم تشير عليّ يا هامان؟".

نفخ هامان صدره مزهوا كضفدع وهو يظن نفسه المُستحِق للتكريم، وصار يفكّر أن الملك سيدعوه إلى مشاركته طعامه الشهي، فسال لعابه ترقّبا ولهفة، كما اعتقد أن الملك سيعينه كبير وزرائه وسيكون بمثابة ذراعه الأيمن... *مرحى! مرحى!*

"فلتخلع عليه يا مولاي الحرير والذهب، وتأذن له أن يمتطي حصانك الأثير بينما تحفّ به فرقة من الخيّالة، وليهتّف منادي المدينة بالناس: "أفسحوا الطريق، أفسحوا الطريق، ها قد جاء صفيّ الملك المُعيّن بأمره!"" ثم عقّب هامان بالقول: "ولتُدعى المدينة بأكملها

لمشاهدة الركب العظيم، فتُقرع الطبول وتصدع الأبواق وتُنثر النقود والحلوى على الأطفال!".

"ليكن ذلك!" أجاب الملك. "فأني آمرك يا هامان أن تقوم بدور منادي المدينة، أما موردخاي اليهودي فسيمتطي حصاني المفضّل كما أشرت عليّ".

وهكذا، سار موردخاي بموكب مهيب أحاط به المهرجون والبهلوانات، كما وُزِعت الحلوى وحفنات من النقود على الجموع التي اكتظّ بها جانبا الطريق، وأقيمت وليمة باذخة احتفاء بتعيينه كبيرا للوزراء، ثم أصدر الملك مرسوما بشنق هامان وأبنائه وترك أجسادهم متدليّة في الساحة جزاء كيده لموردخاي، فسرّ ذلك قومنا وابتهجوا به.

تلك كانت نهاية هامان "هاراشا" أو الشرير الذي كان أصلع قصير القامة كث الشارب واللحية، كما كان معروفا أيضا بأذنيه الكبيرتين، فكنا نحيي المناسبة بخبز المعجنات التي كان لأحد أصنافها شكل مثلث كنا نسميه "أذني هامان"، ومن الأنواع الأخرى كان بسكويت اللوز المعروف بـ "المسافان" وكذلك "شكر لمه"[14] الذي يُعد أفضل أصناف الحلوى وأكثرها دسما، إذ كان يُصنع باستخدام مقادير وافرة من السكر والزبدة الطازجة.

القصة الكاملة لما حدث كما وردت في المجلّة أو "سفر أستير" كانت تُقرأ في مساء البوريم في الكنيس وكذلك في البيت... اعتاد بابا عند عودته من الصلاة أن يوزع علينا من النقود المعدنية قدر ما اتسعت أكفنا الصغيرة لضمه، وكنا نسمي ذلك "دِميه بوريم"[15] ونستعمل حصة الفرد

منا من القطع النحاسية الجديدة في لعب الورق، كما كنا نحصل أيضا على بعض القطع الفضية، وقطعة ذهبية واحدة كنا نحتفظ بها معنا لفترة، ثم نعطيها لنانا كي تدّخرها لنا في جارور سري مليء بالقطع الذهبية ذوات الأحجام المختلفة.

كنا نحن الأطفال نجد متعة في ارتداء أزيائنا التنكرية، وبطبيعة الحال، كانت غالبية الفتيات يتنكرن بهيئة الملكة أستير، أما الصبية فكانوا يرتدون زي الملك أحشويروش أو موردخاي، وكنا نقوم معا بحرق مُجسّم لهامان في نار نوقدها في حديقتنا، وإن اندثر ذلك التقليد في الحي اليهودي القديم لوقوع العديد من الحوادث المؤسفة بسببه، فبات يشكّل خطرا على سلامة المحتفلين بالعيد.

جوقة من قارعي الطبول ونافخي الأبواق كانت تجوب منازل الحي في وقت مبكر من صباح المجلّة، وكان أعضاؤها يتكبّدون عناء المجيء إلى بيتنا البعيد في الكرّادة، فيقفون في فنائنا ويعزفون الموسيقى بصوتٍ عالٍ وينشدون أغاني في مدح بابا وسخاء يده، ثم يسألون الله أن يتيح لهم العودة إلى الدار لإحياء حفلات زفاف الأبناء الذين كانوا يسمّونهم فردا فردا بعد أن سألوا عنهم من قام بفتح الباب لهم... كان يروق لنا أن نقذف لهم بعضا من قطع النقود المعدنية التي كانت بحوزتنا، فيسارع أطفالهم إلى جمعها من على الأرض.

بعد العشاء، كنا نُخلي مائدتنا المستديرة الكبيرة من كل ما عليها، ثم نحضر أوراق اللعب، وكانت لعبتنا التقليدية هي "نقش يهود" التي شابهت لعبة "واحد وعشرين" المعروفة بتنشيطها الجانب الحسابي في

أدمغة الصغار، فكان بابا يتكفّل بتوزيع الأوراق علينا، وكنا نستخدم مالا حقيقيا للحصول على إثارة أكبر، وفي أحيان أخرى كنا نلجأ إلى لعبة أبسط هي "دوسة" حيث يقوم اللاعبون بالمقامرة على ورقة دون أن يعرفوا قيمتها... كانت المجلّة مناسبة للمرح والبهجة في عائلتنا الكبيرة.

هوامش الرسالة الثالثة

(1) لم يتم العثور على ذكر لـ "الحميم" أو "الهميم" كتسمية ثانية لطبق "التبيت" في أي مصدر آخر.

(2) يطلق العراقيون عليها تسمية "شجوة".

(3) شراب تقليدي معروف في الهند، يُصنع من اللبن الزبادي وقد تُضاف إليه نكهات أخرى.

(4) صنف من الخبز شائع في العديد من الدول مثل اليونان (التي اشتق اسمه من لغتها القديمة) وتركيا وسواهما، ويصنع على هيئة أقراص مُسطّحة.

(5) لعبة شعبية قديمة معروفة في العراق وعدد من البلدان العربية بمسميات مختلفة، وتصنع من قطعة خشب مخروطية الشكل مع خيط ملفوف حولها... عند سحب الخيط ورمي القطعة على الأرض، تبدأ بالدوران السريع حول محورها ذي النهاية المدببة بفعل تثبيت مسمار فيه.

(6) "المنزع" هي التسمية الشائعة لتلك الغرفة.

(7) تسمية صابون الغار في العراق، ويُعتقد أن السبب وراءها هو صنع أحد أصنافه المرغوبة في مدينة "الرقّة" في سوريا، علما أن مفردة "رقّي" في اللهجة المحكية تعني البطيخ الأحمر.

(8) ذكرت صاحبة الرسائل أنه سُمي بذلك نسبة إلى قرية "خاوة" التي كان يُجلب منها.

(9) المفردة اليهودية لعدد عشرة من الرجال البالغين اللازم تواجدهم لإقامة صلاة الجماعة.

(10) بعض اليهود كانوا ولا يزالون يستخدمون النبيذ بالفعل، لكن أغلب الظن أن المقصود بالنبيذ هنا هو عصير الزبيب المشار إليه آنفا.

(11) يطلق العراقيون عليه تسمية "نومي بصرة" وهو "اللومي" المعروف في دول الخليج.

(12) لم يتم العثور على ذكر للمفردة في مصدر آخر... أقرب لفظ موجود هو "سابايوث" الذي يعني "جيوش"، أما الاسم المعروف للأغاني التي تنشد حول المائدة بعد العشاء فهو "زميروت"، علما أن "أوت" هي ضمير جمع المؤنث في اللغة العبرية، مع وجود بعض الاستثناءات لجمع المذكر أيضا.

(13) يحل في الربيع في منتصف شهر آذار.

(14) مشابه لكعك "الغريبة" المعروف في بلاد الشام.

(15) تعني "عيدية" أو "نقود بوريم".

الرسالة الرابعة

العراق

بكل ما في الطفولة من صفاء وبراءة، كبرت مع شقيقاتي وشقيقي ونحن لاهون عن مجريات الأحداث الدراماتيكية في العالم وتطوراتها المتلاحقة، إذ تعاقبت الأيام والسنون بين تنعّمنا برغد العيش في القصر وانهماكنا في التحصيل الدراسي... أخواتي الأكبر مني سنا كنّ واعيات بوقوع الحرب العالمية بسبب غياب بابا عنّا ورحيله إلى بلاد فارس بحثا عن ملاذ آمن فيها، لكننا لم نستفهم عن الدافع وراء سعي بريطانيا لانتزاع بلاد الرافدين من قبضة العثمانيين، ثم أدركنا فيما بعد أن الهدف الحقيقي كان الاستحواذ على النفط، تلك النعمة والنقمة في ذات الوقت التي لم تكف عن العبث بمصائرنا والتحكم في موازين القوى في الشرق الأوسط عبر القرون.

"ماركو بولو"[1]، الرحّالة الإيطالي المولود في البندقية كان أول أوروبي يحظى برؤية مسطّح نفطي خلال مروره في بلاد ما بين النهرين في القرن الثالث عشر متتبّعا طريق الحرير، فسرد الواقعة في مذكراته، قائلا: "يأتي الناس من الأصقاع البعيدة بحثا عنه"، ويا لها من ملاحظة ثاقبة ونبوءة أثبتت الأيام صحتها!

حط بولو رحاله في ديارنا (المعروفة تاريخيا ببابل) وهي في ذروة عصرها الذهبي كمركز مالي قائم عند تقاطع طرق القوافل

العالميـة، وكـان أهلهـا مـن اليهـود يجوبـون شـتى أركـان المعمـورة سعيا وراء تجارتهم... وصف ماركو بولو المدينة في كتاب رحلاته أنها الأكثر رقيا في المنطقة، فالحرائر فيها موشاة بالذهب، وتردها نفائس الأقمشة من مخمل وحرير دمشقي من وراء البحار، محمولة عبر نهر دجلة[2].

كان أوائل اليهود قد وصلوا إلى أرض ما بين النهرين في الأزمان التوراتية البعيدة، وعندما أصبحت البلاد جزءا من الإمبراطورية العثمانية المسلمة في عام 1534، حظي قومي بالحماية كأقلية ضمن فئة "أهل الكتاب" التي تؤمن بالإله الواحد الحق... حياة بابا ونانا خلال القرن التاسع عشر كانت شاهدة على ازدهار وازدياد في أعداد الجاليات اليهودية في الولايات الثلاث اللاتي انبثق منهن البلد، وهي: الموصل في الشمال، وبغداد في المركز، والبصرة في الجنوب، حيث كان الجميع يعيشون ضمن تكتّلات عائلية كبيرة في وئام مع جيرانهم من مسيحيين ومسلمين، كما تمتّع كبار تجّارنا بالاحترام، والعديد من الامتيازات الخاصة بصفوة المجتمع لما كان لهم من دور مؤثر تجاريا وماليا وثقافيا، ولمساهمتهم العظيمة في نهضة الوطن وتطوّره.

في عام 1908 وقبل أن أبصر النور بزمن قصير، تم اكتشاف كميات كبيرة من النفط في بلاد فارس المجاورة، الأمر الذي استرعى اهتمام الغرب وأغراه بالبحث عن الثروات الكامنة في أرض الرافدين الواعدة، فحصلت "شركة النفط الأنكلو - فارسية" على حقوق التنقيب في نصف مليون ميل مربع من تربة بلاد الرافدين[3].

كان الألمان قد أوجدوا لهم موطئ قدم راسخ في أرض ما بين النهرين عند اندلاع الحرب العالمية الأولى في عام 1914، ولذلك لم يكن مستغربا اصطفاف العثمانيين مع برلين خلال المعارك، وهو ما شكّل تهديدا لمصالح لندن لم يكن باستطاعتها التغاضي عنه، فوصلت قوات أنكلو - هندية إلى البصرة لحماية الطريق الرابط بين الهند وبريطانيا، وتأمين واردات النفط التي اعتمدت عليها البحرية البريطانية، لكن تقدّم تلك القوات نحو بغداد واجهته صعوبات كثيرة كسقوط العديد من الجنود ضحايا لحر الصيف الشديد، وتعرّضهم لهجمات الذباب والبعوض، ومعاناتهم مع قسوة برد الشتاء، كما كانت الأنهار تفيض خلال المواسم غزيرة الأمطار فتحيل التربة إلى وحل تنغرس فيه الأقدام... كل ما سبق ألحق هزائم متلاحقة بالزاحفين نحو بغداد قبل أن يبلغوها في عام 1917.

عندما وصلت القوات أخيرا، قام جنودها من هنود وإنكليز بتوزيع قطع النقود المعدنية علينا نحن الأطفال في مبادرة لبناء علاقات مودة وصداقة ابتهجنا بها... كانت جعبهم مليئة بـ "الآنات" و"الروبيات"[(4)] والشوكولاتة وعلكة "ريغلي" وسواها من المُحدثات.

أمست بريطانيا بذلك قوة ضاربة في الشرق الأوسط، وخضعت لنفوذها شتى الأمم حتى التي لم تكن مُحتلة من قبلها، وقام البريطانيون بفرض حكمهم الاستعماري على أرض الرافدين عن طريق إدارة مدنية مشابهة لإدارتهم في الهند، فكان واضحا عزمهم على البقاء في البلاد لفترة طويلة، لكنني لم أدرك إلّا مؤخرا أن مرورهم لم يكن سهلا، إذ نشبت

انتفاضات مسلّحة في الشمال الكردي، ثم امتدت المواجهات في عام 1920 إلى الأجزاء الوسطى والجنوبية من البلاد قبل أن تتحوّل إلى عصيان شامل كانت تكلفة القضاء عليه عالية وشملت خسائر كبيرة في الأرواح، فيما عُرِف بين صفوف المتمردين بـ "الثورة العظيمة".

حسم مصير الشرق الأوسط إقرار "عصبة الأمم" رسميا لـ "الانتداب"، وكانت حصة بريطانيا المنتصرة في الحرب بلاد الرافدين وأراضي عبر الأردن وفلسطين، بينما حصلت فرنسا على سوريا ولبنان، ثم عُقِد في العام التالي (1921) مؤتمر في القاهرة تم الاتفاق فيه على ترسيم الحدود على الأرض، فظهر إلى الوجود بلد جديد هو "العراق"، كان في حقيقته تجميعا قسريا لأشلاء إمبراطورية السلطان العثماني من ولايات قديمة خضعت لحكمه بشكل مُنفصل، هي: البصرة ذات الغالبية المسلمة الشيعية، مع بغداد السُنيّة، والموصل الكردية(5)... لم تكن هناك سابقة لحكم الولايات الثلاث معا، ولم يكن أهلها على وفاق مع بعضهم البعض، بل قد يجوز القول إن الأمر الوحيد الذي كان يجمع بينهم هو بغضهم للإدارة المركزية، الأمر الذي تسبّب بكثير من الفوضى.

قرّر البريطانيون أيضا أن يكون نظام الحكم في العراق ملكيا، وأن يكون الجالس على عرشه مواليا للندن وبإمكانها الاعتماد عليه، ولذلك فقد جلبوا لنا حاكما من الجزيرة العربية هو "الملك فيصل".

استشاط الناس غضبا عندما اتضح لهم انتهاج بريطانيا سياسة "فرّق تسُدْ" عن طريق إنشائها أمّة منقسمة على نفسها دون مراعاة لرغبات

وآمال مواطنيها، أضف إلى ذلك إخلاف البريطانيين الوعد الذي كانوا قد قطعوه بإعطاء العرب استقلالهم مقابل اصطفاف الأخيرين معهم في قتال الأتراك، فاعتُبِر ذلك إهانة لكبرياء المسلمين، ثم زاد الطين بلّة تعهّد بريطانيا بإعطاء أرض فلسطين لليهود في عام 1917 عبر "وعد بلفور"، وهو ما تسبّب بموجة من السخط والشعور بالخديعة عمّت شتى أرجاء العالم الإسلامي.

بلغ عدد اليهود في بغداد خلال تلك الأزمان المضطربة ثمانين ألفا، ما شكّل نسبة أربعين بالمئة من مجمل سكان المدينة البالغ مئتي ألف وألفين ومئتي نسمة كما ورد في السجل السنوي الصادر عن السلطة العثمانية في عام 1917، والذي نصّ بأن المدينة ضمّت كذلك اثني عشر ألف مسيحي، وثمانية آلاف كردي، وثمانمئة فارسي، مع خليط "متبقٍّ" من العرب والأتراك والمسلمين قوامه مئة ألف وألف وأربعمئة شخص. بالنسبة لنا، لم نشعر باختلاف يُذكر، فإحساسنا بالأمان والاندماج مع باقي الفئات وجذورنا الضاربة عميقا في الأرض منذ العهود التوراتية القديمة بقيت جميعها كما كانت، إذ كنا نعتبر أنفسنا أهل البلاد الأصليين لأن وجودنا فيها سبق الغزو العربي/ الإسلامي بألف عام... أرض الرافدين كانت موطننا الذي ربطتنا علاقات مودة مع جيراننا الآخرين فيه، فكان الفرد البالغ منا يتقن العربية بثلاث طرق: أولاها الفصحى التي كانت لغة الكتابة والمراسلات الرسمية، ثم اللهجة المحلية التي كنا نستخدمها في حديثنا مع المسلمين، وأخيرا اليهودية/ العربية، وهي كتابة العربية بالحروف العبرية والتي أسفر

تطوّرها عبر القرون عن لكنة استعارت مفردات كثيرة من العبرية، لكنها ضمّت أيضا عددا لا يُستهان به من كلمات تركية وفارسية وحتى أوروبية الأصل.

غالبية مجتمعنا كانت تأمل خيرا من قدوم البريطانيين وتتطلّع إلى جني المكاسب من ورائه، كما أدرك البريطانيون بدورهم أن من مصلحتهم إقامة علاقات صداقة معنا في ظل تواصلنا السابق خلال قرن من التعاملات التجارية مع الهند التي كانوا يستعمرونها... فطنة اليهود وحسهم المهني وقدرتهم على التكيّف، بالإضافة إلى إتقانهم اللغة الإنكليزية وإلمامهم بطبيعة ومجريات النظام الإداري البريطاني، كانت جميعها صفات أثارت إعجاب البريطانيين بهم.

حصل اليهود على صفة المواطنة الكاملة تحت الحكم العثماني، فباتت لهم ذات حقوق المسلمين وعليهم ذات واجباتهم، وكان الوئام والتعاون عنوانين لعلاقتنا مع باقي أطياف المجتمع التي جمعنا بها الاحترام المتبادل للعقائد والثقافات، لكن بالرغم من ذلك بقي الاختلاط العميق بين الجاليات غير مرحب به، كما ساد بيننا شعور بالحذر من الآخر دون أن يعكّر تعايشنا معه بسلام، إذ كنا نرزح جميعا تحت نير الاحتلال العثماني أولا، والبريطاني لاحقا... استحواذ العرب على مقاليد السلطة في البلاد كان مبعثا للقلق في أوساطنا في بادئ الأمر، ودفع "الانسجام الفوري" مع القوة الحاكمة الجديدة (وفق تعبير أحد المراقبين) اليهود إلى التقدم بعريضة تطالب بحصولهم على الجنسية البريطانية، لكن الالتماس جوبه بالرفض، وعُرِض علينا عوضا عنه

الاختيار بين البقاء "عثمانيين" وتلقّي معاملة الأجانب في بلدنا، أو أن نصبح مواطنين عراقيين، فآثر الجميع أن نكون عراقيين، ولو عنى ذلك خضوعنا لحكم المسلمين.

عندما تم تنصيب فيصل ملكا، أقمنا له حفل استقبال مهيب في "الكنيس الكبير"، حضره العديد من الوجهاء من كافة الأديان... وصف الملك اليهود يومها أنهم "نخبة محرّكة لإرادة الجماهير"، ثم قام بتقبيل واحدة من لفائف التوراة، وأعلن أنه منذ ذلك التاريخ فصاعدا، لن يكون هناك أي تمييز بين المسلمين واليهود والمسيحيين، فأحسسنا بانشراح وتفاؤل عظيمين.

تم إحراز تقدم ملحوظ بالفعل، إذ شكّل اليهود ثلث عدد أعضاء مجلس إدارة "غرفة تجارة بغداد" التي تأسّست في عام 1926، وكان دورهم حيويا لدرجة أن إغلاق محلاتهم ومصارفهم وتوقف أعمالهم خلال أيام السبت كان يصيب الحركة التجارية في المدينة بالشلل، فكان أصحاب المحلات الأخرى من غير اليهود يغلقون أبوابها أيضا لقلة الزبائن، وتخلو بذلك الأسواق من المارة... في بلدنا ذي الغالبية المسلمة، كان السبت فعليا هو يوم العطلة الأسبوعية، بالإضافة إلى الجمعة.

هوامش الرسالة الرابعة

(1) مولود في مدينة البندقية، إيطاليا (1254-1324).

(2) في كتابه الصادر عام 2016 بعنوان: *"بابل: الأسطورة، التاريخ والمدينة القديمة"*، يذكر الباحث في فنون الشرق الأدنى القديم "مايكل سيمور" أن "بابل" الوارد ذكرها في رحلات ماركو بولو هي في حقيقة الأمر "بغداد" باعتبارها الوريثة لمجد بابل، ويُرجّح ذلك الاعتقاد أن مدينة بابل تقع على نهر الفرات، بينما تقع بغداد على نهر دجلة.

(3) الوثائق المنشورة تذكر أن الشركة المذكورة قد قامت بشراء نصف أسهم "شركة البترول التركية" التي تأسست في عام 1912، وحصلت على حقوق التنقيب عن النفط وتطوير الحقول النفطية على امتداد الإمبراطورية العثمانية، وليس في بلاد الرافدين فقط، ثم انبثقت عنها في عام 1927 "شركة بترول العراق".

(4) أسماء لعملات كانت متداولة في الهند وباكستان. أُلغي استعمال "الآنة" في نهاية الخمسينيات في الهند، وتلتها الباكستان بعد سنوات قليلة. قيمة "الآنة" كانت تعادل سدس عشر قيمة "الروبية"... أصبحت "العانة" لاحقا واحدة من الفئات النقدية المعدنية المعتمدة في العراق الملكي، بقيمة أربعة فلوس.

(5) التصنيف العرقي والطائفي للسكان في الولايات الثلاث كما أوردته صاحبة الرسائل كان ولا يزال مثار جدل ونزاعات، فلا يجوز الجزم بصحته لغياب إحصاءات دقيقة يمكن الوثوق بها.

الرسالة الخامسة

حياة تتغيّر

لـم يكـن بابـا موجـودا معنـا عنـدما حانـت اللحظـة التاريخيـة التـي استولى البريطانيون فيها على العراق وبـدت مُبشّرة بمستقبل أفضـل... غيابه الاضطراري كان قد ألقى عبئا ثقيلا على كاهـل والـدتي التي باتـت مسؤولة عن تربية أبنائها الخمسة (لم تكن شقيقتاي مارسيل وديزي قـد أبصرتا النور بعد) في وقت اجتاحتها خلالـه مخاوف كثيـرة على سـلامة زوجها.

بمجرد أن استقرت الأوضاع قليلا في عـام 1917، حزم بابـا حقائبـه وعـاد إلـى بغـداد محمّـلا بالحكايـات المثيـرة عـن رحلـة هروبـه وطبيعـة الحياة في كل من كرمنشاه وهمدان، وقيامه بزيارة ضريحي بطلي حكايـة عيد البوريم: أستير وابن عمها وحاميها موردخاي، بيد أننا ما كدنا نلتقط الأنفاس بعد كل ذلك العناء حتى وجدنا أنفسنا مطرودين من دارنا.

قصرنا البهي كان من أوائل الأبنية التي استحوذ البريطانيون عليهـا، فموقعـه المجـاور لدجلـة كـان يلبّـي احتياجـاتهم ويتـيح لهـم جلـب تجهيـزاتهم مباشـرة عـبر القـوارب النهريـة، الأمـر الـذي أغنـاهم عـن استخدام الطرق البريـة التـي كـان معظمهـا غيـر معبّـد، وكانـت تغـرق في ظـلام حالـك خـلال الليـل... أخـذ البريطـانيون القـرار بإنشـاء مدرسـة

عسكرية في بيتنا، فكان حتما علينا مغادرة المكان كي تبدأ عملية تأهيل المبنى لوظيفته الجديدة، ولم يكن أمامنا سوى العودة إلى المدينة حيث قمنا باستئجار سكن فيها.

بعد نعيم إقامتنا في القصر، وجدنا أنفسنا في بيت متواضع في حي كُجة النصارى المتفرّع عن شارع الرشيد الذي (كما تشير تسميته) كانت تقطنه أغلبية مسيحية، وكان جدي وجدتي قد سبقانا إليه إثر مغادرتهما لحي حنّوني، لكن على العكس من بيتهما الكبير، كان دارنا محشورا في زقاق ضيق يعجّ بالحرفيين والباعة الساعين إلى تصريف بضائعهم المختلفة بشتى الطرق... المشهد في الأسفل كان مثيرا على الدوام لدرجة أني لم أكن أكِلّ من الجلوس بجوار النافذة في الطابق العلوي لمتابعة شخوصه، مثل الإسكافي الذي كان يمسك المسامير بمهارة بين شفتيه قبل أن يقوم بدقّها في الأحذية، أو بائع المثلجات المنعشة الذي كان يروّج لها، مناديا: "أبو البوز دوندرمة!" وأيضا "أبو الشادي"[1] الذي كان يحضر برفقة قرد يضرب على دف صغير ويتحرك بغنج مُتظاهرا بأنه عروس مستلقية على سريرها، فكنا نلقي إليه بالمال، ثم نراقبه وهو يلتقط القطع المعدنية من على الأرض ويجمعها في قبعته قبل أن يناولها لسيده.

اعتادت بائعة الحليب أن تأتي إلى دارنا في الصباح كي تقوم بحلب بقرتها عند عتبته مثلما كان الحال في حنوني... حضورها كان محببا إلى أنفسنا، وإن ذكّرنا بأيامنا الخالية في قصرنا الجميل والأبقار التي كانت لنا فيه، فشعرنا بأننا نتراجع إلى الوراء في وقت كان بلدنا يسير فيه قُدما إلى الأمام.

حاولنا التعايش مع وضعنا الجديد وتقبّله، وكان لوجود بابا معنا في السكن اثر مطمئن... في تلك الأيام، كان من الطبيعي أن يسعى كل شخص متعلّم أو نصف متعلم في بغداد للحصول على وظيفة، وازداد الطلب على توظيف اليهود ككتبة ومشرفين على الخدمات العامة على نحو خاص لأن معظمهم كانوا ذوي مؤهلات دراسية، أو يجيدون القراءة والكتابة على أقل تقدير. أغرت الفرصة بابا أيضا، لكنه آثر عليها استئناف نشاطه التجاري الذي كان ملمّا به وانقطع عنه مضطرا خلال فترة غيابه.

أعاد البريطانيون قصرنا وسمحوا لنا أخيرا بالانتقال للعيش فيه في عام 1919، وأذكر هنا أن من الأمور التي هوّنت علينا نحن الأطفال مرارة الرحيل كان عثورنا على صندوق كبير مليء باللعب والدمى في البيت الذي قمنا باستئجاره في المدينة. أغلب الظن أن سكنته السابقين من الأتراك قد اضطروا إلى تركه وراءهم في غمرة استعجالهم للهرب، الأمر الذي تكرّر عند عودتنا للقصر حيث وجدنا مفاجأة مدهشة بانتظارنا... كان البريطانيون قد أوصلوا التيار الكهربائي إلى الدار وزودوا غرفه بالمصابيح، فخُيّل لنا أننا انتقلنا في ساعات قليلة من الحياة في الماضي إلى الحاضر، إلى القرن العشرين، لكن أكثر ما استعصى علينا استيعابه كان مشهد المراوح الكهربائية أو "البنكات"[(2)] المتدلية من السقف التي كانت تشرع بالدوران بضغطة زر، ورحنا نتأملها ونحن مشدوهون أمام ذلك السحر والانتعاش الذي أحسسنا به جراء هبوب النسمات الباردة علينا، فادركنا حينها أن معاناتنا السابقة لم تذهب سدى.

لا وجه للمقارنة بين مفردات حياتنا البسيطة وقتها وما ننعم به في هذا العصر من وسائل العيش المرفّه، إذ كان الشتاء يحلّ علينا حاملا معه البرد القارس والكثير من المعاناة، فكانت لدينا مدفأة تعمل على الحطب في غرفة طعامنا التي توسّطتها مائدة كبيرة الحجم مربعة الشكل أحاط بها اثنا عشر مقعدا مُنجّدا، كانت هي الأخرى من ضمن ما تركه البريطانيون وراءهم من قطع أثاث، كما افترشت أرضية الغرفة سجادة فارسية كبيرة الحجم... اعتدنا أن نتحلّق جميعا حول المائدة لتناول وجباتنا، لكن المسافة بين غرفة الطعام والمطبخ الواقع على الطرف الآخر من المنزل كانت بعيدة جدا، فكان على حاقولي أن يسكب الحساء الساخن في سلطانية، يحملها سيرا على الأقدام عبر الرواق الخارجي على امتداد طول البيت، ثم يرتقي السلالم نحو الطابق العلوي، ويقطع مسافة طويلة أخرى مرورا بالشرفة قبل أن يصلنا الحساء باردا، الأمر الذي كان يزعج بابا كثيرا، وكانت الرحلة تتكرّر بعدد الأصناف المقدّمة في الوجبة الواحدة، فكانت إحدى الخادمات تقوم بمد يد العون لحاقولي في أداء مهمته الشاقة.

عندما كنا في سكننا السابق، كنا نحصل على حاجتنا من الماء بواسطة قِرب يتم ملؤها وحملها إلينا من دجلة، ولذلك عُدّ تدفّق المياه بلا عناء من حنفيات القصر تطورا ملحوظا، وإن بقيت وسائل الصرف الصحي على حالتها البدائية، إذ كان يتم تجميع المخلّفات في حفرة قبل مد أنابيب المجاري، كما كانت مواقع المراحيض في دور بغدادا تُختار بعناية كي تكون أبعد ما أمكن عن الغرف الأساسية فيها، فحُجرتا

مراحيضنا مثلا كانتا منفصلتين تماما عن مبنى الدار ومجاورتين لغرفتي الغسيل والوقود، وكنا نعاني في سبيل الوصول إليهما في الليل، خصوصا عندما يكون الجو شديد البرودة... ما أن تم اعتماد مواسير الصرف حتى قمنا ببناء عدد من المرافق الصحية، وكأننا كنا بذلك نعوّض عن حرماننا، فصارت لنا غرفة مراحيض في الطابق الأرضي، واثنتان في الطابق العلوي، وأخرى على السطح، بالإضافة إلى مراحيض المستخدمين في الحديقة بالقرب من المطبخ.

قبل أن يحلّ الظلام بقليل ذات مساء صيفي، وبينما كنا مجتمعين حول سماور الشاي الذهبي الذي توسّط مائدة طعامنا الكبيرة، دوى فجأة صوت صراخ عال وولولة ظنناهما لأول وهلة قادمين من منزل مجاور، لولا أن كيلومترات عدة كانت تفصل بيننا وبين أقرب جيراننا، الأمر الذي زاد من اضطرابنا وحيرتنا... "يبووو! يبووو!"[(3)] توالى العويل، مصحوبا بصرخات وأصوات ارتطام أجسام معدنية.

هرعنا إلى الشرفة كي نستطلع الأمر، فشاهدنا الأضواء المنبعثة من مئات الفوانيس عند ضفة النهر، ثم لمحنا نسوة يحملن أغراضا مخبّأة تحت عباءاتهن. كان الجميع حفاة، ممسكين بقدور الطبخ وأسياخ وجرادل وصفائح ومغارف كبيرة، أصدر ارتطام بعضها ببعض جلبة هائلة... استمر تدفق القرويين من الآباء والأمهات، الأخوة والأخوات، الأعمام والأخوال، الجدود والأطفال وهم يرددون بأصوات عالية شذت عن النغمة ما بدا لنا كشطر من الشعر تعذّر علينا فهمه في بادئ الأمر، لكننا أدركنا أخيرا أن الحشد كان يتوعّد الحوت اللعين الذي قفز

مـن ميـاه دجلـة والـتهم القمـر بقضـمة واحـدة، بـالقول: "يـا حوتـة يا ملعونة!"[4].

عندما سمعنا ذكر القمر، نظرنا إلى السماء، فوجدنا القمر في موقعه المعهود فوق المدينة، لكننا أصغينا إلى الشطر الثاني عن الدم النازف منه[4]، ولاحظنا أن مسحة من اللون الأحمر قد خالطت بياضه بالفعل.

هذا قمرنا نريده

هو علينا غالي

وان كان ما تهدينه

ندق لك بصينية

ردّد المتجمهرون كلمات الأهزوجة بمرافقة عويل صمّ الآذان قرابة ساعة، وأثمرت جهودهم أخيرا عن إقناع الحوت بلفظ ما في جوفه، فخرج القمر مع القيء وعاد إلى طبيعته المنيرة، ناشرا ضوءه على صفحة النهر... تعالت عندها صيحات ابتهاج القرويين وتصفيقهم مع "الهلاهل" أو الزغاريد التي كانت بمثابة مكافأة للنفس بعد إتمام المهمة الشاقة.

قام بابا بتوضيح الأمر لنا، وأن ما حدث كان مجرد كسوف، لكن الطقس العجيب تكرّر في كل مرة بدا البدر المكتمل فيها مُحمرّا بسبب انعكاس ضوء شمس المغيب على رمال الصحراء الحارة.

ارتقى الملك فيصل العرش بعد رجوعنا إلى القصر بعامين، وظهرت الحاجة إلى إيجاد قصر مناسب له، فتم التلميح لنا بأنه كان

مُعجبا بدارنا، وحُدّد موعد كي يقوم بزيارة المبنى واستكشافه عن قرب، بالرغم من انه لم يكن معروضا للبيع... فكّر بابا مليّا، ثم حسم أمره حيال الموضوع، إذ كان مُتعلّقا بداره غير راغب بتركه مرة أخرى، وكي لا يبدو الأمر مسيئا، حرص على عدم التواجد في المكان خلال الزيارة.

قدمت العربات التي كانت تقل صاحب الجلالة والجمع المرافق له عبر الطريق المحاذي للنهر، فخرج البستاني جاسم للترحيب بهم، إذ كنا جميعا في المدرسة، باستثناء ريجينا، ومارسيل التي كانت طفلة تحبو... بقيت نانا في غرفتها ولم تخرج لاستقبال الزوّار، إذ لم يكن واردا أن تلتقيهم دون ارتداء العباية، كذلك فعلت ريجينا التي كانت فتاة شابة حسناء، وكان العرف وقتها لا يسمح بظهورها مكشوفة الوجه أمام الرجال الغرباء، فكانت الصغيرة مارسيل الفرد الوحيد في الأسرة الذي التقى الضيوف، وتمكّنت بطبعها المشاكس المُحبّب وشعرها المجعّد من أن تستميل الملك الذي قام بحملها وطبع قبلة على خدها.

طوى الملك موضوع القصر عقب تلك الزيارة، لكن الفرصة سنحت لي للقاء جلالته بعد مرور عامين عندما قدم إلى مدرستنا للتأكيد على مشاعر الصداقة التي كان يكنّها لليهود واعتباره إيانا من رعاياه الصالحين والمخلصين... كان الملك قد عثر على ضالته واستقرّ في قصر عباسي قديم مطل على النهر يعود في أصله إلى "أم حبيب"[(5)]، لكنه اضطر إلى مغادرته في عام 1926 عندما غمرته مياه الفيضان كي يقيم مؤقتا في بيت التاجر اليهودي المعروف "مناحيم دانيال" الذي كان صديقا لوالدي.

كان بيتنا يضجّ بالنشاط والحركة طيلة عيد العبور أو "البيساح"[6] وهو أكثر أعيادنا تطلّبا من ناحية الطقوس الخاصة به والتحضيرات اللازمة له، إذ لم يكن مسموحا أن تتواجد في الدار عند حلوله ذرة من الدقيق أو المعجنات أو فتات الخبز أو أي طعام آخر دخل الدقيق في تكوينه، وللتأكّد من تنفيذ ذلك الشرط على الوجه الأمثل، كنا نحرص على تنظيف الحجرات وتفتيش كافة أركانها والخزانات والجارورات الموجودة فيها، فينتهي بنا المطاف وبسائر العوائل اليهودية في بغداد إلى إخلاء الغرف وغسلها ودعك أرضياتها وجدرانها، أما السقوف فكنا نكتفي بتفريشها باستخدام سعف النخيل، ثم نقوم بمسح الدواليب والأدراج والصناديق حتى ما تواجد منها في أماكن قصية من المنزل... بمجرّد الانتهاء من تنظيف غرفة ما، كان يُحظر علينا نحن الأطفال دخولها خشية قضمنا الخبز أو الكعك سهوا وسقوط أجزاء منه على أرضيتها، فكنا نطلق على تلك الحملة تسمية "تعازيل عيد الفطير"[7].

عيد البيساح كان مخصّصا للاحتفال بخروج اليهود من مصر بقيادة موسى، أو "موشي رابينو"[8] الذي أمضى زمنا طويلا وهو يتوسّل فرعون أن يسمح لشعبه بالعودة إلى أرض إسرائيل، لكن فرعون كان يرفض الاستجابة بسبب تعلّقه بموسى وحاجته لأسلافنا الذين استعبدهم، فأنزل الرب عشر طامّات كبرى كي تثنيه عن عزمه... بعد حلول الفاجعة العاشرة التي أودت بأرواح كافة أبكار أهل مصر، أذن فرعون للإسرائيليين بالرحيل، فغادروا مع أهليهم على عجالة خوفا من أن يغيّر رأيه، وكان الخبز غير المختمر الذي استحوذ اليهود عليه من الأفران كل

ما حملوه معهم من زوّادة الطريق، ولذلك كنا نتناول فطير "ماتزاه" الخالي من الخميرة لمدة أسبوع من كل عام لإحياء ذكرى الهروب من مصر.

عاد فرعون عن قراره كما كان متوقعا، وقام مع جيشه العظيم بمطاردة موسى واليهود الذين كانوا قد بلغوا "البحر الأحمر" ووقفوا عند شاطئه عاجزين عن العبور كمن وقع في فخ مميت، فأراهم الرب قدرته مرة أخرى وانشطرت المياه كي تتيح لبني إسرائيل اختراق البحر وبلوغ الضفة الأخرى... عندما رأى فرعون ما حدث، أراد أن يلحق بالفارّين، لكن المياه أطبقت عليه وعلى جيشه، فغرق كثير من المصريين، بينما عادت أعداد أخرى منهم أدراجها، مؤثرة السلامة.

لم يكن الماتزاه الكوشر متوفرا في الأسواق خلال سنوات طفولتي، فكنا نصنع ما يلبي حاجتنا منه لأسبوع كامل، ونظرا لحجم عائلتنا الكبير ووجود عدد من المُستخدمين اليهود الذين كانوا يعيشون معنا، بالإضافة إلى زيارات كثير من الأصدقاء والمعارف لنا، كان علينا أن نُجهّز مسبقا كمية هائلة من الفطير، وكانت العملية تجري في واحدة من الغرف بعد أن يتم تنظيفها ورص المقاعد المنخفضة أو "التختات" في وسطها حول صينية مستديرة قارب قطرها المتر لتنظيف الـ "شمورا" أو القمح، إذ كان يُسكب ما يعادل عشرة كيلوغرامات منه في كل مرة كي تتم كوشرتها وتنقيتها يدويا، والتأكّد من خلوّها تماما من الشوائب أو أيّ بذور غريبة.

كنا نعيد تنقية وفحص القمح لمرات ثلاث قبل استعماله في البيساح كي نقطع آخر شك باليقين، الأمر الذي كان يأخذ منا أسبوعا من

العمل الدؤوب، لكننا كنا نستمتع بالقيام بالمهمة بالمشاركة مع باقي فتيات ونساء العائلة والخادمات، وبحضور الجارات اللاتي كن يزرننا ويسعدننا بحكاياهن وطرائفهن ومشاكساتهن... بعض المتزمتين دينيا كانوا يشترطون جلب القمح من حقل بعينه، وبعد الانتهاء من التنقية كانت الحبوب تؤخذ إلى المطحنة كي يتم تحويلها إلى دقيق.

عندما كان بابا طفلا يعيش مع أسرته في دارهم الكبيرة في حنّوني، كان يُقسِم على جده حاييم أن يوقظه في الرابعة فجرا لمرافقته في رحلته إلى المطحنة، فكان يتم الاتفاق مع أحد عتّالي الحي على الحضور في الوقت المحدّد لحمل القمح، فيما يقوم أحد الخدم بالسير أمامه وهو يمسك فانوسا لينير له الطريق... الوصول مبكرّا إلى المطحنة كان ضروريا كي يكون قمح العائلة أول ما يدخل جوفها، إذ كان يتم تنظيفها في الليلة السابقة استعدادا للبيساح، خصوصا وأن جدي كان حاخاما معروفا بحرصه على إجراء الكوشرة على أكمل وجه.

السماح له بالخروج من الدار في وقت مبكر جدا كان يُشعر والدي بالأهمية، وكان الفخر يعتريه عندما يراه رفاقه وهو يسير في الطريق... كانت شوارع الحي اليهودي تعجّ بالحركة والحياة بحلول الساعة الخامسة صباحا كما لو أن الوقت كان منتصف النهار، فمع بدء العيد كان الجميع يسرعون لإتمام التحضيرات اللازمة له، كما كان المسلمون ينالون نصيبا من الاحتفال، وتتضاعف أسعار بضائعهم وخدماتهم الأخرى.

مطحنة الحي كانت بدائية، شبيهة بتلك التي نرى بقاياها اليوم في الآثار المصرية والإغريقية والرومانية، وكانت مكوّنة من حجرين دائريين هائلي

الحجم، يستقر أحدهما فوق الآخر، وتجري عملية الطحن بسكب الحبوب ببطء في ثقب وسط الحجر العلوي ريثما يقوم حمار مسكين معصوب العينين بإدارته عن طريق ذراع ثقيلة مربوطة بمتنه... كان بابا يجد متعة في مراقبة الحمار وهو يدور في الرحى ويتطلّع إلى ركوبه بمجرد أن تسنح الفرصة لذلك، أما الطحّان فكان يراقب مسير دابته ويلكزها بعصاه متى ما نال منها التعب، وهو يصرخ: "ديخ! ديخ!" فيسقط القمح المطحون من الجوانب، ويتم جمعه وإعادته إلى الأكياس التي جيء به فيها.

من الحكايات التي كانت تُروى لنا أن طحّانا يُدعى "شمويل" عقد العزم على بيع حماره بعد أن تقدّم به العمر وصار بطيء الحركة، فقام بشرائه رجل مسلم اسمه "محمود"، لكن الحمار استلقى على الأرض ورفض أن يتحرك بعد مرور يومين على إتمام الصفقة... انزعج محمود من الأمر، وقرّر إرجاع الحمار إلى صاحبه واسترداد ماله منه.

أدرك شمويل ما حدث عندما رآهما قادمين، فأسرع إلى تطويق رقبة حماره بذراعه كما لو كانت عنق حبيب غائب، وقال له: "يا صاحبي المسكين، ماذا فعلوا بك!" ثم وجّه اللوم لمحمود: "لماذا قسوت على حمارنا العزيز؟ لقد خدمنا بإخلاص طيلة السنوات الماضية حتى كاد أن يكون جزءا من عائلتنا، ولم نشكُ منه يوما".

عندما أخبره محمود عن عناد الحمار وكسله، قال شمويل: "ذلك أنه معتاد على ألّا يعمل خلال الشابات وأن ينال قسطا من الراحة مثلنا، فمن الطبيعي أن يتمرّد عليك عندما تجبره على العمل في يوم عطلته. ربما من الأفضل أن تعيده إليّ".

رأى محمود كم كان شمويل محبّا لحماره ومتعلّقا به، فشعر بالحرج وقال: "أعتذر لما بدر مني، فلم أكن على علم بذلك! ضميري يؤنبني لأني أجبرته على العمل في يوم راحته. لو أذنت لي أن أحتفظ به أعدك أني سأعتني به وأحسن معاملته".

كان لدينا في كل بيت نموذج مصغر عن مطحنة السوق، لكن استيعاب المطاحن المنزلية من الحبوب المُعدّة للطحن كان يقتصر على قبضة يد واحدة في كل مرة، وكانت رحاها تُدار بمشقّة بالغة باليد عوضا عن الحمار... حكاية "عمشة" كانت واحدة من القصص التي استهوتني عن الموضوع، وكانت تتحدث عن أرملة إعرابية مسنة أخذت على عاتقها القيام بمهام الطحن نيابة عن السيدات الأخريات، فكانت تحضر في المساء وتغادر في فجر اليوم التالي كي لا يتعارض عملها مع تدبير ربات البيوت لشؤون منازلهن.

ذهبت الرواية إلى أن سيدة جميلة تُدعى "ياسمينة" كانت تعيش مع زوجها وابنها "حسن" ذي السنوات الست، وكان يحضر إلى منزلهم في كل صباح "لالة"، وهو الرجل المسؤول عن مرافقة أطفال الزقاق إلى مدارسهم، بمن فيهم الصغير حسن... كان اللالة عاشقا مولّها وسعى إلى إثارة اهتمام ياسمينة بشتى الطرق، فطلب من حسن خلال عودتهما من المدرسة ذات يوم أن يقول لوالدته إن اللالة يبعث لها رسالة هي: "احم!" علّها تفهم مقصده.

اشتدت غبطة اللالة في اليوم التالي عندما أبلغه حسن برد والدته التي يبدو أنها أدركت فحوى الرسالة بالفعل... "لالة، أمي تقول لك:

احم، احم، يوم الخميس، في السابعة والنصف!".

ذهب اللالة إلى معشوقته في الموعد المحدّد، فوجدها وقد جهّرت له مائدة مليئة بأطباق المقبلات "المزّة"، ووقفت بانتظاره في الشرفة وهي بكامل فتنتها، مرتدية "بُرنُصا"[9] مُزهّرا... بلغت سعادة اللالة مداها عندما علم أن حسن قد آوى إلى فراشه، وأن الفرصة باتت مواتية لتحقيق مُراده، لكنهما ما كادا يتخذان مجلسهما حتى تعالت ضربات ثلاث على باب الدار.

"يا الله!" قالت ياسمينة بفزع. "هذا زوجي! ما عسانا نفعل الآن؟ انه رجل ضخم الجثة، سيقتلك لا محالة، يجب أن تقوم بالتنكّر، ارتدِ هذه العباءة وأسرع إلى المطبخ وتظاهر بطحن القمح، سأقول له إنك عمشة الأعرابية"... دفعت ياسمينة اللالة إلى المطبخ دون أن تتيح له فرصة للاعتراض، ثم ذهبت كي تفتح الباب لزوجها.

"ما هذا الصوت؟" استفسر الزوج... "هل هي عمشة؟ ما الذي جاء بها الليلة؟ ليس من عادتها أن تأتي أيام الخميس".

"نعم، إنها عمشة، الطلب كبير عليها هذه الأيام، وليس بوسعها الحضور في ليلة أخرى كي تنجز طحن حبوبنا"، أجابته ياسمينة.

استمر اللالة بطحن القمح في المطبخ حفنة بعد أخرى كي لا يثير الريبة، وراح يكزّ على أسنانه حنقا عندما بلغه صوت زوج ياسمينة وهو يتناول الطعام الشهي بدلا منه ويضحك برفقة امرأته الحسناء... مع حلول منتصف الليل، نفد صبر اللالة ونال التعب منه، كما بلّل العرق الغزير دشداشته بسبب العباءة الصوفية السميكة التي اضطر لارتدائها

فوقها، لكنه كان قد أتم طحن كيس كامل من القمح، فسمحت ياسمينة أخيرا لـ "عمشة" أن "تغادر" البيت، وفرّ اللالة هاربا إلى داره وهو يشعر بالجوع والعطش، ويموج بغضب عارم.

بعد مرور أسبوع على تلك الواقعة، قال حسن للالة وهو يصطحبه إلى مدرسته في الصباح: "لالـة، والـدتي تبلغـك: الخميس، في السابعة والنصف، احم، احم!".

"أيها الوغد الصغير"، قال اللالة، "يبدو أن خزينكم من الدقيق قد نفد!".

حدث تطوّر ملحوظ بعد عودتنا إلى القصر بقليل، إذ تكفّلت سلطتنا الدينية المعروفة بـ "رابانوت" بتوفير الدقيق الكوشر لموسم البيساح للجميع، كما تمت مكننة معظم المطاحن، لكن إقناع العوام بمشروعية استهلاك الدقيق المعروض عوضا عن طحن القمح في الرحى الحجرية التقليدية استغرق سنوات عدة.

استمرت ماما بالإشراف على سير صنع الماتزاه بمهارة قائد أوركسترا، وإن باتت العملية أسهل مع وجود الدقيق الجاهز للعجن والخبز، فكنا نجتمع في أحد الأركان الظليلة خارج المطبخ حيث يعبق هواء الربيع بشذا زهر البرتقال الفوّاح، وكان العمل يبدأ بقيام حاقولي بالعجن السريع على مراحل لخليط الدقيق والماء فقط، بلا ملح أو دسم أو خميرة أو توابل، بمقدار كيلوغرام تقريبا في كل مرة... كنا نتناول العجين بمجرد أن يتماسك ودون أن نترك له فرصة للارتفاع، فتقوم واحدة من الموجودات برقّه على شكل حبل طويل بقطر سنتيمترين

ونصف تقريبا، فيما تتولّى أخرى مهمة تقطيعه إلى أجزاء ذات أطوال مساوية لقطرها، وتتكفّل أخرى ثالثة بفرد تلك القطع وتحويلها إلى أقراص دائرية صغيرة كي تقوم نانا الجالسة على تختتها الواطئة وهي تمسك بـ "الشوبك"[10] بترقيقها حتى تصبح الواحدة منها بسمك ورقة، وبحجم فطيرة البيتزا المعروفة في زمننا هذا، فتتناولها بسرعة إحدى المشاركات في العمل وتقوم بتسليمها إلى "زهرة" الخبّازة.

مهمة تحضير التنور الطيني للخبز كانت تقع على عاتق زهرة، إذ كانت توقد النار في قعره، ثم تنتظر حتى يسخن كي تقوم بمسح سطحه الداخلي بقطعة قماش مبلّلة لإزالة الشوائب الناتجة عن إشعال الحطب، وكان على زهرة أن تكون شديدة اليقظة وسريعة الحركة، فبحكم رقة الفطائر كان لونها يكتسب السمرة خلال وقت قصير جدا... "جراديق" هي التسمية التي كنا نطلقها على المنتج النهائي نسبة إلى الصوت الناتج عند قضم الأقراص المخبوزة التي يتم رصّها وهي لمّا تزل ساخنة في "زمبيل"، أو سلة عميقة مصنوعة بتضفير أوراق سعف النخيل، وتُترك فيها حتى تبرد قليلا. خط إنتاجنا كان يسير بدقة الساعة، ويعلم كل فرد فيه مهامه جيدا ويؤديها على أكمل وجه. عند امتلاء الزمبيل بالفطائر، كان يؤخذ إلى غرفة نظيفة مُعدّة مسبقا لخزن طعام البيساح، أما نحن الأطفال فكنا نتحايل على رتابة العمل باللعب والركض وقطف الفواكه، أو مراقبة الأبقار والدواجن.

اعتادت زهرة أن تمضي الأسبوع الذي يسبق عيد البيساح من كل عام في تشييد تنور جديد على هيئة جرس بارتفاع متر تقريبا، ذي جدار يبلغ سمكه سنتيمترين ونصف... كان عملها يبدأ بإعداد قاعدة طينية من

طبقتين، تُترك كي تجف خلال الليل، ثم تُضاف إليها طبقات ثلاث أخرى (كل منها بسمك سنتيمترين ونصف) في اليوم التالي، وتترك لتجف أيضا، وفي النهار التالي كانت تُضاف أربع طبقات أخرى، وهكذا دواليك حتى يتم البنيان... عند اكتمال العمل وجفاف الطين، كان التنور يُنقل بعناية إلى الفضاء الواقع بين المطبخ وغرفة الغسيل وسور الحديقة، وكان مسقّفا بالصفيح لحماية التنور من المطر.

الفطور السابق لليلة البيساح كان وجبتنا الأخيرة التي يُسمح لنا فيها بتناول الخبز العادي، وبعد أن ينتهي الجميع من الأكل، كان بابا يقوم بتلاوة دعاء قصير لطلب البركة، ثم يوقد نارا في الفرن لحرق ما تبقّى، إذ كان واجبا علينا أن نتخلّص من كل الأطعمة غير المستوفية لشروط الكوشر الخاصة بالعيد، بما في ذلك الخبز والبسكويت ومنتجات القمح التي يصبح وجودها في المنزل مُحرّما، كما كنا نُفرِغ حجرة المؤن من محتوياتها، ونجمع الأطباق وسائر أدوات المائدة وأواني الطبخ ونضعها في مستودع صغير خارج البيت، ثم يتم قفل الباب وتسليم مفتاحه لجاسم الذي تصبح الغرفة وما فيها في عهدته، بل ملك له... "غرفة الحمِس" كانت التسمية التي اعتدنا أن نطلقها على المستودع المُنظّف مسبقا، وكنا نقوم بشراء المفتاح والأغراض من جاسم مقابل مبلغ رمزي بعد انتهاء العيد. كان بوسع جاسم أن يطلب مالا أكثر لو أراد، فقد كنا مُضطرين لاسترجاع وديعتنا بأي ثمن.

الأواني الخاصة بالعيد أو "كاشر للبيساح" كانت تُخزن في غرفة صغيرة تُدعى "كبشكان"[11]، لم يكن بالإمكان بلوغها دون استعمال

سلّم، فهي أشبه بخزانة مثبتة في أعلى جدار الشرفة أو الطارمة، وكانت صعوبة الوصول إلى الكبشكان مقصودة كي تبقى جميع محتوياته نظيفة حتى حلول العيد التالي، لكن فضولنا الطفولي طالما دفعنا لاستكشاف الغرفة الصغيرة والتسابق لتسلّق السلّم المؤدي إليها... بعض قدور الطهي التي تُستخدم خارج موسم العيد كان بوسعنا استعمالها خلال البيساح أيضا، شرط أن يتم تنظيفها جيدا، ثم غمرها بالماء المغلي مع رشة من الملح وبعض الحصى، وهي العملية المعروفة بـ "أغالة".

جميع الطقوس كانت تبدو في عيوننا نحن الأطفال شديدة الإثارة، وكنا نتطلّع بلهفة لبدء الاحتفالات المسائية التي كان يجري إعدادنا لها في المدرسة بمجرد انتهاء عيد البوريم وعلى امتداد الأسابيع الستة أو السبعة التي تفصله عن البيساح، فكنا نتدرب على التلاوة والترتيل لمدة ساعة في كل يوم. كل فصل من فصول الكتاب المقدس كانت تتم تلاوته أولا بالعبرية القديمة التي درّسها لنا حاخام مسن، ثم بالعربية وبنغمات مختلفة لكل منهما. القصص المذكورة في النصوص كانت تبدو مشوّقة للغاية، وكنا نسخر ممن يخطئون في التلاوة بعد كل ذلك التمرين... أصوات الصغار وهم يردّدون ما تعلّموه في المدرسة كانت تُسمع في شتى أرجاء حي حنّوني في ليلة البيساح، وكان الفرد منا يفاخر رفاقه بأنه بقي يقظا حتى منتصف الليل لقراءة أكبر قدر ممكن من الأجزاء.

اعتدنا أن نكثر من تناول منتجات الألبان في اليوم الأخير من البيساح، وكذلك "الحلبة" وهي من البقوليات الخضراء، ومن العادات الأخرى كان إمساكنا بأغصان "الزداب" الأخضر، وهو من أصناف

"المِر"، ثم نمس بها بعضنا البعض بلطف، مُتمنّين أن تهل على الجميع "سنة خضراء"، وإن كنت أجهل مصدر ذلك التقليد وسببه... لا حاجة بي للقول إننا كنا نستغل الفرصة للتضارب بالأغصان قبل أن نولّي هاربين!

كنت أرى بغداد بالغة الجمال في تلك الفترة، بالرغم من أنها لم تكن تضم سوى طريق رئيسي واحد هو "شارع الرشيد" الذي سُميّ بذلك تيمّنا بالخليفة الشهير هارون الرشيد المُقترن بحكايا شهرزاد، وكان العوام يختصرون تسميته بـ "الجادّة"... شارع الرشيد كان يتسع لمرور ثلاث عربات تجرها الخيول، لكنه لم يكن مُعبّدا، فكان الغبار يغطي جنباته في الصيف وتملأه الأوحال في الشتاء، أما طوله فكان أكثر من ثلاثة كيلومترات بقليل ويمتد بموازاة نهر دجلة من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، أو من "الباب الشرقي"[(12)] إلى "باب المعظّم" حيث يقع قلب المدينة النابض وسوقها في المنطقة المعروفة بـ "الميدان" التي كان يعيش حولها معظم سكان بغداد من المسلمين، كما كانت تتفرّع عن شارع الرشيد شوارع جانبية قصيرة تؤدي إلى مراسي القوارب و"الكُفف"[(13)] على ضفة النهر، بالإضافة إلى أماكن بيع الأسماك الطازجة.

القارب الذي كان يقلنا إلى دارنا بعد انتهاء دوامنا في المدرسة كان ينطلق من شارع "سيّد سلطان علي" المجاور للجسر القديم الرابط بين ضفّتي النهر، فعلى الجانب الأيسر منه كانت المدينة بأحيائها ومرافقها الرئيسية، أما الجانب الأيمن فلم تكن يد العمران قد امتدت إليه بعد...

كان الجسر بدائيا، مكونا من عدد من الزوارق المربوطة مع بعضها البعض والتي كانت تهتزّ مع حركة جريان الماء في النهر، كما كانت تُترك مسافة شاغرة في الوسط كي تسمح بمرور القوارب الأكبر حجما متى ما اقتضت الحاجة إلى ذلك.

عرض مجرى النهر في تلك النقطة كان يبلغ ثلاثمئة وستين مترا تقريبا، وكان يربط بين ضفتيه طيلة خمسة قرون جسر بدائي أيضا. تأكّدت من ذلك عندما عثرت بالصدفة على رسم جميل له بيد فنان فارسي يعود إلى القرن الخامس عشر... قلة من الناس كانت ترغب بالذهاب إلى الضفة اليمنى التي اعتاد العوام أن يشيروا إليها بقولهم: "ذاك الصوب"، وكان دارنا أحد قصور قليلة تناثرت فيها، بالإضافة إلى خيم المزارعين الذين كانوا ينقلون محاصيلهم في الزوارق أو الكُفف إلى سوق المدينة، فكان الراغبون بالشراء يتجمّعون على الضفة الأخرى ويبدأون بالمساومة على الأثمان بمجرد وصولها، واعتاد المزارعون المعروفون بكرم الضيافة أن يقيموا لأنفسهم أكواخا من القصب على ضفة النهر كي يستخدموها للاستجمام عند حلول الصيف من كل عام.

امتد من باب المعظم "تراموای" طالما وددت تجربة ركوب عرباته ذوات الطابقين التي كانت تجرّها الخيول، وكانت تحمل على متونها المسلمين الراغبين بزيارة جامع "الكاظمين" الواقع على مبعدة أربعة كيلومترات.

كُجة النصارى كانت تقع في منتصف المسافة بين البابين، وكانت تضم عددا كبيرا من اليهود، بالإضافة إلى ساكنيها الأصليين من

المسيحيين، أما حنّوني فكان يقع إلى الشمال، تحيط به مناطق أكثر فقرا مثل "شيخ إسحاق" التي كان يقطنها المعدمون من اليهود والمسلمين على حد سواء، وكان الأثرياء من اليهود كثيرا ما يمدّون إليهم يد العون والمساعدة... عندما يبرأ مريض ما من عِلّته، كانت عائلته تقوم بإطعام ساكني شيخ إسحاق ابتهاجا بشفائه، ذلك أن الحي كان يضم ضريح الحاخام الحكيم إسحاق الذي عُرِف بتضلّعه بشؤون الدين حتى نال لقب "شيخ"، وكان المسلمون يجلّونه أيضا، بل زعم البعض أنه كان المؤتمن على خزنة ابن عم النبي محمد، لكن شيخ إسحاق لم يكن أفقر المناطق، إذ كانت هناك أحياء أخرى أكثر اكتظاظا بالسكان منه وأشد بؤسا مثل "تحت التكية" الذي كانت غالبية بيوت أهله مشرعة الأبواب بلا أقفال، أو كانت لبعض أبوابها الخارجية مزاليج خشبية ركيكة.

لكن أيا كانت درجة فقر المرء في تلك الأيام، كان دائما هناك من هو أشد عوزا منه، وأيضا من يطمع في الحصول على الضئيل الذي بحوزة الآخرين... كثيرة هي الحكايات التي كانت تُروى عن ذلك الأمر، أذكر منها تحديدا قصة الزوجين "أحمد وعائشة" اللذين تعرّضا لسرقات متكرّرة، فأعدّا العُدّة للإيقاع باللص الذي تسلّل إلى دارهما وهو يظنهما غافلين عنه، وسمع عائشة تسأل زوجها بصوتٍ عالٍ: "أين خبّأت المال؟".

"لا تقلقي!" أجابها أحمد... "لن يتمكّن اللصوص من العثور عليه هذه المرة، فقد دسسته في الشق في الجدار خلف المرحاض، ولن يحزر أحد أننا نخبئ مالنا هناك".

يا لها من مهمة سهلة! حدّث اللص نفسه وهو يمضي إلى المرحاض خلف الدار حيث توجد الحفرة التي فاحت منها رائحة عطنة... كان الزوجان قد أعدّا فخّا مُحكما عن طريق تمويه بئر جاف ما لبث أن سقط اللص فيه، فقام أحمد وعائشة بدعوة أهل الحي للفرجة على صيدهما، واحتفى الجميع بشجاعتهما.

حكاية أخرى كانت تروق لي عن "إلياهو" اليهودي الذي كان عائدا إلى داره عبر الأزقة الضيقة ذات يوم عندما اعترض طريقه لصّان وقاما بتجريده من كل ما كان يحمل، باستثناء خاتم ذهبي تعذّر عليهما انتزاعه من إصبعه... "فلتحمد الله!" قال أحد اللصين وهو يشير إلى السماء، ثم عقّب: "كان بوسعنا قطع إصبعك للحصول على الخاتم، لكننا نخشى الله".

"الحمد لله الذي تخشيانه، لكن المال الذي سلبتماه مني توّا هو أجري عن شهر من العمل الدؤوب، وكنت سأطعم وأعيل أسرتي به، فإن كنتما تخافان الله حقا، عليكما أن تعيدا نقودي إليّ!"... طأطأ الرجلان رأسيهما خجلين، ثم أرجعا المبلغ كاملا.

تنفّس إلياهو الصعداء، لكن الخوف تملّك منه وخشي من تكرار الأمر قبل أن يبلغ داره، فقال: "هل لكما أن ترافقاني إلى الطريق الرئيسي كي لا يتعرّض لي لصوص آخرون لا يتقّون الله كما تتقيانه؟"... استجاب الرجلان لطلبه بالفعل، وقاما بحمايته من عصابات السارقين.

الأبنية المشيّدة على جانبي شارع الرشيد كانت سكنية بارتفاع طابقين قبل أن يشرع مالكو العقارات بتحويل غرف الطوابق الأرضية

إلى محال تجارية دون أن تكون لها واجهات عرض زجاجية، كما لم تكن في الشارع أسواق لبيع الخضار والبقالة ولا مطاعم في البدء، وكانت هناك صيدلية وحيدة حملت اسم صاحبها "كُرجي الأزّخي"[14] أو الصيدلي، ونافستها فيما بعد صيدلية أخرى قام بافتتاحها الأرمني "كريكور"... اعتاد أصحاب المحال على إغلاق أبوابها بإحكام في كل ليلة باستخدام أقفال مزدوجة كانت زنة مفتاح أحدها تصل إلى نصف كيلوغرام ويبلغ طوله قرابة ثلاثين سنتيمترا، الأمر الذي كان يتطلّب الاستعانة بيدين اثنتين لإتمام عملية القفل أو الفتح، ولم تكن خدمات التأمين قد عُرِفت بعد، ولذلك كانت مسؤولية حماية كل محل ومحتوياته من السرقة تقع بالكامل على عاتق صاحبه، وما زلت أذكر الدهشة التي عقدت ألسن الناس في عام 1924 عندما بلغهم أن شركة تأمين قد قامت بتعويض أحد عملائها عن نظارته الطبية المكسورة في حادث عارض، وتكفّلت بسداد قيمتها بالكامل.

معلوماتنا عن الطب واستخدامنا للأدوية كانا محدودين جدا في تلك الأيام، إذ كان عدد الأطباء قليلا، ولم يكن معظمهم مؤهلا بما يكفي لممارسة المهنة، فكانوا يعتمدون العجرفة أسلوبا للتمويه على جهلهم، وكانت غالبية الناس تتوجّه أولا إلى "الوصّافين" أو العطّارين وحتى المشعوذين، فإن عجز أولئك عن مداواة المريض، يكون اللجوء إلى طبيب "حقيقي" ودفع أجرة الكشف المتواضعة عنده خطوتهم التالية... كلفة الاستشارة الطبية آنذاك كانت تبلغ أربع عانات (ما عادل بنسين في العملة البريطانية القديمة، وثمانين بنسا في عملة هذه الأيام)،

لكن الأمر كان مختلفا لدى الأطباء البريطانيين الذين بلغت أجرة الكشف في عياداتهم رُبيتين (ما يعادل ست جنيهات إسترلينية الآن) وكانوا يتقاضون خمس روبيات (خمسة عشر جنيها إسترلينيا) عن الزيارات الخاصة لمنازل المرضى، أما الوصّافون فكانوا يزوّدون قاصديهم بخلطات أو "وصفات" لا أذكر بالضبط ماذا كانوا يضعون فيها، لكنها كانت تؤتي مفعولها في معظم الأحيان، وعلى الأرجح أن الشفاء كان محض صدفة.

ليس مستغربا في مثل تلك الأوضاع أن الناس كانوا يلجأون للتداوي باستخدام الوصفات المنزلية، فكان دعك الصدر بالزيت الساخن شائعا لعلاج مشاكل التنفس ونزلات البرد، كما كنا نحتفظ بخزين من مُركّز ماء زهر البرتقال لعلاج اضطرابات المعدة، أما ألم احتقان الحنجرة فكنا نخفّفه بخليط من عصير الليمون الساخن والعسل، وكان الخل المصنوع في البيوت يُستعمل كمُطهّر فعّال، بالإضافة إلى استخدامه في علاج عسر الهضم، هو والزنجبيل... لسعات الأفاعي والعقارب وسائر الأمراض الجلدية كانت تُعالج بترياق من المادة الهلامية التي تنضح من السيقان السميكة للصبّار عند قطعها، وكنا على دراية بالخواص العلاجية لشتى التوابل المستعملة في وصفات طعامنا، مثل الكركم والهيل والفلفل والزعفران وجوزة الطيب والكمّون والقرنفل والقرفة، ومن بين طرق التداوي الأخرى كان استخدام خليط من الأوراق الطرية لأشجار النارنج لعلاج اضطراب الهضم، والزهور البنفسجية[15] المجفّفة لعلاج الحمّى، ومسحوق

حبات الليمون الحامض المجفّفة لعلاج التهاب الحلق، لكن قبل اللجوء إلى تلك الوصفات كنا نقوم بتدفئة المناطق المؤلمة بلفّها بالأوشحة أو الضمّادات المصنوعة من الصوف، ومن الغرابة بمكان أن ذلك وحده كان كفيلا بتهدئة الوجع في كثير من الحالات.

عندما كان الأطفال يمرضون أو يعانون من سخونة مفاجئة، كانت الأمهات يلجأن إلى مداواتهم باستخدام وصفات منزلية مجرّبة من حليب الماعز (البعض كان يقوم بتربية الماعز في بيته لذلك الغرض) أو نقيع التوت المجفّف والزهور البنفسجية المُحلّى بالسكر... في حال وجود شكوك حول إصابة ابنها بعين شريرة، كانت الأم تسارع إلى عمل حفرة في الأرض بجوار عتبة الدار من الخارج، وتسكب قدحا من الماء فيها، ثم تقوم بتدليك يدي الطفل وقدميه وجبينه، وأحيانا سائر جسده بطين الحفرة، فلو لم يشفه ذلك كان اللجوء إلى المعالج المسلم "مُلّا جواد" المعروف بفاعلية علاجاته، الملاذ الأخير. لكن الوصول إليه من الحي اليهودي كان يتطلّب عبور الجسر القديم ويستغرق وقتا طويلا قد يصل إلى أكثر من أربعين دقيقة باستخدام العربانة التي يجرها الحصان، إذ كان المُلّا يعيش في جانب "الكرخ"[16]، وكان يعالج المرضى الصغار بتلاوة آيات من القرآن عليهم والنفخ في وجوههم، ثم يكتب أدعية على قصاصات من الورق ويطويها قبل أن يناولها إلى الأمهات كي يخطنها على وسادات صغارهن كأحراز أو تمائم، وكان يعطيهن سبع أوراق مطوية أخرى، واحدة لكل يوم من أيام الأسبوع، كان عليهن نقعها في الماء، ثم سقيها للمرضى، ومن الجدير بالذكر أن المُلّا لم يكن يتقاضى

أجرا محددا مقابل خدماته، فكان المراجعون يعطونه من المال على قدر استطاعة كل منهم، وكثيرا ما كانوا يعودون لزيارته مُحمّلين بالهدايا امتنانا لمعالجته صغارهم.

كانت للكبار وجهة أخرى يقصدونها عندما تعجز الوصفات المختلفة عن شفائهم، ألا وهي "نور الله" وهو أحد أشهر المُطبّبين حينذاك، وكان معروفا بقدرته على علاج شتى أنواع العلل... على أرض الواقع، كان نور الله يصف للمرضى أحد دواءين: محلول مخفّف من ماء الشعير المصبوغ، أو مُسهل قوي من زيت الخروع، والأخير كان المفضّل لديه، فكان يعطيه لتسعين بالمئة من مراجعيه.

تداول الناس الكثير من الطرائف عن "د. نور الله"، وربما كان بعضها مُستندا على وقائع، إذ تردّد انه كان جالسا يدخّن الأرجيلة ذات يوم عندما انتبه لوقوف "سليم" على مقربة منه.

"كيف حال أبيك اليوم، سليم؟" سأل نور الله.

"تغمّده الله روحه برحمته، لقد توفي ليلة الأمس!" أجاب سليم.

"فهل أعطيته الدواء الذي وصفته له قبل أن يرحل؟"

"نعم، فعلت".

"ذلك من حسن حظه"، قال نور الله وهو يزفر بارتياح، ثم عقّب: "وحده الله يعلم ما كان سيصيبه لو لم يتناول الدواء!"

كان شارع الرشيد حافلا بالإثارة على الدوام، إذ كانت النساء المسنات يُرين جالسات على جوانبه، بجوار كل منهن قدر كبير مليء

باللوبياء المسلوقة، فكن يبعن لزبائنهن من المارة كسر الخبز اليابس المغموسة في حسائها اللذيذ، وكانت كل قطعة خبز تُربط بخيط ذي لون مختلف يترك طرفه متدليا من جانب القدر... بمجرد أن يمتص الخبز قدرا كافيا من ماء اللوبياء، كانت البائعة تسأل الحاضرين: "خيطك؟" بمعنى: "ما هو لون خيط قطعتك؟" كي تناول كلا منهم كسرته في صحن، وهي طريقة لا تختلف كثيرا عن أسلوب تناول "الفوندو" المعروف في الغرب.

من الجالسين الآخرين على قارعة الطريق كان رجل يسلق عظام الخروف وحواياه في قدر كبير، فكان يدعو المارة لتذوّق الخبز المنقوع بمرقها، أو ما أسماه: "التشريب الفاخر"، وينادي على زبائنه باستخدام طريقة الخيوط الملوّنة أيضا... كان البائع يروّج بضاعته بصياحه: "أغني للتشريب: ما ذاقك أحد إلّا عاد طالبا المزيد"، فإن شكى زبون من رداءة الطعام، كان ينهره قائلا: "ابتلع وجبتك واحمد ربك!" وعندما كان الزبائن يتذمّرون من وجود خرق قماش بالية في الطعام، كان يقول لهم: "هل كنتم تتوقّعون العثور على مناديل حريرية مثلا؟".

كان أثرياء بغداد يُرون وهم يسعلون بتهذيب في مناديلهم النظيفة، على العكس من الفقراء الذين كانوا يلفظون إفرازاتهم ويبصقونها في وسط الطريق، ولطالما حيّرني سبب اختلاف السلوك بين الفئتين عندما كنت طفلة... "الزبون" كان اسم الرداء المتعارف عليه لعامة رجال المسلمين، وكان يُربط بحزام في منتصفه، وله جيب كي يضع صاحبه فيه

منديلا مطبوعا أحمر اللون كبير الحجم، لكنه لم يكن يُستخدم لتنظيف الأنف، إذ اعتاد الرجال على قذف مخاطهم على الأرض بمهارة ملحوظة كما ذكرت، فكان المنديل يُستعمل ككيس لحمل حبات الفاكهة أو الخضار بربط أطرافه مع بعضها البعض، خصوصا وأن ورق التغليف لم يكن قد ظهر بعد في الأسواق، بينما كانت سلّة "الزمبيل" وسيلتهم لحمل المشتريات الأكبر حجما، أما رجال اليهود فكان الواحد منهم يحمل معه منديلا أبيض أو مُقلّما، أو اثنين، كي يستخدم أحدهما للتسوّق، والآخر للمخط.

من المشاهد المألوفة الأخرى كان جلوس رجل في ركن من الطريق وهو يحرّك مروحته فوق "منقلة" مليئة بقطع الفحم المتقّدة لشي الكباب، وكانت الرائحة المنبعثة من المنقلة كفيلة بجعل لعاب المارة يسيل، فيسارعون إلى شراء أسياخ اللحم الشهية، وعلى مقربة من بائع الكباب كان يُرى الحلّاق فارشا عدّته على الرصيف، عارضا خدماته من حلاقة ذقن أو قص شعر أو خلع أسنان أو فقع دمامل، وكان كل ذلك يتم على مرأى من الجميع.

الأرصفة كانت مُكتظة على الدوام بالمارة المجاهدين للسير بين الباعة وبضائعهم المختلفة التي كانوا يحملونها في سلال فوق رؤوسهم أو يضعونها على ظهور الحمير، ولم تكن غالبيتهم تتوانى عن غش الزبائن باستخدام موازين حديدية عتيقة وأثقال من الحجارة كما ذكرت آنفا... أصوات الباعة العذبة كانت تعلو بمديح معروضاتهم من فجل طازج أو نبق، أو "الكركري" وهو أحد أصناف الحلوى صلبة القوام،

فكانوا يلجأون لشتى الوسائل لجذب الزبائن ولفت انتباههم، حتى أن البعض كان يجرؤ على قول: "بِيع أمّك واشتري!" بمعنى اعرض والدتك للبيع وتعال كي تشتري من البضاعة المعروضة، أو: "أم العسل!" بمعنى تعالوا كي تذوقوا الحلوى فهي ألذّ من العسل، أو: "سطيّي سكران وكصها!" أي أن الأسطى المسؤول عن تقسيم الحلوى كان مخمورا عندما قام بعمله، فجاءت قطعها سخية كبيرة الحجم.

لم تكن أسعار جميع المعروضات رخيصة، إذ كان هناك مكان أو اثنان متخصّصان ببيع السلع الأكثر جودة مقابل أثمان أعلى، وكان يتعيّن على المرء أن يعطي من يقوم بمهمة التسوّق تعليمات صارمة عن الجهات التي يجب عليه التسوّق منها، فقد كان شائعا في تلك الأيام أن تتخذ كل أسرة "مسوكجي" ثقة كي يأتي إلى دارها في الصباح لأخذ الطلبات وتلبيتها، وكان "عبّودي" هو اسم المسوكجي الخاص بنا، وفي بعض الحالات كان "أبو البيت" أو رب الأسرة يتكفّل بالأمر عن طريق تأجير حمّال كي يقوم بإيصال مشترياته إلى الدار.

محلة "باب الآغا" القريبة من الجسر القديم كانت مقرّا لبقّال مُختال كان يرتدي على الدوام عمامة خضراء مهندمة تشير إلى انحداره من سلالة الرسول، وكان حريصا على تلميع معروضاته من التفاح والبرتقال والبطيخ كي تبدو شهية مغرية للزبائن في الأيام الحارة، خصوصا وأن موقعه الفريد كان يجلب إليه الموسرين من المارة، فكان يُسمع مناديا: "على السِجّين! على السِجّين!" كناية عن استعداده لاقتطاع شريحة صغيرة مثلثة الشكل من البطيخ الأحمر كي يرى الزبائن بأعينهم

مدى نضجها، إذ لم يكن هناك سبيل آخر للتأكّد من حلاوة البطيخ، تحديدا عندما يكون الموسم في بدايته، فكان المزارعون يسعون إلى إيصال محاصيلهم إلى السوق بأسرع وقت ممكن للاستفادة من ارتفاع أثمانها، وكثيرا ما كانوا يقطفونها قبل أن تنضج... الجميع كانوا يبحثون عن بطيخ ذي لب أحمر قانٍ لكونه أكثر حلاوة ونكهة من اللب غير الناضج زهري اللون، وكانت موافقة الزبون على عرض البقّال باقتطاع جزء من الثمرة تلزمه بشرائها إن كانت حمراء ناضجة، كما تتيح له رفضها في حال ظهر لبّها بلون باهت.

قبول العرض لم يكن خاليا تماما من المجازفة، إذ قيل إن أحد الزبائن طلب من البقّال أن يقطع جزءا من أكبر بطيخة لديه، فلما فعل تبيّن لهما بأنها لم تكن ناضجة، الأمر الذي كان سيشكّل خسارة مؤكدة للبائع في ظل ارتفاع ثمن المحصول في بداية موسمه... عندما رفع الزبون حاجباه كدلالة على رفضه الصفقة، أعاد البقّال ضخم الجثة قوي البنيان المثلث المقطوع بسرعة إلى مكانه كي تبدو الثمرة مكتملة، ثم ناولها إلى الزبون وقال له هامسا وهو يصطنع الابتسام: "خير لك أن تسدّد ثمنها من أن تستقر سكيني هذه في قلبك!" استدار بعدها نحو الشارع، وواصل النداء: "على السِجّين! على السِجّين!".

عند السير باتجاه الجنوب الشرقي وقبل بلوغ الباب الشرقي بقليل، كانت المنازل تصبح أقل عددا وأكثر تباعدا عن بعضها البعض، إذ كانت المنطقة مكبّا للنفايات، وكانت تنبعث منها شتى الروائح الكريهة قبل أن

يتم ردمها في الثلاثينيات وإطلاق اسم "بارك السعدون" عليها، فصارت بذلك أول متنزّه عام في المدينة يضمّ مراجيح للأطفال ودكات خشبية لجلوس الكبار. كانت تلك أطراف بغداد التي تلتها مساحات مفتوحة من بساتين ومزارع تمدّ الأسواق بأصناف المحاصيل والثمار المختلفة، لكن العمران سرعان ما وصل إليها هي الأخرى... كان شارع الرشيد ينقسم إلى فرعين في تلك النقطة، فعند التوجه نحو اليسار، كان الطريق يؤدي إلى مناطق "الكرّادة" و"سبع قصور" و"الزويّة" عبر تعرّجات مُغبرة يسلكها الرعاة والخيول والحمير والدواب الأخرى، وكانت تحاذيها خيم متفرقة وأكواخ مصنوعة من القصب مع عدد من بيوت القرويين المتواضعة المشيّدة بالطوب الطيني، فكان "العربنجية"[17] الذين يقومون بإيصالنا إلى القصر يكثرون من التذمّر وإطلاق اللعنات بسبب وعورة الطريق والضرر الذي يلحق بعرباتهم، ولم تتحسن الأوضاع إلّا بعد مرور وقت لا بأس به على انتهاء الحرب.

كان الطريق المؤدي إلى اليمين من نهاية شارع الرشيد مستقيما، يدعى بـ "السدّة"، وهو الشارع المعروف حاليا باسم "أبي نؤاس"، وكان يمتد على طول ضفة النهر بمحاذاة القصور المُشرفة على الماء، لكنه كان ضيقا للغاية، بالكاد يسمح بمرور عربانة واحدة، ولا مجال فيه للالتفاف أو الدوران، الأمر الذي كان يضطر العربات إلى السير لمسافة كيلومتر ونصف قبل أن تستطيع أن تسلك الاتجاه المعاكس، ولذلك السبب كان طريق السدّة مستخدما من قبل المشاة أكثر من العربات، إذ اعتاد الناس على زيارة المنطقة للاسترخاء والتمتع بمنظر النهر في

أوقات الراحة من العمل وأيام السبت والعطل، وكان مألوفا أن يمضي المتنزهون اليوم بأكمله هناك، فيفترشون العشب لتناول طعامهم وهم يصغون إلى الموسيقى التي كانت تؤدي دورا مهما في حياتنا، خصوصا وأن جلّ عازفي الآلات الموسيقية في النصف الأول من القرن العشرين كانوا من اليهود الذين أسّسوا مدرسة "المقام" في الموسيقى والغناء، فيما تكفّلت الفرق النسائية التي تُدعى عضواتها بـ "الدقّاقات" بإحياء حفلات الأعراس غناءً وضربا على الدفوف مقابل البقشيش... عندما دشّنت "إذاعة العراق" بثّها في عام 1936 كان العزف الحي للموسيقى يمثّل ركنا أساسيا في فقراتها، وكانت "أوركسترا بغداد السيمفونية" تضم عازفا مسلما واحدا مع غالبية من اليهود، وهو ما تسبّب بمشاكل عدة خلال مواسم الأعياد اليهودية حيث كان العازفون اليهود يمتنعون عن الحضور، وتغيب الموسيقى بذلك عن بث راديو العراق.

كان قصرنا يبعد عن السدة بمسافة كيلومترات ثلاث أو أكثر قليلا، وكان العديد من معارف أسرتي في تلك الفترة يسكنون في منطقة "السبع قصور" القريبة نسبيا، بما في ذلك عائلة زوجي المستقبلي، واستمر الإقبال على بناء الدور في تلك المناطق حتى بلغ العمران الزويّة التي يتحوّل دجلة عندها إلى "شط كرارة"، متخذا شكل منحنى كبير يحيط بالكرّادة... أذكر هنا أن أحد أصدقائنا المقرّبين قد شيّد قصرا هائلا ذا إطلالة على شط كرارة، وقام بتسجيل أبنائه في مدرستنا، فكنا نتزاور معهم على نحو متكرّر، لكن صعوبة الوصول إلى المدرسة من تلك المنطقة اضطرتهم في نهاية الأمر إلى العودة إلى سكنهم الأول في بغداد،

واستخدام القصر الجديد كمنتجع ريفي كانوا يقيمون فيه خلال عطل نهاية الأسبوع.

غالبية القاطنين على ضفة النهر كانوا من اليهود الذين انتقلوا للعيش في المنطقة عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى فرارا من التبعات المُدمّرة لمواسم فيضان دجلة، وقد يبدو في ذلك بعض التناقض، لكن المنطقة كانت مفتوحة وغير مكتظة بالسكان، كما أن بيوتها كانت حديثة متينة البنيان، فأعطانا ذلك شعورا بالأمان افتقده ساكنو أحياء بغداد المزدحمة التي كثيرا ما تفشّت فيها الأوبئة بعد الفيضانات، ومن أبرزها الكوليرا التي كانت تحصد عددا كبيرا من الأرواح.

لم يكن لبغداد وسائر المدن الأخرى منظومة دفاعية تحميها من مخاطر الفيضان حتى إنشاء "سدة الهندية" التي ابتدأ العمل بها في عام 1914، واكتمل في مطلع 1920 بمساعدة البريطانيين[18]، وأسفر عن تحويل مسار الفرات، وهو النهر العظيم الثاني في العراق، إذ كان ذوبان الثلوج المتراكمة على جبال شمال العراق وتركيا في موسم الربيع (في الفترة الممتدة بين شهري آذار وأيار تحديدا) يتسبب بسيول هائلة تجتاح مجريي النهرين الكبيرين بما يعادل نصف مقدار المياه المارة فيهما سنويا، ويؤدي إلى تآكل التربة على ضفافهما... لمسنا أثر ذلك عندما باتت المسافة الفاصلة بين قصرنا والنهر تقصر على نحو مقلق، فحاولنا في البدء أن نوقف التآكل بغرس حزم من الحطب على امتداد الضفة، وبعد انتهاء الحرب وإخلاء البريطانيين المبنى قمنا بصب جدار من الخرسانة المسلحة مع سلم ذي خمس وعشرين درجة كي نستخدمه

لبلوغ مياه النهر، وأصبحت بذلك أرضنا بمأمن من الانجراف.

كان سلوك الطريق المؤدي إلى مدرستي من شارع الرشيد مغامرة بحد ذاته، فكنت أسير مشيا على الأقدام لمدة خمس عشرة دقيقة عبر متاهة من الأزقة الضيقة المتفرّعة الشارع قبل أن أصل إلى الشورجة وسوقها المُسقّف المليء بشتى أنواع البضائع، والذي كان يعبق منه مزيج من روائح الفواكه الطازجة وأصناف التوابل والأعشاب، وتحوم حوله أسراب الذباب التي كنت أكشّها باستمرار... كان السوق يموج بحركة المارة بلا انقطاع، ويصعب أن تفلت الفتيات فيه من التعرّض للتحرّش على أيدي بعض الأوغاد الذين كانوا يستغلون الزحام للإتيان بأفعالهم المشينة.

كأسنان شوكة الطعام، كان الطريق يتفرّع إلى مسالك عدة بعد الشورجة، فيؤدي أحد فروعه إلى منطقة "العلاوي" حيث يقع سوق البيع بالجملة، فيما يقود فرع آخر إلى مدرسة الصبية، وكذلك الساحة التي أحاطت بها محال بيع القرطاسية ولوازم الخياطة، وافترش أرضيتها باعة "العلوجة" وهي حلوى لزجة مصنوعة يدويا[19] و"السمسمية"... من الحكايات التي استقرت في ذاكرتي عن السوق أن خالي موشي المولع بالمقامرة كان ماراً به ذات يوم، فشاهد بائع علوجة وهو يعرض بضاعته في صينيتين كبيرتين ويلوّح بيديه ليبعد الذباب عنهما. أثار منظر العلوجة شهية خالي، فراهن البائع على أن يعطيه عشرين روبية إذا حطت الذبابة التالية على الصينية على يساره، وإن حطّت على يمينه تكون الصينيتان من نصيب موشي. المبلغ الكبير أغرى البائع على

الموافقة، وتجمّع حولهما سريعا حشد من الصبية المترقّبين لما سيحدث. ما أن توقّف الرجل عن طرد الذباب حتى حطت واحدة على الصينية على اليمين، فابتهج خالي بالفوز وقام بمشاركة غنيمته مع المتفرّجين.

أكثر الباعة جذبا للزبائن كان "أبو العمبة" الذي كان يصنع "لفات العمبة" الشهية من أقراص الخبز الملفوفة حول مخلل المانجو المتبّل، فكنا نستمتع بتناولها كوجبة غداء، خصوصا عندما يقوم البائع بغمس اللفة بأكملها في سائل المخلل كتعبير عن اهتمامه الفائق بالزبائن وسعيه لإرضائهم.

في ذات الجهة، كان موضع "جرّاخ الخشب" الذي كنت أستمتع بمراقبته وهو يحيل بخرّاطه الجذوع والأغصان إلى قضبان تستخدم في عمل درابزين السلالم والمغازل وأرجل الكراسي وسواها، لكن الأكثر إثارة على الإطلاق كان الرجل ذو الفانوس السحري، المعروف بـ "صندوق الولايات" الذي يقف على الجانب الأيمن من الطريق، ويدعونا إلى النظر من خلال عدسة مكبّرة في واجهة صندوقه للتفرّج على صور متتابعة مثبتة على لفافة في داخله، وكان يضيئها فانوس... الرجل كان يدير اللفافة بيده ويروي لنا حكاية عن كل صورة فيها، مبتدئا بالقول في كل مرّة: "شوف عندك يا سلام!" وما زلت أذكر بعض تلك الصور التي كانت في معظمها عن أيام العثمانيين: "شوف عندك يا سلام إسطنبول بأبراجها وقلاعها!" و"هذا عنتر مع حبيبته عبلة!" و"هذه بندقية ألمانية الصنع!" وسواها من اللقطات المتتالية التي كانت بمثابة عرض سينمائي ساحر.

مدرسة الصبية كانت تمتاز بسعتها وساحاتها، وكان يعمل فيها مُدرّسون فرنسيون وإنكليز تم جلبهم خصيصا من باريس ولندن، كما كان لزاما على طلبتها ارتداء البدلات وربطات العنق مثل نظرائهم الأوروبيين، أما مبنى المدرسة فكان يُعد قصرا بالمقارنة مع مبنى المدرسة الابتدائية المقابلة له والمعروفة بـ "المدراش"[20] حيث كان يدرس الطلبة اليهود رقيقي الحال بتمويل من باقي أفراد الجالية... تم تشييد المدراش في عام 1833 إلى جوار الكنيس الكبير الذي يعود بناؤه إلى القرن الخامس بهدف توفير تعليم أساسي لجميع أبناء اليهود، وكان يتكفّل بتقديم وجبة غداء ساخنة لطلبته، علما أن السبيل الوحيد لتعليم الصبية مبادئ الديانة اليهودية واللغة العبرية قبل ذلك التاريخ كان باتخاذ مدرسين خصوصيين، فكان أبناء الفقراء ممن لا يطيقون أجور التعليم الخاص يعانون من الأميّة.

الزي الموحّد لطلبة المدراش كان الزبون التقليدي مع ارتداء سروال داخلي من نسيج قطني خشن، وكان الصبية ينتعلون في أرجلهم أحذية أو صنادل مستعملة بأحجام كبيرة دون جوارب، فيما أخذت العوائل الميسورة على عاتقها تقديم وجبة غداء لهم كانت عبارة عن رز أصفر اللون (بفعل إضافة الكركم إليه) مُنكّه بزيت السمسم وشرائح البصل المقلية مع بذور الكمّون المطحونة... كانت صفوف المدراش مظلمة، سيئة النظافة ومكتظة بالطلبة الذين قد يصل عددهم إلى مئتين ويشرف على تعليمهم مدرس واحد، وبطبيعة الحال كانت تنبعث من المكان رائحة كريهة لا يسلم منها المارة في الشارع المجاور، فكانوا

يضطرون لتغطية أنوفهم وعيونهم عند اقترابهم من المبنى.

قامت إدارة التعليم ذات يوم بإرسال مفتش إلى المدراش للتأكّد من مستوى تدريس اللغة الإنكليزية فيه، فجفل الطلبة لمرأى الزائر الغريب وراحوا يحدّقون إليه دون أن ينبسوا بكلمة، وسرعان ما زكمت رائحة البول النتنة أنف الرجل المسكين، فقال للمدرس وهو يتوق للمغادرة: "قدرتك الجليّة على الاستحواذ على انتباههم تدل على كفاءتك وتؤهلك للنجاح في تقييم أدائك الوظيفي"... خرج المفتش من الصف على عجل، وكان هو من روى لي تفاصيل الواقعة.

كانت هناك مدرسة أخرى مرموقة للذكور، تقع بالقرب من مركز المدينة هي "مدرسة شمّاش"، أسّسها في عام 1926 أحد الأقرباء الأثرياء لزوجي المستقبلي، تعبيرا عن امتنانه للرب بعد نجاته من الغرق على متن سفينة مخرت به عباب البحر الأبيض المتوسط.

كان الطريق يتسع في الجهة المقابلة للكنيس الكبير حيث يقع المبنى المهيب لمدرسة البنات التي كنت إحدى طالباتها، وكان اسم "الأليانس الإسرائيلية العالمية" يعلو بوابتها المزدوجة على هيئة نصف دائرة من الحروف المعدنية اللامعة... لبلوغ مدخل المدرسة، كان علينا سلوك ممشى معبد، حدّه العشب على جانبيه وأسوار من الشجيرات المشذّبة وأصص زهور كبيرة، فكانت الحديقة المنمّقة مصدر زهو للبستاني المسؤول عن العناية بها، وأذكر أنه كان ضخم الجثة قوي البنيان، يحمل في يده سوطا لا يتردّد في هزّه في الهواء لإبعاد كل متطفّل عن حديقته. كان "الأفغاني"، وهي التسمية التي عُرِف بها، يسكن في

ملحق صغير على يمين البوابة، وكان يحتفظ فيه بإبريق من الفخار اعتاد على ملئه بالماء ليلا كي يقوم النسيم العليل بتبريده لنهار اليوم التالي، خصوصا وان درجات الحرارة خلال قيظ الصيف كانت كثيرا ما تتجاوز الأربعين مئوية في الظل، فكانت الطالبات الميسورات يدفعن له المال مقابل حصولهن على شربات ماء منعشة من إبريقه.

حي حنّوني الذي عشنا فيه قبل انتقالنا إلى القصر كان يلي مدرسة الأليانس، وكان مقرا لشتى محال وأكشاك بيع الطعام الكوشر من لحوم حمراء ودجاج وأسماك وخبز، فكان جميع أبناء جاليتنا يقصدونه للتسوق، وكانت محلة شيخ إسحاق تقع بعد حنّوني، تليها "أبو سيفين"، وهي منطقة سيئة السمعة كان يسكنها المُعدمون من المسلمين واليهود، وكنا نرى الغالبية العظمى منهم وهم يتجوّلون في الطرقات حفاة الأقدام، لكن المسلمين من أبناء الحي كانوا يحرصون على شراء النعال المعروفة بـ "اليمني" بأشكالها الشبيهة بالقوارب قبل حلول شهر رمضان، فكانت تخاط لهم من جلود الأغنام كي يرتدونها بلا جوارب، وكانت تُصبغ أحيانا بلون أحمر زاه... المعيار الأهم عند اختيار أي زوج كان إصداره صوتا عاليا خلال السير كي يعلم الناس أن لابسه لم يعد حافي القدمين، حتى ولو كان ذلك على حساب راحته.

الزهو باليمني الجديد لم يكن يستمر طويلا لسوء الحظ، فقد كان لزاما على الجميع أن يخلعوا نعالهم قبل الدخول إلى الجامع لتأدية الصلاة، وكانت اليمنيات تُترك بعهدة رجل عند باب المدخل كي يقوم بحمايتها، لكن الأخير كان كثيرا ما يتفق مع الإسكافي القريب على سرقة

الأزواج الجديدة، وجلبها إليه كي يقوم بإعادة بيعها لزبائنه من الفقراء السُذّج... بعض المحتالين كانوا يلجأون إلى دخول الجامع حفاة، ثم يسارعون بالخروج بعد إتمام الصلاة لالتقاط أفضل النعال المتروكة عند الباب، فلم يكن آخر الخارجين من المُصلّى يجد أمامه سوى زوج قديم مهترئ، وقد لا يجد شيئا على الإطلاق.

من الحكايات الطريفة التي ردّدها العوام أن رجلا يُدعى "فؤاد" كان حريصا على زوج اليمني الجديد الذي ابتاعه خصيصا للعيد، فقام بتغليفه بالورق بإحكام حتى بدا كالطرد، لكن المتعهد بحراسة النعال عند باب الجامع ارتاب بأن تكون تلك حيلة لإدخال الزوج إلى المُصلّى وتفويت الفرصة عليه لسرقته، فسأل فؤاد عمّا كان يحمل بيده:

"إنه قانون حماية اليمني"، أجاب فؤاد بمكر... كلمة "قانون" أخافت متعهد الحراسة الذي خشي أن يكون فؤاد موظّفا حكوميا، فتركه يدخل برفقة اليمني الجديد، واستطاع فؤاد أن ينجو بنعله من السرقة على أمل أن يختال به خلال أيام العيد.

عاد فؤاد إلى داره وهو يحمل طرده الثمين تحت إبطه، حفاظا عليه من وحل الطريق الذي كان سيقلّل حتما من الضوضاء التي يصدرها عند المشي، وأعماه حرصه عن رؤية مسمار صدئ اخترق قدمه العارية، فراح الدم ينزف منها بغزارة... عندما تفحّص فؤاد الجرح، راح يردّد مع نفسه: "كيف أوفي لله شكره؟ اليمني الجديد لا يزال سليما ملفوفا لم يصبه سوء، لو كنت انتعلته لثقبه المسمار وأتلفه. أحمد الله على المعجزة التي أنقذت اليمني وأوقعت الضرر بي!".

حكاية أخرى كانت شائعة عن أحد السادة الذي خرج من داره معتمرا عمامته الخضراء ومرتديا عباءة من الصوف بنية اللون ذات حواف موشاة بتطريز ذهبي، وراح يمشي متبخترا في وسط الطريق كي يسمع المارة الصوت الصادر عن زوج اليمني الجديد في قدميه، لكن كرشه الضخم حال دون رؤيته قشر موز مرمي على الأرض، فتزحلق ووقع على مؤخرته... شاهد أحد الصبية الحادث ولم يتمالك نفسه من الضحك، لكنه وجم عندما لمح نظرات السيد الغاضبة، فسأله: "هل سقطت يا سيد؟" استجمع الأخير قواه محاولا النهوض، ثم انهال على الصبي بالضرب وهو يوبّخه: "هل تظن أني كنت أحاول تبريد عجيزتي بالطين مثلا؟".

قصص مثل تلك كانت تروق لي كثيرا برغم سذاجتها لأنها كانت تحملني إلى زمن حكم السلاطين، وكانت الرواية تبدأ دائما بمقولة: "بأيام العُصملّي"، وتدور أحداثها غالبا حول أشخاص بسطاء محدودي التعليم والمواقف المحرجة التي أوقعتهم فيها سلامة نواياهم... الطرائف كانت تعكس تواضع أسلوب حياة الناس في تلك الأيام، ولم تكن تهدف إلى السخرية منهم، أو وسمهم بالغباء.

هوامش الرسالة الخامسة

(1) مفردة "شادي" في العامية تعني "قرد".

(2) جمع "بنكة"، وهي التسمية الشائعة للمروحة الكهربائية.

(3) صرخة تُطلق عند الفجيعة.

(4) مطلع الأهزوجة الشعبية المعروفة هو: "يا حوتة يا منحوته، هدّي قمرنا العالي!".

(5) نسب بعض المؤرخين المبنى إلى "أم حبيبة" ابنة "هارون الرشيد"، فيما زعم آخرون أنه كان قصر "أم حبيب" حفيدة الرشيد وابنة الخليفة المأمون، وقد تكونان سكنتاه في فترتين مختلفتين.

(6) عيد الفصح الذي يحتفي اليهود فيه بتحرّر أسلافهم من العبودية.

(7) فعل "عزّل" في العاميّة يعني أعاد الترتيب أو التوضيب.

(8) "مُعلّمنا موسى" بالعبرية.

(9) "البُرنُص" أو "البُرنُس" رداء يُلبس بعد الاستحمام.

(10) تسميته الشائعة هي "شيبك".

(11) كلمة تركية الأصل، مرادفتها بالعربية هي "السندرة" أو "العليّة".

(12) تُلفظ بالعامية "الباب الشرجي" نسبة لإحدى بوابات مدينة بغداد القديمة (رغم الدلالة المُهينة للمفردة بالعربية الفصحى!).

(13) جمع "كُفّة" وهي القُفّة المستخدمة في النقل النهري حينذاك.

(14) لقب غير متداول حاليا، استعاض العراقيون عنه بتسمية "صيدلي" أو "صيدلاني"، ربما كان مشتقا من "أزّخانة" أو "أكزخانة" التي تعني صيدلية باللغة التركية "Eczane"... علما أن المفردة المذكورة في النص الأصلي يمكن أن تُقرأ "أزّجي"، ولم يتم العثور على ذكر لها في مصدر ثان.

(15) التسمية الشائعة لها هي "ورد ماوي".

(16) الضفة الغربية من نهر دجلة الذي يشطر بغداد إلى قسمين هما "الكرخ" و"الرصافة".

(17) جمع "عربنجي"، وهو سائق العربة التي يجرها حصان أو أكثر.

(18) تم العثور على روايات متضاربة حول تاريخي بدء وانتهاء العمل في السدّة.

(19) "العلوجة" المعروفة في العراق والتي تدخل في بعض وصفات الطعام التقليدية هي فاكهة البرقوق الأسود المجففة، أو "القراصيا" كما تسمى في بعض الدول العربية.

(20) المفردة بالعبرية تعني التفاسير المتوارثة عن الفقهاء للأحكام والقوانين الواردة في نصوص الكتاب المقدس.

موسم الأعياد المقدّسة

حرارة الصيف الحارقة كانت ثقيلة الوطء على نفوسنا دائما، وتتزامن ذروتها مع حلول ذكرى التاسع من آب، أو "تشعة بآف" كما ذكرت، فيسود الحداد لثلاثة أسابيع على هدم الملك البابلي "نبوخذ نصر"[1] معبد "بيت همقداش"، أو بيت المقدس في "أورشليم" حيث حُفِظت الألواح التي عاد بها المعلّم موسى من جبل سيناء وتضمّنت الوصايا العشر... الغريب في الأمر أن معظم الشدائد التي تعرّضت لها عائلتنا حدثت خلال تلك الفترة، بما في ذلك محنة التسفير القسري لبابا في زمن الحرب.

قبل قرابة ألف ومئتي عام، ارتحل "أبراهام أبينو"، أو الأب إبراهيم من مسقط رأسه في "أور" من أرض ما بين النهرين إلى "يهودا" في أرض الميعاد، حيث وُلِدت الأمة التي كلّفها الرب بإبلاغ كلمته إلى سائر بني البشر، وأُطلقت تسمية "العبرانيين" على المهاجرين الجدد، نسبة إلى الفعل "عبر" الذي يعني الارتحال والعبور في العبرية أيضا في إشارة إلى قدومهم من الضفة الأخرى لنهر الفرات، ولذلك فعندما قام نبوخذ نصر بسبي اليهود وجلبهم قسرا إلى بلاد الرافدين كي يستخدمهم في حفر قنوات الري المتفرعة من نهريها التوأمين، كان في حقيقة الأمر يعود بهم إلى وطنهم الأول.

أكّد المُعلّم موسى على قدسية الألواح وأن الإله القدير سينتقم من كل من يجرؤ على تدنيسها أو لمسها بسوء، ولذلك كان يتحتم على من يريد حملها أن يغمر جسده بماء الميكفه قبل أن يضع يده عليها، فكان من البديهي أن تحل اللعنة على نبوخذ نصر الذي قيل إنه أُصيب بالجنون، وأمضى سبع سنوات هائما على وجهه في البراري مع الوحوش قبل أن يعود إلى رشده وعرشه في بابل.

قيل أيضا إن الملك رأى في منامه ذات ليلة تمثالا ذا قدمين من الفخار، فلما عجز أفراد حاشيته عن تفسير الحلم، انبرى للمهمة أسير من اليهود هو "دانيال" الذي قال للملك: "يرمز التمثال لِمُلكِك الذي سيتهاوى مع أبسط هزة"، وكان ذلك ما حدث بالفعل، فبعد فترة وجيزة تمكّن الآشوريون من الاستيلاء على بابل عاصمة إمبراطورية "حمورابي"[(2)]، ثم تعاقبت على حكمها بعدهم أقوام شتى.

رغم أن بابل كانت أرض أسلافنا الأولى، استحوذ حنين جارف لأورشليم على قلوب قومنا حتى جاء النبي "حزقيال" أو "حزقيل" الذي ما زال ضريحه موجودا في العراق، واستطاع في القرن السادس قبل الميلاد أن يرفع من معنويات شعبه بنبوءته بميلاد جديد للوطن... في تلك الأثناء، كان الأسرى من أبناء يهودا قد ارتفع شأنهم، فبعد أن كانوا مجرد عمال أجراء باتوا مستوطنين ومربي مواشي، ثم مزارعين وباعة وتجارا وصيارفة وعلماء، وقاموا كذلك بتأسيس مركز مرموق لتدريس الدين، ووضعوا نواة لأكبر جالية يهودية في العالم يرجع لها الفضل في جمع وتدوين القوانين والتعاليم المعروفة بـ "التلمود البابلي".

بابل الأثرية ما زالت ماثلة، تقع شواهدها على مبعدة مئة كيلومتر تقريبا من بغداد، وان غاب عنها مجدها القديم، إذ تكفّل الغزاة بتدميرها المرة تلو الأخرى، ثم بلغ بصدام حسين السفه حدا جعله يحفر اسمه على بقايا جدرانها... بالإمكان اليوم مشاهدة الكنوز واللُّقى التي عثر عليها المنقّبون البريطانيون بعد الحرب العالمية الأولى في المتحف البريطاني، وكان لتمكّنهم من فك شفرة التدوينات المسمارية دورا مهما في ترجمة العديد من النصوص القديمة، واطلاعنا على ما تضمّنته من معلومات قيّمة.

أذكر جيدا زيارتي الأولى لأطلال بابل عندما كنت مراهقة في عام 1925، وقيامنا بتسلّق تمثال أسدها الشهير لالتقاط الصور معه، وكانت ملامح وجهه شبه مختفية بفعل الدمار الذي تعرّض له خلال الحرب العالمية الأولى على أيدي الجنود المتأثرين بالأساطير عن وجود الذهب في داخله، لكنهم كفّوا عن محاولة سرقته بعد أن لمسوا صعوبة كسر حجر الغرانيت، ثم انصرفوا عن التمثال وهم يشعرون بالخيبة... إلى الجنوب من بابل تقع أور، موطن إبراهيم الأول، حيث نجد فيها بقايا "برج بابل" الذي أقامه العبرانيون في سعيهم لبلوغ السماء(3)، وتذكر بعض الروايات أن البرج الشاهق تهاوى قبل أن يكتمل بسبب تحدّث بُناته لغات مختلفة، الأمر الذي أعاق التواصل فيما بينهم، بينما زعم آخرون أن تشييد البرج أغضب الإله القدير، فقام بتحطيمه، ثم جعل ألسنة البشر تختلف كي لا يعاودوا محاولة بنائه من جديد.

أُعيد بناء معبد بيت همقداش في يهودا، لكنه هُدِم مرة ثانية على أيدي الرومان في عام سبعين بعد الميلاد في كارثة أخرى تضاف إلى

سجل مصائب تشعة بآب... كل ما بقي من المعبد اليوم جدار جانبي يحمل رموزا "قبلانية"(4)، يُعرف في الغرب بـ "حائط المبكى" لكثرة الدموع التي سالت عنده، ويُعد المزار الأكثر قدسية الذي تحج إليه جموع المؤمنين للصلاة والدعاء وتدوين الأماني على قصاصات من الورق باللغة المقدسة، يتم دسّها في الشقوق بين حجارته الضخمة على أمل أن تهب ريح تحملها عاليا إلى السماء.

كما ذكرت آنفا، كنا نعاني الأمرّين خلال موسم تشعة بآب بسبب تزامن ذكرى المصائب مع ذروة حرارة الصيف، حتى أننا اعتدنا أن نطلق على الأشخاص غير المحظوظين لقب تشعة بآب، وكان من النادر أن تحدث أمور جيدة فيه، فإن حدثت، نظر الجميع إليها بعين الريبة والقلق... التطيّر والخشية من أن يلحقنا أذى أو سوء طالع كانا وراء التزامنا الصارم بتقاليد المناسبة، ومن بينها حرصنا على عدم ارتداء أو شراء ملابس جديدة خلال أيام الحداد، كما كان مكروها أن يُقص قماش لخياطة فستان، ولم تكن توقّع اتفاقيات عمل أو يتم ابتياع عقار جديد، أما مناقشة تفاصيل الصفقات فقد كان مسموحا، لكن البت بها كان يؤجّل لما بعد انتهاء الموسم الحزين، باستثناء الحالات التي كانت مفاوضاتها قد ابتدأت قبل فترة الأسابيع الثلاثة، وكان مقبولا أيضا أن يتم رتق وإصلاح الملابس الممزقة، لكن كل ما سوى ذلك كان يُعد مدعاة للتشاؤم، فإن وقع مكروه ما على المتجاوزين، كان الجميع يلقون باللائمة عليهم، ويلوحون بأصابعهم قائلين: "ألم نحذّركم؟".

من الطقوس الأخرى كان إصغاؤنا لمغنية شابة وهي تشدو بصوت رخيم تفاصيل مأساة "حنّا"، السيدة المؤمنة التي رفضت الانصياع لأوامر الكفرة بالتخلّي عن إيمانها إثر هدم المعبد، وبقيت متمسكة بدينها رغم قيام المعتدين بذبح أبنائها السبعة أمام ناظريها، الواحد تلو الآخر، فكنا نذرف الدموع الغزيرة تعاطفا معها، وكان الكبار يقولون لنا إنّ التأثّر بمصاب حنّا والبكاء عليه وإن بدمعة واحدة يضمنان لنا استقبال عام قادم خالٍ من الأحزان والدموع(5)... أذكر أن التلاوة تضمّنت مقطعا ينقل عن حنّا قولها: "اسمعوا صوتي، وانظروا ما جرى لي!".

كنت شاهدة على وقوع إحدى النكبات في موسم تشعة بآب عندما قرر عدد من الصبية تجاوز المحاذير والذهاب في رحلة تجديف في النهر، لكن قاربهم انقلب فجأة قبل بلوغهم الضفة بأمتار قليلة، ثم تكفّلت "غوّاصة" أو دوّامة بإغراق من كان على متنه أمام أنظار أهليهم، وبعد مرور سنوات قليلة على تلك الواقعة، وفي ذات المكان تقريبا، غرق عشرة رجال من أمهر السبّاحين مع قاربهم الذي راح يدور فجأة حول نفسه قبل أن يختفي وكل من فيه في الماء... حدث ذلك خلال تشعة بآف أيضا.

سماء الموسم الحزين كانت زرقاء صافية، تكاد أن تخلو من مرور سحاب يخفّف من سطوع الشمس الحارقة، وكان الهواء يسكن هو الآخر، فتتوالى الساعات والأيام بطيئة متثاقلة... كنت أرقب أعناق نخلاتنا السامقات وهي تشرئب نحو الأعلى، حاملة تمورها كي تتكفّل الحرارة بإنضاجها، فإن حدث وهبّت نسمة مارقة لتهوّن علينا القيظ،

كانت النخلات تجأر بالشكوى، فتحني قاماتها وتترك سعفاتها تتطاير كما لو كانت خصلا غضبى من الشعر حتى تنطلي الحيلة على السماء، فتستجيب الأخيرة لرغبة النخلات بحجب النسيم، ويعود اللهيب إلى تأجّجه السابق وأكثر.

كان الفرد منا من شدة الحر ينظر خلفه كي يتأكد من عدم وجود نار موقدة، ومن يجرؤ على الخروج إلى العراء دون غطاء كان يشعر بأشعة الشمس وكأنها تطهو دماغه، فيضطر إلى أخذ أنفاس قصيرة متلاحقة، عوضا عن التنفس بعمق الذي يتسبّب بحرقة مؤلمة في المنخرين، ولو حدث أن لمسنا عن طريق الخطأ مسمارا ناتئا في باب ما كانت السخونة تحرق أصابعنا فورا، إذ كانت درجة الحرارة في الظل تتراوح بين أربعين وخمس وأربعين درجة مئوية، وقد تبلغ الخمسين في بعض الأحيان.

لم يكن بوسع باعة الثلج إيصال بضاعتهم إلى المستهلكين في مثل تلك الأجواء، ولم تكن الثلاجات الكهربائية معروفة قبل الثلاثينيات كما ذكرت... سماع الموسيقى خلال موسم الحداد كان ممنوعا علينا أيضا، وكانت وسائل الترفيه الأخرى شبه منعدمة، لكن عندما شرعت المدينة بالتطوّر فيما بعد، كنا نجد شيئا من السلوى في الغناء المتسلّل من غرامافون الجيران، حاملا إلى مخادعنا صوت "فرّوح" وهي تشدو بـ "خدري الجاي خدري" عن فتاة تقسم ألّا تعدّ الشاي ما لم يرجع إليها حبيبها الغائب[6].

عطلتنا الصيفية كانت تبدأ قبل أسبوعين من مطلع موسم تشعة بآب، فلم يكن بوسعنا أن نلوذ بدوامنا المدرسي من الضجر، وكانت

شهيتنا إلى الطعام تغيب هي الأخرى، إذ تغلق المجزرة الكوشر أبوابها لمدة اثنين وعشرين يوما تقتصر وجباتنا خلالها على الأطباق النباتية مثل "سمبوسك الطاوة"[7] المحشية بالحمص والبصل المقلي، و"الكجري" المكوّن من خليط العدس والطماطم والأرز مع اللبن الزبادي الذي يغطّي سطحه مقلي الثوم والبصل مع بذور الكمّون والزبيب وشرائح اللوز... المكوّنات البسيطة تلك كانت كافية لصنع مذاق شهي حتى قيل إن "إيساو" كان شغوفا بالطبق، فاستغل ذلك شقيقه الأصغر "يعقوب" للاستيلاء على أفضليته في المكانة والميراث[8]، وربما كان ذلك سبب إكثارنا من تناول الكجري في فترة الحداد التي لم يكن مسموحا فيها أن نتناول الدجاج أو اللحوم، أما فطورنا الصباحي المكوّن من "لفات" الخبز حول شرائح الباذنجان المقلي والبصل والطماطم ومبشور الجبنة البيضاء، فكان يمدّنا بالطاقة عبر ساعات النهار الطويلة.

حفلات الزفاف والخطوبة وسائر مظاهر الفرح الأخرى كانت تتوقف تماما، وتتفاقم معاناتنا مع انبعاث روائح تزكم الأنوف من جثث الحيوانات المتفسّخة في الحقول القريبة من خيول وحمير وأبقار بعد أن نفقت في الحر وتُركت في العراء وليمة لأسراب الذباب الكثيفة، وكان بعضها يُرمى في دجلة الذي يبلغ الماء فيه أدنى مستوياته خلال تلك الفترة، فيقوم التيار بقذفها على الضفة المحاذية لنا، وتبقى في مكانها حتى يقوم أحد العاملين في القصر بدحرجتها وإعادتها إلى النهر، أما الجزر الصغيرة التي كانت تظهر في وسط النهر في الصيف، فكانت

تنبعث منها رائحة نتنة أيضا بفعل تجمّع الأسماك الميتة على يابستها.

وحده الله يعلم كم كانت تبلغ درجات الحرارة تحت الشمس، إذ لم نكن نملك محارير القياس بعد، لكنني لا أستبعد أنها كانت تفوق الخمسة والخمسين مئوية، فكنا نجتمع في دربونة القصر، ونترك بابه الأمامي مشرعا عسى أن يردنا من النهر نسيم يحمل معه شيئا من البرودة، لكن الذباب كان يسارع بالهجوم علينا، ويبدو أنه كان يعاني من الحر مثلنا، فكنا نسمع طنينه المتقاعس المُتعب، الأمر الذي سهّل علينا اصطياده بالـ "كتّالات"[(9)] المصنوعة من نسيج سعف النخيل المثبت في نهايات عصي صغيرة، وكنا نملك العديد من الكتّالات ونتباهى بمهارتنا في استخدامهن، فكأني أرى بابا الآن وهو يحمل إحداهن بأستاذية، مستهدفا ضحيته التالية.

لم تكن دربونة قصرنا ممرا عاديا، إذ كنا نضع الأرائك على جانبيها، وتبقى مع ذلك فسحة كبيرة للحركة في منتصفها، وكان يطيب لكلب حراستنا الضخم أسود اللون "سبع" أن يستلقي عند الباب، بحثا عن شيء من البرودة ورصدا لكل حركة مهما كانت بسيطة، فكانت زمجرته تعلو بين الحين والآخر مُحذّرة... الدربونة كانت المقر المفضّل لنانا خلال الشهور الأخرى أيضا، فكانت تجلس فيها لإتمام تطريز مفرش المائدة الخاص بجهاز ريجينا، وكنا نجتمع حولها للدردشة والإصغاء إلى نصائحها، وأذكر أن الصيادين كانوا يأتون إلينا هناك لعرض بضاعتهم من الأسماك الخارجة توا من النهر، وهي لما تزل تنتفض، على والدتي، فقد كانوا يعلمون أنهم سيحصلون على ثمن مجزٍ لصيدهم.

كان يطيب لنا نحن الأطفال التسلّل إلى الميكفه لتبريد أجسادنا في مائها رغم اعتراض والدينا، فالانتقال السريع من برودة الحوض السفلي إلى الحرارة الحارقة في الخارج كان يمكن أن تكون له عواقب وخيمة، وقد يقتضي من الفرد منا أن يلزم الفراش ولا يغادره لأيام متعاقبة، خصوصا وأن شهور الصيف كانت موسما لانتشار شتى الأمراض من زحار وطفح جلدي وجفاف، والأخير كنا نتّقي الإصابة به عن طريق تناول شراب الزبادي المُملّح المعروف بالشنينة، أما ماء الشرب فكان دافئا، لكنه أقل سخونة من الماء النازل من الحنفية الذي كان يصعب الاستحمام به لشدة حرارته، وكنا نعتمد في طعامنا بشكل رئيسي خلال تلك الفترة على الفواكه والخضروات ومنتجات الألبان والأسماك الطازجة، وكان البطيخ يردنا عبر القفف من النهر، أو محمولا على ظهور الحمير... لم يحل حرص الجميع على الجلوس في الظل أو في داخل بيوتهم دون سقوط العديد من الضحايا، فمعدلات الوفيات كانت ترتفع على نحو ملحوظ، تحديدا بين الكبار في السن والأطفال الصغار، وكان يسود شعور بالتوتر والعصبية بالتزامن مع أوان جني الباذنجان الأسود، حتى أن الناس اعتادوا أن يمازحوا من يغضب ويخرج عن صوابه بالقول: "لا بأس، إنها أيام البيتنجان!".

كان من الضروري في مثل تلك الأجواء القاسية أن ننال قسطا من الراحة بعد تناول وجبة الغداء، فكنا نأخذ قيلولتنا في النيم، أو الغرفة الواقعة في مستوى أكثر انخفاضا من سواها، والتي تمتاز ببرودة هوائها وإن خالطه شيء من الرطوبة، فقد كان يتم وضع "العاقول" (نبات

شوكي صحراوي، تقتات عليه الجمال) بطريقة خاصة بين سعف النخيل بمحاذاة الشبابيك لإبقاء الغرفة باردة، وكانت تفوح منه (العاقول) عند البلل رائحة منعشة، فكنا نحرص على رشه بين الحين والآخر بدلاء من الماء كي تنخفض درجة الحرارة في المكان، لكن الماء كان يتبخر سريعا في قيظ الظهيرة، ويصبح الهواء ساخنا خانقا من جديد... استخدام المراوح اليدوية كان وسيلتنا الثانية لتبريد الجو قليلا، ولذلك عندما كان يزورنا ضيوف في الصيف، كانت المراوح اليدوية أول ما نقدمه لهم، كما كان القيام بالكثير من الأعمال المنزلية كالخياطة والطهي يتطلب شخصين، يتكفّل أحدهما بإنجاز العمل، بينما يقوم الآخر بتحريك الهواء بالمروحة بجواره.

ذلك الوقت من السنة كان مثاليا كي يلعب صبية المدينة بالطائرات الورقية التي كانوا يصنعونها بأنفسهم أو يشتريها لهم ذووهم جاهزة، ومن الغريب أنها كانت تحلّق عاليا على الرغم من غياب حركة الرياح في ذروة الحر، ربما كان السبب اختيارهم أوقات بزوغ الفجر وغروب الشمس للتوجه إلى الأسطح واللعب عليها، فكان من ينظر إلى الأعلى يرى السماء مليئة بالطائرات الورقية التي كان لبعضها ألوان براقة، وكثيرا ما كانت المنافسة بين اللاعبين تحتدم وكأنهم في معركة.

موسم تشعة بآب كان يتوّج بيوم من الصوم تمهيدا لمجيء الـ "موشياح" أو المسيح، فينزاح بانتهائه عبء ثقيل عن كاهل الجميع.

كانت السعادة تغمرني عندما تتسلّل إلينا البرودة مع قدوم موسم الأعياد المقدّسة في شهر أيلول، حيث يبدأ النسيم العليل بالهبوب من النهر في الليل، وبحلول شهر "تشري"[(10)] كنا نحتفل بأربعة أعياد متعاقبة هي: "روش هاشاناه" (السنة الجديدة)، "يوم كيبور" (عيد الغفران)، "سوكوث" (عيد العرش)، وأخيرا "سمحات توراه" (عيد قراءة التوراة).

كنا نترقّب الأعياد بلهفة بالغة لكونها مناسبات للبهجة والاحتفال، فكانت الخياطة تزورنا قبلها بفترة لأخذ طلباتنا، ثم تبعث إحدى عاملاتها كي تقيم معنى طيلة شهر كامل، تمضيه في العمل الدؤوب لصناعة أغطية وسائد وشراشف جديدة للجميع، ويأتي بعدها الندّاف الذي كان يقوم بنفش القطن لاستخدامه في حشو الفُرش واللحُف، وأيضا الوسائد ومساند الظهر للأرائك التي يُعرف المفرد منها بـ "تخت" وتستخدم للجلوس خارج الدار، حيث كان يتم التبرع بوسائد العام المنصرم للمحتاجين، وإن كنا نقوم أحيانا بالاحتفاظ بعدد قليل منها لاستخدامها في فرش الزائرين الذين كانوا يتوافدون على بيتنا في الصيف ويقضون أسابيع عدة في ضيافتنا... كان الندّاف يُعرف أيضا بـ "تي تي بم با"[(11)]، وكان يستخدم في عمله قوسا ضخما يماثل الذي يطلق الصبية بواسطته السهام على بعضهم البعض، فيقوم أولا بفك أربطة القطن الخام ويكوّمه على الأرض أمامه، ثم يشرع بنفشه عن طريق نقر وتر القوس وتمريره عبره، مبتدئا بالأطراف الخارجية للكومة، ويستمر بعمله حتى ينتهي من كامل الكمية التي كان يحشو بها أغلفة الفرش والوسائد الجديدة حتى تمتلئ، ثم يخيطها، فكان الصوت الناتج عن

ضربه المستمر على الوتر شبيها بلقبه: "تي – تي – بم – با".

كنت أجد متعة كبيرة في الاستلقاء على فراشي الربيعي الجديد الوثير، لكنني كثيرا ما كنت أستأذن نانا في الاحتفاظ بلحافي القديم لنعومته وخفة وزنه بعد أن استعملته لعام كامل، عكس اللحاف الجديد الذي كان يشعرني بالحرارة بسبب قطنه المنفوش حديثا وغلافه المُنشّى الخشن الذي يصدر حفيفا مزعجا عند الحركة، فكانت تسمح لي بذلك أحيانا... كانت الأعياد تحل علينا ونحن ما زلنا نفترش السطح للنوم ليلا، فكنا نستعين بأغطية إضافية أو "لبّادات" لاحتمال برودة الجو عند الفجر.

كل شيء كان يتم تجديده أو استبداله بآخر حديث احتفالا بالأعياد، إذ تحثّنا التقاليد على العطاء والسخاء الذي كان يشمل كل العاملين في دارنا، فكنا نوزّع عليهم قطع الأقمشة كي يقوموا بخياطة ملابس جديدة لهم، لكن لفافة واحدة من القماش القطني لم تكن تكفي لسد احتياجات الجميع بسبب كثرة عددهم، فبالإضافة إلى البستاني جاسم وزوجته فطوم التي كانت تسكن خلف القصر، كان هناك الحارس الذي يقف عند البوابة الخارجية حاملا بندقيته لحمايتنا، وأيضا الفتى الذي كان يجلب إلينا وجبات غدائنا الساخنة في المدرسة، فنتناولها مع لفات المخلل التي كنا نبتاعها من السوق المجاورة، ثم يقوم بإيصال غداء بابا إلى مكتبه القريب، وكذلك الأسرة التي كانت تسكن في الجانب القصي من الدار عند ملعب التنس وتتكفّل بالعناية به وإبقاء أرضه مستوية، كما يقوم ابناها بجلب الكرات إلينا عندما تشتد

المنافسة بيننا في اللعب، لكن استئجار الحارس وإنشاء ملعب التنس جاءا في مرحلة لاحقة.

قائمة الساكنين معنا كانت طويلة، وكنا نعدّ أفرادها جزءا من أسرتنا، بمن فيهم زهرة التي كانت تقوم بمهام خبز العجين في التنور والعناية بالأبقار وحلبها وصنع الجبن والزبدة واللبن الزبادي، وكانت تفضّل ارتداء الأقمشة القطنية ذات النقشات الداكنة، كما ضمّت القائمة حاقولي الطاهي، و"فرّوح" المسؤولة عن غسل الملابس وكيّها، وسواهما... احتياجات العدد الكبير من المستخدمين مع متطلّبات المنزل الأخرى كان يحملها إلينا من المدينة قارب نهري، وكنا نستأجر قفة خاصة لجلب عدّة "الشكرجي"، أو صانع الحلوى الذي كان يستخدم قدرا ضخما لا يتسّع القارب العادي له، وكان يمضي مع مساعده ليلتين في الدار لعمل "اللوزينة" المصنوعة من ثمار السفرجل مع شرائح اللوز وبذور الهيل الموزّعة على سطحها، وكذلك حلوى "من السما" والمعروفة أيضا بـ "بابي قدراسي" التي تعني حرفيا: "بسكويت السماء"، وهو صنف من النوغة يُزعم أنه المن الذي جادت به السماء على موسى والعبرانيين واعتمدوا عليه في طعامهم، وما زال القرويون في الأجزاء الشمالية الشرقية من العراق يحتكرون إنتاج المُكوّن الأساسي فيه بفرش أوراق الأشجار على الأرض، ثم القيام بجمع الندى المتبلور على أسطحها خلال الليل، إذ ورد في الكتاب المقدّس أنّ المن يتكوّن على وجه البريّة دقيقا كرقائق الثلج على الأرض و"يشبه في مذاقه "الرقاق بالعسل"[12]، كما ذكره الرحالة الشهير ماركو بولو في أحد كتبه، وكان الشكرجي مُتخصّصا في

صناعة من السما، فكان يبدأ عمله بإذابة بلورات الندى على النار وتنقيتها من الشوائب قبل أن يمزج معها بياض ما يقارب مئتي بيضة في قدره العملاق، وما كان الصفار ليذهب سدى بطبيعة الحال، فكان يُضاف إليه المزيد من البيض لعمل "خبز إسبانيا"، وهو أحد أصناف الكعك الإسفنجي.

زائر آخر كنا ننتظر موعد قدومه إلى دارنا بلهفة هو "ابن براخيل" الذي كان متخصصا بعمل دبس التمر أو "السِيلان" بنقع الثمار في الماء وتركها حتى صباح اليوم التالي، حيث يقوم مع مساعديه بعصرها واستخلاص عصير ذي لون شبيه بالطين منها، وجمعه في خمسة أكياس تُرص بعضها فوق بعض، وتترك حتى يترشّح منها سائل أكثر نقاوة، فيتم سكبه في صوان كبيرة دائرية الشكل، وتُحمل إلى السطح كي تقوم الشمس بتجفيفها وإحالة ما فيها إلى مادة عسلية القوام، لكن الصواني المكشوفة كانت تجذب شتى أنواع الحشرات التي كثيرا ما كانت تلتصق بمحتواها السكري، فيتعذر عليها الفكاك منه، وتموت فيه بطريقة بشعة... بعد مرور أيام عدة، وعند التأكّد من وصول الشراب إلى الثخن المطلوب، تجري تنقيته بدقة من الحشرات، ويُسكب في أوعية فخارية للخزن، فتنتهي بذلك العملية التي كانت تستغرق أسبوعا كاملا، ويصبح السيلان جاهزا للاستخدام. كان المقدار المصنوع منه يكفينا لمدة عام، وكنا نحن الأطفال نجد متعة كبيرة في متابعة مراحل استخلاصه بكل ما تضمنتها من فوضى دبقة، خصوصا وأن عمتي كانت معتادة على زيارتنا خلال تلك الأيام برفقة أبنائها الذين كنا نتشارك اللعب والمرح معهم.

كان السيلان يُخزن في حجرة المؤن في السرداب إلى جوار عشرات الجرار الصغيرة المليئة بـ "الشربت"[13] والقطر التي يعلو كلا منها غطاء مصنوع يدويا من القماش الرقيق الشفّاف، وكان الشربت يُعد بنكهات مختلفة كماء الورد وزهر البرتقال والمشمش والخوخ والرمان واللوز وسواها، ويُخفّف عند التقديم بالماء حسب الرغبة، وكان خزيننا منه هو الآخر يغطي استهلاكنا الخاص واستخدامه لأغراض الضيافة على امتداد سنة كاملة، كما كنا نصنع المُربيات والفواكه المطبوخة وأصناف المُخللات، ونحفظها في قوارير فخارية شبه مُزجّجة تُعرف بـ "البراني"، أما معجون الطماطم فكنا نُعدّه عن طريق فرش كميات كبيرة من الثمار على السطح كي تجف وتتركّز، علما بأننا كنا نستعمل الفواكه والخضروات الطازجة فقط، إذ لم تكن الزراعة المُغطّاة معروفة في تلك الأيام، وكان نضد الثمار في قلائد وتعليقها حتى تجف. وسيلتنا لحفظ التفاح والمشمش والبامية والنعناع لاستخدامها خارج مواسمها. وهكذا، كانت تصل دارنا في كل يوم تقريبا قفة مليئة بالمشتريات، بما في ذلك الجرار الفخارية المستعملة لتبريد ماء الشرب، إذ كنا نقوم باستبدالها في كل عام، فيتم وضع الجرار الجديدة في ركن ظليل تحت السلم، وكنا نبتاع مع كل جرة أو "حِبّ" مرشح الماء المعروف بـ "الناقوط".

أيام روش هاشاناه العشرة كانت فرصة لمراجعة خطايا العام المنصرم والتكفير عن الذنوب والتخطيط لحياة قادمة أفضل، وكانت تبدأ مع حلول اليوم الأول من تشري، الشهر السابع في تقويمنا... كان

الجميع، أغنياء وفقراء، يحرصون على ارتداء قطعة ملابس جديدة واحدة على الأقل بالمناسبة، وبطبيعة الحال، كان بوسع الأثرياء أن يبتاعوا الكثير من الأغراض، فكانت نساؤهم يرتدين آخر صيحات الموضة من الفساتين الموشاة بالخيوط الذهبية، أما الفتيات فكن يحصلن على قطع مصاغ جديدة، وغالبا ما كانت سوارا أو اثنين من الذهب.

في زخم تحضيرات العيد، كنا نحن الصغار نشعر بحماسة غامرة ويصعب علينا النوم، فكيف يغمض للفتاة منا جفن أمام بريق الأساور الذهبية الجديدة المصنوعة خصيصا لأجلها؟ إذ اعتاد بابا أن يحمل الينا علب الحلي من محل يعقوب الصائغ، فكنت أُخرِج الأساور الملفوفة بعناية بورق ذي لون وردي ساطع، وأعجز عن مقاومة عذوبة الرنين الذي تصدره عندما أحرك يدي، ثم أهرع إلى نانا كي ترى هديتي وتبدي موافقتها عليها، فكانت تقول لي: "إنها مصنوعة من الذهب الخالص، عليك الاعتناء بها جيدا!"... كانت الأساور الجديدة تبدو كبيرة على رسغي الصغير أحيانا، لكنها كانت تصبح مناسبة له تماما في العام التالي.

ما زلت أذكر تحلّقنا حول المائدة العامرة بأصناف الطعام الشهي المتبّل الذي يحمل كل طبق فيه دلالة خاصة... كنا نفتتح الوليمة بشكر الله على ما جاد علينا به من نعم ونسأله أن يديمها، ثم نتناول مربى التفاح ونحن ندعو الرب أن يجعل سنتنا القادمة حلوة المذاق كالعسل، يلي ذلك أكلنا الرمّان وطلبنا أن يكون عامنا زاخرا بالـ "مسووث" أو الأعمال الصالحة كما يزخر ثمر الرمّان بالحبوب، والبصل أو الفجل الحار كي

تكون السنة مُرّة على أعدائنا وكل من أراد بنا السوء، واللوبياء كي يعلو شأننا، والكوسة أو القرع الصغير كي يُغفر لنا سوء ظننا، ثم حبات من تمر وتين الموسم الجديد التي كنا نمتنع عن تناولها حتى ذلك اليوم كي نحمد الله على السنة الماضية ونطلب منه أن يمن علينا بالصحة والعافية طيلة السنة الآتية، وأخيرا، كان يحين وقت تقديم رأس الخروف المطبوخ مع المرق، فندعو الله أن يجعلنا دائما في رأس مساعينا، لا في ذيلها.

عند انقضاء العشر الأوائل من الشهر، تبلغ الأعياد المقدسة الذروة مع يوم كيبور الذي يُفتح فيه باب السماء على مصراعيه كي يصغي الله لدعوات عباده ويجيبها (بينما يُترك الباب مواربا في باقي أيام السنة!) ولم يكن العيد العظيم يصادف أبدا يوم جمعة أو أحد، لأن ذلك كان سيستوجب منا العمل في أيام السبت، وهو أمر مُحرّم... كنا نسعى جميعا للتكفير عن ذنوب عامنا المنصرم ونتضرّع إلى الله كي يقبل توبتنا في يوم الغفران، وكان السبيل إلى ذلك شاقا عسيرا، يقتضي الامتناع التام عن تناول الطعام والشراب لمدة ست وعشرين ساعة، تبدأ قبل غروب الشمس في اليوم المحدد، وتستمر حتى قدوم الليل في اليوم التالي، وتُعدّ أكثر مناسباتنا الدينية مهابة على الإطلاق.

وتيرة الاستعدادات كانت تتسارع على نحو ملحوظ في دارنا وسائر دور الجالية قبل يومين من الموعد المحدد مع وصول الشوحيط أو الجزّار المسؤول عن النحر، والذي كان يمضي اليوم بأكمله في التنقّل من بيت إلى آخر لذبح الدجاج اللازم لتحضير عشاء ما قبل الكيبور،

وكان الأطفال يحرصون على التواجد معه في أثناء تأديته مهمته، فإن تأخّر في القدوم وغلبنا النعاس، وكان ذلك يحدث كثيرا، تكفّل الكبار بإيقاظنا من النوم عند وصوله، إذ كنا نجد مشهد الدجاجات، وهن يتراكضن فزعات مقرقرات بأعلى أصواتهن كأنهن علمن المصير الذي ينتظرهن، مثيرا للغاية... جرت العادة أن يتم نحر داجن أبيض عن كل فرد من أفراد الأسرة: ديك عن الذكر، ودجاجة عن الأنثى، أما المرأة الحامل فيُذبح عنها ديك ودجاجتان، كما كنا ننحر المزيد لتوزيعه على المستخدمين الذين يقومون بعملية تنظيف الذبائح ونزع الريش عنها.

دجاجات البيوت كن ذوات ريش بني اللون في أغلب الأحيان وغير ممتلئات القوام، فكان الجميع يبحثون عن الدجاج الأبيض لطهيه بمناسبة يوم كيبور، خصوصا وأن مزارع الدواجن لم تكن معروفة وقتها، ولا الآلية التي تُمكّن المُربّين من الحصول على مواصفات خاصة في النسل الجديد، وكان ظهور دجاجة بيضاء ضمن الدواجن يحدث عن طريق الصدفة، ويُعد ميزة تتيح لأصحابها بيعها مقابل ثمن مرتفع جدا... بالرغم من ازدياد الطلب عليها، كانت قلة من اليهود تربي الدواجن، أما الأسر الثرية التي تملك مزارع خاصة بها، فكانت تستأجر عددا من القرويين للقيام بالمهمة، ومن الحكايات التي تردّدت عن ذلك أن أحدهم أراد بيع مزرعته، ودعا القروي المسؤول عنها كي يُطلِع الراغب بالشراء على شؤونها، فما كان من الرجل البسيط إلا أن قال: "وقع موسم الجدب كان عظيما على المحصول، إذ جفت آبار المياه في الأرض حتى تعذّر علينا ري المزروعات وسقاية الماشية، الأمر الذي

أتلف أشجار النخيل أيضا"، ومضى القروي في حديثه وسط دهشة صاحب المزرعة الذي أيقن أن الصفقة قد طارت منه، فانتظر مغادرة الزائر كي يسأل الأجير عن سبب فعلته، وجاء الجواب ببراءة: "ألم يكن ذلك الرجل مأمور الضرائب؟"

فحص الدواجن للتأكد من خلوّها من الأمراض كان أول ما يقوم به الشوحيط لدى وصوله، ثم يناول الدجاج أو الديوك تباعا إلى والدي الذي كان قد أتم تجهيز العدد المطلوب للنحر... عندما كان يحين دور الدجاجة الخاصة بي، كان بابا يحرص على حملها وتحريكها في دوائر حول رأسي لمرات سبع وهو يدعو الرب أن تكون ضحية عني وان أنعم بحياة هنيئة، وبمجرد الانتهاء من الدعاء، كان لازما أن يتم تسليمها باليد إلى الشوحيط الواقف بانتظارها في المطبخ.

قبل أن يحصل الشوحيط على إجازة ممارسة المهنة، كان عليه إتمام عام من الدراسة على أقل تقدير، يتعلّم خلاله تشريح الحيوانات المختلفة، وكيفية التأكّد من سلامة أطرافها وخلوّها من العلل وتقييم وضعها الصحي العام، فأبسط عيب يتم العثور عليه كان يستوجب رفض الحيوان واعتباره غير كوشر، كما كان ضروريا عدم تعذيب الذبيحة وإدارة وجهها بعيدا لحظة النحر، وكان الشوحيط يحرص على تعيين موضع الوريد الوداجي قبل البدء بالذبح، والأمر ذاته كان يسري على الحيوانات الأخرى... كل شيء كان يجب أن يتم بسرعة ودقة وبطريقة رحيمة، وكان يُسمح فقط بقطع الوريد الوداجي، فإن ارتكب الجزّار غلطة، كان الحيوان يُعدّ غير صالح.

عندما ينتهي الشوحيط من نحر دجاجتي بسكينته الحادة، كان يتركها جانبا كي يسيل الدم منها في وعاء مليء بالتراب، ثم يقوم بإهالة المزيد من التراب على الدم المسفوك وهو يردد دعاء يطلب فيه العفو، ويبدأ بعد ذلك نزع الريش عن الذبيحة وإزالة أحشائها وتنظيفها كي تكون كوشرا... كانت الحوايا والدماء تتناثر على الأرض على نحو فوضوي، فالوضع كان مخالفا لما هو حاصل اليوم من توفّر اللحم للراغبين بشرائه دون عناء من محال الجزارة الكوشر.

تجهيز عشاء الكيبور كان يبدأ بعد مغادرة الشوحيط، وكان الكبار يوصوننا بأكل سبع وجبات صغيرة خلال النهار، تتوّجها وجبة العشاء التي كنا نتناولها مجتمعين من الساعة الخامسة إلى حوالي السادسة، فتكون بذلك آخر ما يدخل أجوافنا من طعام أو شراب قبل غروب الشمس، وكانت الأطباق فيها مطهوّة بشكل أساسي مع البصل والطماطم والحمص، ويرافقها الأرز كالمعتاد، لكنها تكون ماسخة، وقليلة أو عديمة التوابل والملح حتى لا نشعر بالعطش بعد أكلها، وكان كثر منا يُصابون بالغثيان قبل بدء وقت الصوم بسبب كثرة الطعام الذي تناولناه استعدادا له، كما اعتاد أهلنا أن يحتفظوا ببعض المأكولات جانبا لوجبات الصغار من الفتيات (تحت الثانية عشرة) والصبية (تحت الثالثة عشرة) خلال اليوم التالي، لكنها كانت جميعها من الأصناف التي لا تحتاج إلى إعداد أو طهي كالدجاج البارد والبيض المسلوق أو المخبوز بالفرن مع "المحلّبي" أو مهلبية الأرز، إذ يُحظر علينا العمل وإيقاد النار في يوم كيبور كما هو الحال في الشابات... بعد الانتهاء من تناول العشاء

وشرب قدح الماء الأخير، كنا نتوجّه نحو بابا ونانا لتقبيل يديهما وطلب المغفرة من كل منهما بقولنا: "امنحني مهيلا!" فيأتي جوابهما: "مهالينو"، أي نحن نغفر لبعضنا البعض، آملين أن يعفو الله عما ارتكبناه من ذنوب خلال العام، ثم نذهب لتأدية صلاة المساء التي كان لزاما على جميع الحاضرين فيها ارتداء الألبسة البيضاء غير الجديدة، ولم يكن مسموحا لنا ارتداء الجلد أيضا، فكنا نستعيض عن الأحذية بالخفاف المصنوعة من القماش، وكان الرجال الأكبر سنا يرتدون السِتر مع زبونات بيضاء، بينما يلبس الشباب البدل البيضاء.

كان الرجال والنساء يمضون نهار يوم كيبور في التعبّد، فيرتدي الذكور الشالات مع لف أذرعهم بالأشرطة السوداء الخاصة بصلاة الصباح التي يُقام الجزء الأكبر منها وقوفا أو "عميدا"، حيث يتلو المصلّون النصوص في سِرّهم دون حركة، ويسود المكان صمت مهيب لا يقطعه سوى صوت تقليب الصفحات، وكان الأمر يستغرق وقتا طويلا يصعب على الأطفال أن يطيقوه، فإن أبدوا الضيق أو ندّت عنهم حركة ما، كان واحد أو أكثر من المُصلين الكبار ينهرهم سريعا بقوله: "احم" الذي لم تكن غايته زجر الطفل المشاكس فحسب، بل أيضا توبيخ والدته لعجزها عن السيطرة عليه... من الطرائف التي أذكرها أن ذبابة مزعجة حطّت على أرنبة أنف ابن عمي خلال أدائه المراسم ذات مرّة، فقام بتحريك وجهه كي يبعدها، لكنها عادت بعد طيران قصير وحطّت على أنفه ورفضت أن تغادره مهما حرّكه، بل أنها راحت تتمشّى عليه، ما أثار حنق ابن عمي الذي همس متبرّما: "أي لزقتِ بديني؟"

فدوت عاصفة من الاحم من الرجال المُصلّين في القاعة وسط ضحكات مكتومة من النساء.

اعتدنا أن نصغي إلى الرجال وهم يلتمسون المهيلا أو الغفران بأصوات شجية مؤثرة، وكانت النساء يذهبن أحيانا إلى دورهن لنيل قسط من الراحة عندما يوشك الصوم والحرارة على استنفاد طاقاتهن... مع اقتراب النهار من نهايته، كنا ننشد دعاء: "الهنا القدير، امنحنا الغفران في ساعة محنتنا هذه!" ثم يُنفخ في قرن الكبش المعروف بالـ "شوفار" إيذانا بانتهاء الصوم، فيعود الجميع إلى منازلهم لتناول وجبة الإفطار بعد أن يحصوا ثلاث نجمات مضيئات في السماء.

كثيرا ما كان يحل يوم كيبور في شهر أيلول، وقلما صادف تشرين الأول، أي أن درجات الحرارة خلال النهار كانت لا تزال مرتفعة جدا، لكنها تبدأ بالانخفاض ويميل الجو إلى البرودة عند حلول المساء، ولذلك لم يكن بوسعنا إعداد مائدة الإفطار قبل فترة طويلة، فكان أحد الخدم يسارع برش الأرض بالماء لتبريدها وغسلها بمجرد أن تغرب الشمس، ثم يقوم بوضع الوسائد على الكراسي، ومد مفرش نظيف على مائدة الطعام التي حُفِظت في الظل طيلة النهار... كانت الطاولة تمتلئ بأصناف الأطعمة التي تاقت أنفسنا إليها خلال صومنا الطويل، والتي كنا نتشارك في تحضيرها، كل حسب طاقتها، لكن الأولوية كانت تُعطى دائما لتجهيز الفحم الذي يوضع السماور عليه ويتربّع إبريق الشاي على قمته، فقد علّمنا صوم السنوات الماضية أن خير ما نبدأ به وجبة إفطارنا

هو "استكان"[14] ساخن حلو المذاق من الشاي الداكن، نحرص على ارتشافه على مهل.

كنت أتناول لُقيمات معدودة من الطعام بعد أن أنتهي من شرب الشاي، ثم أخلد إلى النوم لبعض الوقت، وأستيقظ وأنا أشعر بجوع شديد، فيكون مرق الدجاج مع الحمص قد جهز كي نأكله مجتمعين على سطحنا الناصي المطل على الحديقة.

كان من المُحبّب أو "مسوا" بعد الانتهاء من الصوم أن نباشر بإعداد الـ "سوكاه"[15]، فعيد العرش أو السوكوث يلي يوم كيبور بخمسة أيام فقط، وهي مناسبة يتبادل الأقارب والأصدقاء الزيارات خلالها لتقديم الشكر للرب لحمايته أسلافنا خلال سنوات تيههم في البرية، وكنا نحيي الذكرى بإنشاء السوكاه الشبيهة بالعريشة، ونشارك جميعا في تزيينها بسعف النخيل وثمار الفواكه كي تظهر بأجمل حلّة... كان بابا يُشرف بنفسه على تهيئة السوكاه في قصرنا حيث نقوم باستقبال الزائرين، وتناول الأطعمة والاستلقاء تحت الظلال الوارفة وربما نيل قسط من النوم أيضا، فكان الطلب يزداد على أصناف الفواكه التي جرت العادة على استخدامها في طقوس العيد وتشهد أثمانها ارتفاعا ملحوظا مثل "الأترج"[16] الذي كان يبلغ سعر الحبة الواحدة منه روبية، وهو قدر من المال كان كافيا لشراء أربع وستين ليمونة، لكننا اعتدنا على وجود ثماره مع أجزاء من الأغصان الحاملة لها ضمن زينة عريشتنا في كل عام، والأترج هو فصيلة من الحمضيات تشبه الليمون، وإن كانت ثمارها أكبر حجما بكثير من الليمون، وتمتاز بقشرتها السميكة ذات النتوءات

الكثيرة، ويُحكى أن أحد الباعة أراد أن يغري زبونا يهوديا بجودة بضاعته من الأترج، فقام بحسن نية بفصل الثمرة عن غصنها كي لا يُثقل الأخير الميزان، لكنه فوجئ بالرجل وقد تركه ومضى في سبيله دون أن يبتاع شيئا.

السوكاه كانت تظل قائمة لسبعة أيام تتغيّر خلالها هيئة زينتها من الفواكه والزرع، فتصير جافة شاحبة... في اليوم الثامن، كنا نقوم بتلاوة دعاء طلب البركة قبل إزالة أركان عريشتنا، ويحل بذلك آخر أعيادنا المقدسة: سمحات توراه المخصّص للابتهاج بنزول الشرائع، على نحو يماثل "عيد الشكر" المعروف في الولايات المتحدة وكندا.

هوامش الرسالة السادسة

(1) "نبوخذ نصر الثاني" أقوى ملوك "الأسرة الكلدانية". عُرف بشدة بأسه في القتال والازدهار الذي شهدته بابل خلال سنوات حكمه، بالإضافة إلى غزوه أورشليم وهدمه الهيكل وسبيه اليهود (630-561 ق. م.).

(2) الملك الشهير الذي حكم بابل خلال القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وعُرف بشريعته التي عُدّت أقدم منظومة قوانين عرفها التاريخ البشري.

(3) يظهر هنا تأثر كاتبة الرسائل بالأساطير المتداولة، فالسومريون هم في الحقيقة من بنى "زقورة أور" لعبادة إلهة القمر "نانا" قبل زمن إبراهيم، وبالتالي قبل ظهور العبرانيين الذين سمّوا بذلك بعد هجرتهم إلى يهودا.

(4) "الكابالا" أو "القبلانية" عقيدة فلسفية روحانية تتخذ من التأمّل سبيلا لفهم معنى الوجود والخلق.

(5) اقتضت الإشارة إلى تشابه تلك المعتقدات مع مثيلاتها الخاصة باتباع المذهب الشيعي في الإسلام خلال إحيائهم موسم الحداد في "عاشوراء".

(6) لم يتم العثور على ذكر "فرّوح" ضمن مطربات الزمن القديم اللاتي غنين اللحن الشهير، وهن "زكية جورج" و"أنطوانيت إسكندر" و"سليمة مراد"... المقطع الأول من الأغنية يردّد: "خدري الجاي خدري، عيوني المن أخدره؟".

(7) تسمية المقلاة في المحكية العراقية.

(8) ابنا "ريبيكا" و"إسحاق" التوأم المتنافسان على الميراث كما وردت حكايتهما في الكتاب المقدس.

(9) مضارب الذباب والحشرات باللغة المحكية.

(10) في التقويم اليهودي، يحل شهر "تشري" في أواخر شهر أيلول ويستمر لجزء من شهر تشرين الأول.

(11) لم يتم العثور على ذكر للتسمية سوى في مصدر واحد، ويبدو أنها كانت مستخدمة بين اليهود فقط.

(12) الإصحاح السادس عشر من "سفر الخروج"، الآيتان الرابعة عشرة والحادية والثلاثون.

(13) العصير المُركّز.

(14) قدح زجاجي يُستخدم لشرب الشاي في العراق، يرافقه صحن كي يوضع عليه.

(15) تُسمى إحداها بالعامية "عرزولة"، وتُطلق على العيد تسمية "عيد العرازيل".

(16) التسمية الشائعة للإترج في العراق هي "طرنج".

الرسالة السابعة

قهوة موشي

بالإضافة إلى حضورهم في مجالات الكهنوت والتعليم والوظائف الحكومية والحرف والأشغال اليدوية، امتهن كثيرون من رجالنا التجارة بشتى أنواعها، وكانوا يسعون في طلب الرزق ستة أيام في الأسبوع، فيغادرون دورهم في الصباح للتوجّه إلى "السوق" الذي كان مقرا لعالمهم الرجالي الصرف... لم يُعرف عن اليهود عملهم في سوق الأغذية، لكن مكاتبهم ومحالهم ومخازنهم كانت جميعها تقع في المنطقة المحيطة به، ويعود ذلك إلى أيام العثمانيين الذين حرصوا على تشجيع وتنمية التجارة الخارجية، مع أوروبا تحديدا، الأمر الذي أعطى اليهود والمسيحيين دورا حيويا وعزّز مكانتهم في المدن التي أقاموا فيها، فحقّق رجالاتنا نجاحات كبيرة كصيارفة ومتصرّفين ومسؤولين كبار في الحكومة ومديري مزارع وحرفيين مهرة وتجّار معادن وأحجار كريمة ومحامين ومحاسبين.

المركز التجاري الرئيسي كان يقع في شارع الرشيد بعد "شريعة النوّاب"، قبل "كُجّة التجار" في منطقة مكتظة بالمخازن المعروفة بـ "الخانات"، وكانت كل مقار رجال الأعمال المعروفين مجتمعة في ذلك الموقع، بما في ذلك مكاتب والدي وزوجي المستقبلي، كما

احتلّت الطابق العلوي من خان بابا "حجرة" أو مكتب "صهيون عبّودي"، وهو أحد أهم الصيارفة اليهود وقتها.

الطوابق الأرضية من الخانات كانت تُستخدم كمخازن لصناديق ورُزم البضائع، تعلوها مكاتب التجّار، أو من يقوم بإدارة أعمالهم، بالإضافة إلى سكرتاريين من الرجال، وكان لبابا مرسال خاص به أيضا... قلة من التجّار كانت تجيد القراءة والكتابة في تلك الأيام، فكان عبء التواصل مع المشترين وإعداد الحسابات يقع بأكمله على كاهل السكرتير، بينما يتولى صاحب التجارة مقابلة الوسطاء والتفاوض معهم حول الصفقات، وكان من المألوف تواجد رجل أو اثنين من الأكراد للقيام بمهام حمل البضائع وتحريكها في المخازن أو إيصالها إلى متاجر التجزئة، وكذلك حراسة المكان خلال ساعات النهار والليل.

تمكّن بابا وأخوه "شاؤول" من الحصول على إجازات لتمثيل العديد من الوكالات التجارية الأجنبية في بداية عملهما، فكانا يستوردان الأقمشة من إنكلترا والهند، والشاي من سيلان، والقهوة والسكر وغبار الذهب من الهند، حيث كان يتم صهر الأخير وشغله في بغداد قبل أن يُصدّر إلى "أنتويرب"(1)، كما كانا يتعاطيان الوساطات المالية والتجارية مقابل الحصول على نسب من قيم الصفقات المُنجزة... عندما توفي عمّي شاؤول، قرر بابا أن يستعيض عن أعمال الصيرفة والمال بالاستثمار في العقارات بعد أن راقت له الحياة في الكرّادة، فقام بشراء الأرض المحاذية لنا وتقسيمها إلى قطع سكنية وبيعها، وتزامن ذلك مع شق الطرق في المنطقة وتعبيدها.

موقع خان بابا كان مثاليا، إذ كان قريبا من المصبغة التي تجري فيها عملية تلوين الأقمشة على ضفة النهر، ومجاورا للمرسى المكتظ على الدوام بالقفف والسفن التي تنتظر نقل البضائع إليها أو إفراغ حمولاتها أو إصلاح الأعطاب في أشرعتها، وكانت المراكب ذات الكبائن السفلية تُستخدم لأغراض السكن أيضا... من المعروف أن عمق الماء في دجلة يقل كلما اقتربنا من النبع، وبالتالي فهو غير صالح لملاحة السفن البحرية القادمة من الخارج التي كانت ترسو في ميناء العراق الرئيسي في البصرة، حيث يتم إنزال حمولاتها عند "شط العرب" المتكوّن من التقاء دجلة بالفرات، ثم تُرسل حصة بغداد من البضائع إليها عبر قوارب نهرية أصغر حجما.

اتخذ الحمّالون الذين كانوا في غالبيتهم من الأكراد المرسى مقرّا لهم، إذ كانوا يتكفّلون بنقل البضائع القادمة عبر مقر الجمارك والضرائب، ومنه إلى الخانات المختلفة، وكان توافدهم على المكان يبدأ قبل بزوغ الفجر لتناول وجبة فطور دسمة تعينهم على مشاق عملهم، فكان المرسى يضج دائما بنداءات باعة الباجة الواقفين جوار قدورهم الهائلة وهي تغلي بفعل النيران الموقدة أسفل منها... دبيب الحركة في أيام الصيف كان يبدأ منذ الساعة الرابعة فجرا ويستمر حتى غروب الشمس، وكان مذهلا كم وحجم البضائع التي ينقلها الحمّالون على ظهورهم.

رصيف القوارب المخصّصة لنقل الركاب الراغبين بالعبور إلى الضفة الأخرى كان يقع عند نهاية شريعة النوّاب (شارع راق كثير

الانحناءات، يربط شارع الرشيد بالنهر)، لكننا كنا نفضّل العودة إلى دارنا بعد نهاية الدوام برفقة بابا، إذ كان يستأجر لنا قاربا ذا مجدافين و"تنتة" أو سقيفة من القماش كي تحمي رؤوسنا من أشعة الشمس الحارقة، ولم يكن الوصول إلى بيتنا عسيرا على المُجدّف الذي كان يترك قاربه إلى التيار كي يقوده إلى وجهته، لكن المشكلة كانت دائما في رحلة العودة التي تتطلب بذل مجهود شاق... مقاعد القوارب كانت تحفّ بها الوسائد البيضاء النظيفة التي خالطتها زرقة خفيفة كما لو أنها جاءت توا من المصبغة، إذ كان شائعا في تلك الأيام أن يُضاف مكعب أزرق إلى البياضات قبل شطفها لإعطائها بريقا إضافيا، وأذكر أننا كنا كثيرا ما نشتري سمكة كبيرة من الصيّادين لوجبة عشائنا، فكان يتم ربطها بالقارب كي يبقيها الماء طازجة حتى وصولنا.

"قهوة موشي" كانت قلب السوق النابض ومقصدا لجميع أصحاب الأعمال والتجّار الذين كانوا يتوافدون عليها لاحتساء الشاي أو القهوة، بالإضافة إلى لعب أشواط متتالية من "الطاولي" و"الدومنة"[(2)]... المقهى الشهير الواقع في وسط المدينة القديمة لم يكن ناديا خاصا بالمعنى المتعارف عليه في يومنا هذا، وإن اشترك معه في سمة أن روّاده كانوا يعرفون بعضهم جيدا، وبالتالي لم يكن تواجد الغرباء في المكان الصاخب مريحا لأي من الطرفين.

عُرِفت قهوة موشي بكونها مقرا لعقد الصفقات التجارية، لكن أحاديث روّادها كانت متنوّعة وشاملة لتوافه الأمور والنكات، وكذلك

الأنباء العاجلة التي تحملها رسائل البريد أو البرقيات كي تجري مناقشتها وتحليلها واستخلاص النتائج منها، فالتلفاز والهاتف لم يكونا معروفين في تلك الأيام، وكانت أجهزة المذياع محدودة الانتشار للغاية... أحاديث المقهى كانت الوسيلة المتعارف عليها لنقل الأخبار العائلية والمجتمعية أيضا، فقد كانت هناك صحيفة وحيدة في المدينة، تصدر باللغة الإنكليزية هي Baghdad Times، لكنها كانت خاضعة للرقابة، ولم تكن صفحاتها تضم سوى النمائم والإعلانات.

رجال الأعمال أو "السوقيّة" من المسلمين واليهود كانوا يُرون جالسين جنبا إلى جنب في قهوة موشي وهم يرتدون العباءات فوق ثيابهم، بينما يفضّل البعض لبس سترة مع الزبون، وقلة فقط كانت ترتدي البدلات الأوروبية، لكن الجميع كانوا حريصين على تغطية رؤوسهم، فكانوا يلفون العمائم حولها، أو يلجأون إلى استخدام "الشماغ" أو "الكشيدة"[3]، وكانوا ينتعلون في أرجلهم اليمنيات أو "الكالات"، أو ينتعلون أحذية وصنادل أوروبية الطرز... لم يكن هناك ما يستدعي القلق أو يبعث على الضيق بعد، فقد كان اليهود على وئام تام مع الشيعة والسنة، بل إن علاقتهم بالطرفين كانت أفضل من علاقتهما مع بعضهما، ولذلك كان من المألوف أن يقوم يهودي بالوساطة بين الخصوم من التجّار المسلمين، وكانت أصوات الجالسين في المقهى كثيرا ما تعلو حتى ليخيل للمارة أن خلافا ما قد نشب بينهم، لكن تلك كان طبيعة عقد الصفقات، حيث يلجأ المفاوضون إلى القسم برؤوس أحبتهم أنهم قدموا أقصى ما بوسعهم من تنازلات كي يجنوا أكبر قدر

من المكاسب من الطرف الآخر، فكانت مناوراتهم تعطي الفوز نكهة ومذاقا خاصين.

الطريف في الأمر أن الخضوع السهل والسريع لطلبات صاحب البضاعة كان يُعد مدعاة للقلق والريبة، وكان من الوارد أن يؤدي إلى فشل الصفقة برمتها، فغياب الفصال كان يعتبر مؤشرا على وجود خلل ما، لكن المساومات الطويلة لم تكن ضمانة لنجاح المفاوضات دائما، فكان الطرفان كثيرا ما يلوذان بمسبحتيهما "الكهرب"[(4)] اللتين تنبعث من حباتهما رائحة زكية إثر دعكها بالأصابع قبل اتخاذ قرار حاسم، وكانت الاستخارة بالمسبحة من الممارسات الشائعة التي يعتمد عليها التجّار المسلمون عند البت في كثير من أمورهم.

من الحكايات التي رواها بابا لنا أن أحد أصدقائه (تاجر قماش بالجملة) وجد صعوبة في تصريف بضاعته من القماش المقلّم الذي كان مرغوبا فقط من قبل المسلمين، وكان الرجل جالسا في خانه ذات يوم عندما أقبل عليه صاحب محل للأقمشة، وصار يستفسر منه عن البضاعة ويساومه على ثمنها، ثم سأله: "وما الذي يدعوني إلى دفع خمس وسبعين روبية للفة الواحدة، بينما هي موجودة عند "خان الزرور" (أحد المنافسين) مقابل ثمان وستين روبية فقط؟".

"ربما هم بحاجة إلى سيولة لتعويض خسائرهم، لكنني لست مستعجلا، ولا مشكلة عندي في الانتظار للحصول على المبلغ الذي أريد" أجاب صديق بابا، وظن أن فرصته في البيع قد تلاشت بمغادرة

الراغب بالشراء، لكنه فوجئ بعودة الأخير بعد قليل وابتياعه لفتين من القماش، ثم رجع بعد أيام معدودة لشراء المزيد، وتكرّر الأمر المرة تلو الأخرى حتى نفد خزين القماش بأكمله... لم يستطع صديق بابا كبح فضوله، وسأل الزبون عمّا دفعه إلى تغيير رأيه، فأجاب: "أصدقك القول أني كلما استخرت مسبحتي، جاءت النتيجة لصالحك، ولست مستعدا لجلب الشؤم على نفسي بمخالفة مشورة المسبحة".

من المعتقدات التي كانت سائدة بين الناس في تلك الأيام أن مسبحة الرجل ينبغي أن تلازمه طيلة حياته، وأن تغييرها أو فقدانها مدعاة للطالع السيئ، أما المسابح المقلّدة فلم تكن شائعة، وكان من السهل تمييز الكهرب الحقيقي عن المزيف من خلال رائحته وملمسه ووزنه ومغناطيسيته، كما كانت نوعيات المسابح وطرق حملها تدل على أحوال أصحابها... على سبيل المثال، كانت رؤية رجل يتجوّل في السوق، شابكا يديه خلف ظهره وهو يحرك حبات المسبحة بين أصابع كفه اليمنى، بينما تحيط كفه اليسرى بمعصمه، كانت تعد مؤشرا على انشغاله بـ "الخيرة" وتضرّعه إلى الله أن يلهمه الرأي السديد بشأن أمر مُحيّر، فالتسبيح في العراق لم يكن علاجا للقلق كما هو حاله في بلدان أخرى، بل كان ضربا من العبادة، يُعتقد أن النبي محمد أول من لجأ إليه خلال تأمله في الصحراء، ولذلك نجد أن تسميتها بالعربية مشتقّة من فعل التسبيح وذكر الله، ونظرا لأن القرآن يورد تسعا وتسعين صفة للرب مثل "العظيم" و"القوي" و"العدل"، كان ذلك عدد حبات المسبحة أيضا، خرزة لكل صفة.

كانت الخيرة تتم بأن يمسك الرجل عشوائيا إحدى حبات مسبحته، ويقوم بإحصاء الخرزات التي تليها وهو يردد: "نعم"، "لا"، "نعم"، "لا"، وهكذا دواليك حتى يصل إلى النهاية، ثم يكرر العملية لمرات ثلاث، فيكون تسلسل الحبة الأخيرة فاصلا في تحديد موقفه من الموضوع الذي دعاه إلى الاستخارة... اعتاد رجالنا من اليهود على حمل المسابح أيضا وإن كانوا يفعلون ذلك من باب اللهو لا غير، فديننا يحرّم علينا الخيرة ومحاولة معرفة الغيب وإتيان أي أفعال أخرى مرتبطة بالسحر[5]، لكن ذلك لا يعني أننا كنا أقل تطيّرا من نظرائنا من المسلمين، فكثيرون منا كانوا يؤمنون أن أول ما تقع عليه أعينهم في الصباح قادر على رسم مسار يومهم، إن خيرا أو شرا، ولذلك كنا نحرص على تحية بعضنا في الصباح بالقول: "صباح الخير!" ويأتي الرد دائما: "صباح النور!"[6].

كان الصبية من اليهود يعلنون عن بلوغهم الثالثة عشرة من العمر لغرض إقامة الـ "بار ميتزفاه"[7]، أما الفتيات، فلم يكن مسموحا لهن الإفصاح عن أعمارهن أبدا، ولذلك أسباب عدة، منها الخشية من أن يحد السن من فرص زواجهن لو حدث وتجاوزت إحداهن العمر المبكر للارتباط، ولذلك كنا نكتفي بالاحتفال بأعياد ميلادنا على هامش إحيائنا المناسبات الدينية الأقرب منها، ففتيات العائلة المولودات بين نهاية شهر تشرين الثاني ونهاية كانون الأول مثلي، كان يتم الاحتفال بأعياد ميلادهن مجتمعات خلال موسم الهانوكا... من الأسباب الأخرى لعدم تصريح الفتاة منا بسنها كراهية أن يُقال لها أنها تبدو أصغر

من عمرها الحقيقي، خصوصا عندما تأتي الملاحظة من شخص حسود، فكان رد فعلنا لإبطال مفعولها أن نردّد بصوت خفيض: "بالعين الرائية!" وكنت أعرف بعض النسوة اللاتي حرصن على إلباس مواليدهن من الذكور لباس الإناث كي لا تصيبهم العين.

كلما عانى شخص من سوء الحظ، كان من المألوف إلقاء اللائمة على عين الحسود، فيسارع المحسود إلى وضع حفنة من الملح في جيبه، أو يقوم بتعليق فردة حذاء أو نعل بالية على باب داره من الخارج كي يردّ ضرّها، ومن الطرق الشائعة الأخرى لطرد الحسد ذكر كلمة "خمسة!" بالتزامن مع فتح باطن الكف أمام وجه الحاسد، أو أن يبصق المحسود على الأرض ثم يدعك بصقته بحذائه وهو يردّد "انفُكست عين الحسود!"[8]، أما المغالون في التشاؤم، فكانوا يأتون بعين سمكة ويقومون بسحقها تحت أرجلهم حتى تتهشّم تماما.

كان الناس يؤمنون أيضا أن المرأة الحامل يجب أن تتناول الأطعمة التي تهفو إليها نفسها على الفور، وإلا فالجنين سيولد مع وحمة بلون ما تاقت إليه أمه، فإن حدث وحكّت المرأة جلدها خلال فترة الانتظار، كان ذلك مؤشرًا على موضع ظهور الوحمة على جسد الطفل... على سبيل المثال، كان الكجري من الأطعمة التي تشتهيها النساء الحوامل بكثرة لمذاقها اللذيذ، وكان عدم حصولهن عليه سريعا نذيرا بظهور بقعة برتقالية اللون على جلد المولود، فإن كانت أنثى وجاءت الوحمة في وجهها، كانت تلك الطامة الكبرى! هل تتذكرون العلامة الشهيرة التي كانت على جبهة ميخائيل غورباتشوف[9]؟ يخيّل إليّ أحيانا أن والدته

قد توحّمت على الفراولة خلال شهور حملها به.

أمر آخر كنا نتحاشى الخوض فيه هو المال، إذ لم يكن واردا أن يكشف المرء منا عن مقدار ثروته، بل كان الناس يتجنّبون إحصاء ما يمتلكون أصلا، ويقومون بدس نقودهم في أماكن متفرقة على أمل العثور عليها في ساعة العسرة كي يفكّوا بها ضيقهم، وهو ما تعارفوا على تسميته بـ "البركة"، فإن حالف الحظ أحدهم وحصل على مال وفير، كان عليه عدم التفريط بما جلب السعد إليه... كمثال على ذلك، كان من أكثر أهل بغداد غنى الرجل اليهودي(10) صاحب القصر المنيف المطل على دجلة الذي اتخذه الملك فيصل مسكنا له لحين إتمام تشييد قصره، لكنه رفض أن يتخلّى عن مكتبه المتهالك الذي شهد بداية بناء ثروته، وبقي يمارس عمله فيه حتى مماته بالرغم من ثرائه الفاحش لأنه لم يكن يريد تغيير "عتبة" حظه.

قلما كان يطرأ تغيير على المشهد المعتاد في قهوة موشي، فمعظم زبائنه كانوا يفضّلون الجلوس في الخارج حتى خلال فصل الشتاء القصير، وكانت أبواب المقهى تُقفل بعد ظهيرة الجمعة لغرض الاستعداد للشابات، فيبقى المكان مغلقا طيلة اليوم التالي، وخلال الأعياد اليهودية أيضا.

شعبية المقهى كانت ترجع بدرجة كبيرة إلى قيام موشي بتنظيم سجل لرواد مقهاه، كان يضم حسابا خاصا بكل فرد منهم غير مرتبط بوتيرة الحضور أو عدد الطلبات، وكان على الزبائن تسديد مبلغ قدره أربع عانات في الأسبوع (ما يعادل اليوم ثمانين بنسا)، أو روبية في الشهر

(ثلاث جنيهات إسترلينية ونصف تقريبا) وهو مبلغ زهيد حتى بمقاييس تلك الفترة.

بالإضافة إلى صخب الأحاديث والنقاشات المحتدمة بين الرواد وأصوات رقع الطاولي وهي تُفتح وتُغلق ودحرجة قطع الزهر عليها، كان المقهى يضج برنين الأكواب الخزفية الصغيرة المتراصّة على صواني الندل وهم يتحركون بنشاط لتلبية طلبات الزبائن بينما تتدلّى الفوط من أحزمتهم، فكان الفرد منهم يحمل الصينية على يد ويمسك باليد الأخرى دلّة القهوة الساخنة ذات الفوهة الدقيقة، إذ كان يروق للعديد من الرواد احتساء القهوة المنكّهة بالهيل على الطريقة التركية وهم يدخنون الأراجيل المعبأة بالتبغ وأحيانا بالأفيون، فتنضم القرقرة الصادرة عنهم إلى سائر الضوضاء في المكان، ولمن لم يسبق له رؤية "النركيلة"، فهي تتكون من إناء زجاجي يُملأ بالماء حتى منتصفه وله فوهة تعلو سطح الماء بقليل، يرتبط بها خرطوم تستقر نهايته الأخرى في فم الزبون، أما المادة المراد تدخينها، فتوضع في علبة صغيرة من الصفيح فوق الإناء الزجاجي، تحيط بها قطع من الجمر، وهكذا، عندما يسحب المُدخّن نفسا، تتأجج النار عبر الثقوب أسفل العلبة ويتحرك الماء كما لو أنه يغلي، فينتج عن ذلك انبعاث دخان التبغ أو الأفيون عبر الخرطوم، علما أن أصنافا بعينها من الأفيون المزروع في شرق العراق وإيران كانت تستخدم في نركيلات تلك الفترة.

كان لموشي عدد من الصبية يعملون كنُدُل في مقهاه، ويتكفّلون بإيصال الطلبات وخدمة الزبائن وجمع أكواب القهوة الفارغة، أما

الشاي فكان يُقدّم في استكانات مع قطع من السكر الذي كان يُباع في كتل صلدة يتم تكسيرها إلى أجزاء صغيرة ووضعها مع الشاي في الاستكان أو تقديمها على جنب، إذ كان بعض الزبائن يفضلون امتصاص حلاوتها ببطء في أفواههم، ريثما يرتشفون الشاي غير المُحلّى، ولم يكن واردا أن يُخلط الشاي مع الحليب أو أن تضاف إليه شرائح من الليمون.

بعض كراسي المقهى كانت مصنوعة بالكامل من الخشب، فيما كانت لبعضها الآخر سطوح مجدولة من الأغصان المرنة، لكن قسما من الرواد كان يروق له الاسترخاء على "التختات"، وهي أرائك من الخشب الصلد ذات مساند للظهر والأذرع على الجانبين، وكانت الواحدة منها تتسع لجلوس ثلاثة أشخاص... اعتاد التجّار الميسورون من المسلمين أن يتربّعوا في جلساتهم بعد أن يخلعوا أحذيتهم ويتركونها على الأرض، ومن الأمور المألوفة الأخرى كانت رؤية أحدهم مستلقيا بمفرده على التخت لنيل قيلولة مريحة بعد تناوله طعام الغداء.

من ضمن الرواد المواظبين على الحضور كان رجل يمتهن توريد المستخدمين، إذ كان يستغل وجوده في المقهى لمعرفة العوائل التي تحتاج إلى مساعدين، فيجول على البيوت لعرض خدماته على أصحابها مع فريق من المرشحين الذين كانوا في الغالب من الصبية والفتيات الصغيرات كي يقوم أرباب العمل باختيار الأنسب من بينهم... عند انتقالنا للعيش في القصر، كنا بحاجة إلى معونة كثير من المستخدمين لإنجاز المهام المُعلّقة، فتم توظيف عدد منهم لستة أشهر قابلة للتجديد في البيساح أو السوكوث (الربيع أو الخريف) مع مهلة

شهر في حال رغبة أي من الطرفين بإنهاء التعاقد، أما الأجور فكانت تُدفع لهم شهريا.

عندما تزوّج طاهينا الماهر حاقولي، بات يمضي نصف ليالي الأسبوع مع زوجته وأسرته في بغداد، فكان يستغل وجوده في المدينة لشراء حاجتنا من اللحوم، وجلبها معه في الصباح لعدم وجود محال جزارة كوشر بالقرب من دارنا في الكرّادة، وكان يحصل على إجازة في نهاية كل أسبوع، وأذكر أننا كنا نتسامر على مائدة الطعام ذات ليلة جمعة عندما سمعنا نقرا على الباب، أعقبه مقدم الصبي حسن الذي كان يعمل ساعيا لإبلاغنا أن شرطيا يقف برفقة حاقولي في الخارج ويود مقابلة بابا... دفعني الفضول إلى النزول مع والدي إلى الطابق الأرضي حيث فوجئنا برؤية حاقولي حاملا على ظهره صرة ثقيلة من القماش، وأبلغنا الشرطي أنه لمحه مع الصرة، فشّك في أن يكون قد سرقها، ثم أمر حاقولي بفض محتوياتها التي ضمّت جُمّارة بيضاء كبيرة، بالإضافة إلى كومة من السكر مع قرابة كيلوغرامين من الأرز وكمية من اللوز والفستق.

"يزعم هذا الرجل أنك منحته كل تلك المواد، فهل حدث ذلك فعلا؟". سأل الشرطي والدي بنبرة جادة عكست إحساسا بأهمية ذلك.

"نعم، بالتأكيد!" أجاب أبي بثقة وهو يحاول أن يخفي تأثره، ثم رافق الشرطي إلى الباب دون أن ينسى تقديم الشكر له على حرصه واهتمامه... بقي حاقولي ينتظر معنا، وما أن رجع بابا حتى انكبّ على يده كي يُلثمها.

"ما الذي دعاك إلى أخذ الجُمّارة بأكملها؟" سأله والدي.

"أعطانيها البستاني جاسم، جنابك، وقال لي أن أحملها إلى الأطفال"، أجاب حاقولي.

"ولماذا لم تفعل؟".

"ظننته قصد أطفالي أنا، سيدي!".

لم تتسبّب الحادثة بفصل حاقولي الذي بقي يعمل في دارنا لسنوات عديدة بعدها.

كان يروق لرواد القهوة لعب الطاولي مع قزقزة اللب، وهي تسلية شاعت كثيرا في تلك الفترة، إذ كنا نغسل "الحب" أو البذور عقب تناولنا البطيخ واليقطين ونصفيها للتخلص من الماء، ثم نُملّحها ونتركها كي تجف تحت الشمس قبل تحميصها على نار هادئة حتى تُسمع لها قرقعة، وتنبعث منها رائحة شهية قلما كانت تغيب عن معظم البيوت... أكل البذور المحمصة كان وسيلة مثلى لملء ساعات الفراغ، فبينما ينهمك الأطفال بلعب أشواط متتالية من الليدو والطاولي والورق، كان يحلو للكبار وضيوفهم الجلوس في حلقات لتبادل الأخبار والنميمة وهم يقزقزون الحب.

قبل وصول السجائر وشيوع تدخينها بين الناس تأثرا بأبطال أفلام هوليوود، كان "تكريز" الحب لهونا المفضّل عند ذهابنا إلى دور السينما، وكان من المألوف خلال فترات الاستراحة سماع الباعة وهم ينادون على بضاعتهم من البذور المحمصة: "حب يا لوز!" ورؤية

قشورها وقد غطّت الأرضيات بعد انتهاء العروض... أذكر أيضا أن الشباب من الذكور كانوا يهوون التسكّع مع رفاقهم على ضفة النهر في المساء، وكان الفرد منهم يحرص على مداعبة حبات سبحته بيد، بينما يستخدم اليد الأخرى في القزقزة، فيشعره ذلك بالزهو.

إتقان فن التكريز كان يتطلّب مهارة خاصة وسنوات من الممارسة، وتبدأ العملية بتناول حفنة من البذور وقزقزتها الواحدة تلو الأخرى، وكان من الضروري لقف الحب بسرعة باستخدام الشفتين دون أن يدخل الفم، يلي ذلك دور اللسان في وضع البذرة في مكانها المثالي، فتكون حوافها محصورة بين الأسنان الأمامية العليا والسفلى مع إبقاء رأسها متجها نحو الداخل، والحذر من ترطيبها باللعاب لأن ذلك سيعيق عملية الفلق التي تتم باستخدام القدر اللازم فقط من الضغط كي لا تتهشّم البذرة، وأخيرا كان يتم لفظ القشرة كاملة بمعونة اللسان ويصبح بذلك اللب السليم جاهزا للأكل... المُكرّز المحترف كان بوسعه إلقاء القشور في بقعة محددة، وكان كل شيء يتم بسرعة وبراعة، فتطير القشور في الهواء كالسحب قبل أن تستقر في حلقات منتظمة على الأرض.

عمي شاؤول كان يعد أحد أبطال التكريز في بغداد، إذ كان بوسعه قزقزة حفنة كاملة من الحب خلال ثوان معدودة، بل إنه ذات مسابقة مع عدد من الأصدقاء، تمكّن من أن يكمل تكريز خمسين بذرة في دقيقة واحدة فقط.

اشتهر عمي أيضا بضخامة بنيانه على نحو استثنائي، فكان يفوق سائر أقرانه طولا ووزنا، وهو ما جعله يبرز دائما من بين المحيطين به

الذين يبلغ أطولهم مستوى كتفيه بالكاد، وكان يحلو لعقلي الصغير أن يصوّره على هيئة راع يسير مع قطيع من قصار القامة، خصوصا وأنه امتاز بمشية منتصبة مزهوّة جعلته، مع حجمه الكبير، معروفا لدى معظم أهل بغداد... بالإضافة إلى تكريز الحب، كان عمي مولعا بالشرب حتى أنه كان يأتي على نصف قنينة من العرق في جلسة واحدة، كما كان يخشاه كثير من الحوذيين، فقد حدث أكثر من مرة أن انقلبت العربة به عند ارتقائه سلمها أو إثر قيام سائقها بسلوك منعطف حاد، لكن عمي استطاع تفادي مثل تلك الحوادث لاحقا بالكف عن استخدام السلالم الصغيرة والزج بنفسه في العربات مباشرة، والحرص على الحفاظ على توازنه فيها خلال الرحلة، وأذكر هنا أن عمي كان له صديق مقرّب يدعى "شالوم"، والأخير كان طويل القامة كذلك، لكنه لم يكن بطول عمي، وإن فاقه وزنا، ومن الطرائف التي رويت لي عن شالوم أنه احتاج إلى استخدام سيارة أجرة ذات يوم وتمكن بصعوبة من الدخول فيها، لكنه عانى الأمرّين عند الوصول، وما كان ليستطيع الخروج لولا قيام السائق بجرّه وتحريره بمعونة عدد من المارة الذين راحوا يضحكون تارة، ويكيلون اللعنات تارة أخرى.

من النوادر الأخرى عن الصديقين الضخمين أنهما كانا يتمشيان في شارع الرشيد ذات مساء عندما قام عمي بإيقاف عربة يجرها حصان، وبعد أن اتفق مع الحوذي على المبلغ المطلوب، قال له الأخير: "اصعد بسرعة قبل أن يراك الحصان!" فأجابه عمي: "مهلا، فهذا الفتى يريد القدوم معنا!" ما أن رأى الحوذي الفتى المقصود حتى انطلق بعربته

مسرعا وتركهما واقفين في وسط الطريق، ثم راح يلعن بأعلى صوته قسوة البشر الذين يريدون تحميل حصانه المسكين أوزانهم الثقيلة، فكانت تلك المرة الأخيرة التي حاول الصديقان فيها ارتقاء عربة معا.

كان يطيب لبابا أن يروي لنا الحكايات التي ردّدها زبائن قهوة موشي، وكانوا يستهلونها قائلين: "بأيام العُصملّي"، وتمحور أغلبها حول غياب العدالة خلال عهد العثمانيين، وكيف أن القضاة و"الأغوات" كانوا يصدرون الأحكام وفق أمزجتهم، إذ توهّموا أنهم ذوو حكمة وشأن عظيمين، رغم حقيقة أنهم ما كانوا ليبلغوا مناصبهم الرفيعة لولا المحسوبيات وشفاعة صلات القربى، فكان تلقيهم الرشى أمرا مألوفا، لكن ذلك لم يحل دون لجوء الناس إليهم لفض النزاعات والبت في المشاكل، ما كان تافها منها أو عظيما، دون أدنى ضمانة أن تحفظ الأحكام حقوق المُدّعين، أو أن تمت للعدل بصلة.

معظم الروايات كانت عن قضاة جالسين أمام حشد مُترقّب لما سيتفوّهون به، ودارت إحداها حول سيدة عجوز اسمها "فطّومة بنت شوكت".

"تكلّمي! ما هي مشكلتك؟" سألها القاضي المتعجرف.

"أنا أرملة مسكينة، لي ابن وحيد يعيش معي، لكنه لا يحترمني ولا يطعمني".

"تلك تهمة خطيرة تستوجب العقاب العسير كي يتذكّر أن مجتمعنا يفرض على الأبناء طاعة وتوقير الوالدين، خصوصا المسنين منهم... أين هو؟".

فزع قلب الأم فطّومة لسماع ما قاله القاضي، وشعرت بالندم لقدومها إلى المحكمة، والخوف من إيقاع عقوبة قاسية على وحيدها الحبيب، فكل ما كانت ترجوه هو أن يقوم القاضي بتوبيخه ويعيده إلى جادة الصواب، لكن أوان التراجع كان قد فات... تلفتّت فطّومة حولها في حيرة، فلما لمحت أحد الواقفين في الجوار، وكان شابا حسن المظهر والهندام لم تسبق لها رؤيته من قبل، استدارت نحو القاضي وقالت وهي تشير بإصبعها إلى الفتى المسكين: "ذاك هو! يا لقسوته، أنه يتظاهر بأنه لا يعرفني".

أمر القاضي بجلب الشاب الذي وقف بين يديه مضطربا، ثم صرخ فيه معنّفا: "أيها الفتى، هذه أمك قد بلغت من الكبر عتيّا، والشرع والعرف يفرضان عليك أن تجلّها... دعني أرك وأنت تنحني لتقبيل يدها، وأسمعك وأنت تطلب منها العفو عن سلوكك المشين!"

"حضرة القاضي"، قال الشاب باحترام شديد، "إنها ليست والدتي".

"أتجرؤ على الكذب ونكرانها أمامي؟ سأعلّمك كيف تنعش ذاكرتك".

استشاط القاضي غضبا، فأوعز إلى أحد رجاله أن يقوم بصفع الشاب بقوة على وجهه على مرأى من الحاضرين، وكانت تلك عقوبة قاسية ومهينة، لكنها لم تكن نهاية المطاف... "آمرك أيها الفتى أن تأتي بسلة جديدة مع وسادة، وأن تعين والدتك الكريمة على الجلوس فيها، ثم تحملهما معا على رأسك وتدور بهما في الشارع كي يرى الناس جميعا كم تجلّها، فإن حدث وبلغتني شكوى أخرى منك، سيكون السجن مصيرك".

سجون العثمانيين كانت معروفة بزنازينها المريعة المظلمة والرطبة التي تجول وتصول فيها الجرذان والصراصير، وكان مجرد ذكرها كفيلا ببث الرعب في النفوس، ولذلك لم يكن أمام الشاب المسكين سوى أن يمتثل لحكم القاضي الذي أوكل إلى حاجبه التأكد من تنفيذ العقوبة بحذافيرها... شرع الفتى في السير بقامة محنية بفعل ثقل حمله، وصار كل من يرى المشهد من المارة يضحك لسخريته، بمن فيهم شقيقه الذي لم يصدّق ما رأى وظن أن أخاه قد جُنّ، فسأله وهو يشير بإصبعه إلى السلة التي جلست فيها فطّومة:

"من تكون هذه المرأة؟".

"إنها أمّنا"، أجاب الشاب المُعاقب.

"لا تكن أحمق! هل نسيت أن أمنا توفيت منذ سنوات خمس؟"

"ربما يجدر بك أن تبلغ القاضي بذلك"، قال الفتى وهو يجاهد لإكمال الشوط الأخير من العقوبة، بينما لاحقت خطاه نظرات الحاجب المتربّص.

حكاية أخرى كانت عن شكوى تقدمت بها "أمينة" التي لم يمضِ وقت طويل على زواجها ضد رجل يدعى "عبد الله"... كانت أمينة حاملا في شهرها السادس عندما عبرت الجسر القديم برفقة زوجها ذات يوم، وصادف أن تعثّر عبد الله خلال مروره بجوارها، ثم هوى بجسده الضخم عليها وسقطا معا على الأرض، الأمر الذي تسبب بإجهاض الحمل، فقام زوجها برفع دعوى لدى القاضي للمطالبة بتعويض، لكن الأخير فاجأه بقراره: "لا شك في أنكما تستحقان تعويضا، ولذلك آمُر

أمينة بالـذهاب للعيش مع عبـد الله، ولا تعـود إلى زوجها حتى تصبح حاملا في شهرها السادس مرة أخرى، قُضي الأمر!".

من الطرائف الأخرى كانت خصومة "رفيق" و"محمود"، إذ كان الأول قد اصطاد زوجا من طيور الحجل وعقد العزم على شيّهما وأكلهما بعد أن يغتسل في حمّام السوق، فعهد بهما إلى محمود الكبابجي ودفع له أجرة الشواء مقدما، ثم مضى في غايته وهو يمني نفسه بالتمتّع بمذاقهما الشهي، لكنه عندما خرج من الحمام بعد مرور قرابة ساعة وهو يتضوّر جوعا، فوجئ باختفاء محمود والطائرين.

تمكّن رفيق من العثور على الكبابجي الفار بعد أيام قليلة، وقام بسحبه عنوة للمثول أمام القاضي الذي استوضحه عما حدث، فقال:

"حضرة القاضي، أرجوك أن تردّد ورائي: قادر!".

"قادر!" فعل القاضي كما طُلِب منه، فرفضه كان سيثير الشكوك بإيمانه بالله وقدرته المُطلقة، وهي أسوأ تهمة يمكن أن توجّه لرجل في مثل مكانته.

"عندما أتممت تتبيل الطائرين وقبل أن أضعهما على النار، حدثت معجزة تركتني مشدوها، إذ دبّت الحياة في أوصالهما من جديد، وخفقا بأجنحتهما، ثم حلّقا عاليا... يا لقدرة الله على فعل المعجزات!".

"قادر يا الله، قادر يا الله!" راح القاضي يردّد، فلم يبقَ أمام المُشتكي من خيار سوى الانضمام إلى مجموعة المُسبّحين بقدرة الله، وأعقب ذلك رد الدعوى.

وأخيرا، حان وقت النظر في الشكوى المقدّمة من قبل "إسماعيل" ضد "عباس"، إذ نشب شجار بين الرجلين شدّ عباس على أثره ذيل حمار إسماعيل بعنف ما تسبب بانقطاعه، فجاء الأخير برفقة دابته إلى القاضي للحصول على تعويض عمّا أصابها من ضرر.

"فماذا تتوقّع مني أن أفعل؟" صرخ القاضي بعد سماعه الشكوى.

أصاب الذعر إسماعيل الذي كان قد شهد للتو ما حدث من ضياع حق رفيق البيّن، وخشي أن يكون الضحية التالية للخزعبلات والتلاعب بالدين، فقرّر تغيير موقفه، وقال للقاضي:

"سيدي، أنا رجل بسيط، لست مؤمنا ولست كافرا، بل أنتمي إلى ملة تتخلّى عن حميرها وتختفي في الزحام" ما أن أكمل إسماعيل جملته حتى ولّى هاربا، تاركا حماره وراءه، فعقدت الدهشة لسان القاضي.

لحسن الحظ، كان تكريز الحب من الأمور القليلة غير المُحرّمة علينا في أيام السبت التي أوصانا الرب بتخصيصها للراحة من العمل، لكن تعاقب الاجتهادات عبر العصور واختلاف التفاسير تسببا بتعقيد الأمور حتى باتت أبسط الأفعال محظورة، فعلى سبيل المثال، كان تقطيع الأخشاب خلال يوم السبت محرّما، وبسبب ذلك وتجنّبا لتكسّر أغصان الأشجار تحت أقدامنا بالخطأ، تم منعنا من السير في الحديقة خشية اقترافنا خطيئة أو "أوون"، وعندما كنا نسأل عن معنى الخطيئة، كان الجواب يأتي بأنها فعل المحظور، أو "أسور"، وكمثال آخر، كان إيقاد النار لأغراض الطبخ أو الإضاءة يتطلب بذل جهد كبير في العصور

القديمة، ولذلك كان محرّما في الشاباث، لكن رجال الدين تكفّلوا بتعميم المنع وإصدار الفتاوى بعدم إنارة المصابيح الكهربائية أو استخدام الأفران رغم عدم منطقية ذلك، فهي أفعال في غاية اليسر، بل إن مجرد لمسنا النقود كان يعتبر حراما، وللقارئ تخيّل ما تضمّنته قائمة المحظورات الطويلة من فقرات عجيبة أخرى.

عندما رجعنا إلى القصر في عام 1919، مُنِع علينا العبث بأزرار المصابيح الكهربائية الجديدة في ليلة الشاباث التي تحل مع أفول الشمس في يوم الجمعة، ويستمر الحظر حتى غروبها في اليوم التالي، فكان علينا أن نطلب من شخص غير يهودي أن يطفئ المصابيح في دارنا بعد انتهائنا من تناول وجبة العشاء وقبل توجهنا للنوم، ونظرا لصعوبة العثور على شخص يقوم بتلك المهمة التافهة في منتصف الليل، كان أيسر لنا أن نتركها مضاءة حتى الصباح... استمر الحال كذلك حتى علمنا ذات يوم أن أحد رفاقنا قد تمكّن من إقناع والده أن تحريك الزر باستخدام طرف "القبقاب" ليس خطيئة، فوافق الأب ابنه في رأيه، وإن امتنع عن إتيان الفعل بنفسه من باب الحيطة، لكن الفكرة راقت للكثيرين الذين حذوا حذوهما، ثم صار بوسعنا نحن الأطفال أن نطفئ مصابيح غرفنا ونحن نتظاهر بنسيان أن اليوم هو الشاباث.

"أسور" آخر كان علينا أن نحاذر من الوقوع فيه هو تناول طعام غير كوشر أو "تريف"[11]، إذ كانوا يقولون لنا إن خطايانا ستُكتب على رقابنا من الخلف كي يراها العلي القدير، فلو تناولنا صنفا من اللحوم، وإن كان كوشرا، ثم أتبعناه قبل مرور ست ساعات بتناول أحد منتجات

الألبان، مثل قليل من الحليب المضاف إلى القهوة، نكون بذلك قد ارتكبنا خطيئة أو أوون تستوجب ظهور العلامة غير المرئية على رقابنا، ويتحتم علينا بذلك انتظار حلول يوم كيبور وصيامه على أمل أن يغفر لنا الرب، وهو ما كان يعتمد على كم خطايانا المُقترفة طيلة العام أو "أوونوث" ومدى فداحتها وصدق نوايانا في طلب محوها، أما العمل الصالح أو "المسوا"، فلا يظهر على رقابنا لسوء الحظ، لكن الرب ما كان ليغفل عنه، بل يطّلع عليه أيضا ويقوم بتسجيله في صحفنا، وكانت قائمة "المسوا" تشمل أفعالا كثيرة كإعطاء المال إلى الفقراء ورعاية المسنين وغيرها.

كانت جدتي تعتبر نفسها امرأة تقية، وحدث ذات مرة أنها عثرت على قطعة نقود مرمية على الأرض بعد إتمامها الصلاة في السبت، لكن لأن الإمساك بالمال كان من المحرّمات، فقامت بإخراج منديل من جيبها لالتقاط القطعة دون أن تلمس يدها، ثم دسّتها في شق في الجدار، وعادت كي تأخذها في اليوم التالي، وكان من المتعارف عليه أن من يعثر على أمر ما في الشارع لا يحتاج إلى إبلاغ الشرطة عنه، فإن لقي المرء غرضا ثمينا وشعر بتأنيب الضمير بشأن الاحتفاظ به، كل ما كان عليه فعله هو استشارة الحاخام، كما ورد في حكاية "يوسف".

"سيدي الحاخام، لقد عثرت على هذا الديك الجميل في طريقي، فهل بوسعي أن أحتفظ به؟" سأل يوسف.

"كلا يا بني!" أجابه الحاخام... "يجب عليك أولا أن تذهب إلى الساحة الرئيسية كي تعلن عن لقيتك بصوت عال لمرات ثلاث على

الأقل خشية أن يكون صاحب الديك ما زال يبحث عنه، فإن لم يأتِ إليك أحد، بإمكانك الاحتفاظ به".

فعل يوسف ما أُمِر به، وراح يصيح في الساحة الرئيسية: "هل أضاع أحدكم..."، ثم يهمهم بصوت خفيض: "ديكا؟"، وبطبيعة الحال، لم يفهم الموجودون ماهية ما عثر عليه يوسف، وصار الديك بذلك مِلكا له.

لم يكن عندنا في بغداد رجال دين مغالون كما هو الحال اليوم في أورشليم مثلا، إذ كنا مؤمنين أن من يغالي ويتطرف إنما يقوم بانتهاك قدسية الشاباث، ويؤدي تضييقه على الناس إلى خرقهم التعاليم وانصرافهم عنها.

كانت الجالية اليهودية في أيام جدي متمسكة بطاعة رجال الدين أو الرابانوت كما اعتاد الأسلاف أن يفعلوا، ويتكوّن الرابانوت من مجموعة من الحاخامات، أو "حاخاميم" يجيدون قراءة الكتاب المقدس باللغة العبرية ويتكفّلون بتفسيره لسائر المؤمنين، أما "الحاخام باشي"[12] أو رجل الدين الأكبر، فكان يتم اختياره كي يقوم بدور الناطق الرسمي للجالية وممثلها لدى الحكومة، وكان يقع على عاتقه أيضا أن يبقي أفراد الجالية على اختلاف مشاربهم متماسكين وموحّدين.

قام الرابانوت بتجزئة الوصايا العشر إلى مئات من الإرشادات الثانوية لترسيخ تعاليم الكتاب المقدس، وكان أبناء الجالية يعتمدون تفاسير الحاخامات ويثقون بها، فلم يكن ممكنا فهم النصوص القديمة دون مساعدتهم، غير أن استفاضتهم في الشرح كثيرا ما تسببت بتضييق الخناق على الناس.

مقـرّ الرابـانوت كـان مزدحمـا علـى الـدوام بطـالبي الفتـاوى والتوضـيحات حـول هـذه المسألة أو تلـك، فعلـى سبيل المثـال، كـان موشي رابينو (المعلم موسى) قد أوصانا بعدم طهي الحمل مع حليب أمه، لكن رجال الدين توسّعوا في تفسيراتهم عبر العصور إلى درجة أننا في بغداد كنا نمتنع عن استخدام أي من منتجات الألبان عند طبخ الحمل، بل شمل الحظر كافة أنواع اللحوم الأخرى التي لم يأتِ موسى على ذكرها مثل الأبقار والعجول وحتى الدجاج، وهكذا كان علينا أن ننتظر ست ساعات بعد أكلنا اللحم قبل أن يُسمح لنا بشرب الحليب أو تناول مشتقاته... نتج عن تلك الاجتهادات أننا كنا نحتفظ بطقمين من الأواني الفخارية وأدوات المائدة وقدور الطهي، احدهما لاستخدامه مع اللحوم والآخر مع منتجات الألبان، وطاقمين آخرين لموسم البيساح، فكانت مثل تلك التعقيدات تستنزف الكثير من الجهد والوقت.

اعتاد الحاخامات على تضمين توجيهاتهم في الخطبة التي كانوا يلقونها بعد انتهائنا من الصلاة في يوم السبت، لكن الأمر في حقيقته كان متروكا لكل فرد في اتباع وفعل ما يمليه عليه ضميره، علما أن معظم أبناء الجالية كانوا ملتزمين دينيا، كُلّا على طريقته ووفق فهمه الخاص للتعاليم.

كان بابا يحاذر الخروج إلى حديقة القصر خلال أيام السبت بحكم نشأته ودراسته الدينية، لكن عشقه للبستنة وتعليمه اللاحق في مدرسة الأليانس التي عُرفت بمناهجها الأكثر تسامحا وانفتاحا حسما الأمر

لصالحه في النهاية، خصوصا بعد أن تأمّل الموضوع بعقلانية، ووجد أن الرب لا يمكن أن يطالبنا بشيء تافه لا سند له ولا ذكر في الوصايا العشر... على أثر موافقة بابا على خروجنا إلى الحديقة، بتنا جميعا ننتظر قدوم الشابات كي نسعد فيه بلقاء الضيوف القادمين لزيارتنا مشيا على الأقدام لكيلومترات عدة، وتمضية أوقات ممتعة معهم في الهواء الطلق.

شغف بابا بالبستنة جعله يمضي وقتا طويلا في ممارستها وتعلّم قواعدها حتى امتلأت حديقتنا بشتى أنواع الفواكه والخضروات والزهور، بما في ذلك الأصناف الأكثر ندرة منها التي كان يستورد بذورها من الهند، تحديدا من شركة "بوكاس سيدز" التي يقع مقرها في مدينة "بونا"[(13)]، فكان يحرص على تفحّص الحديقة ونباتاتها يوميا عند عودته من العمل، ثم يقوم بإعطاء البستاني والعاملين معه إرشادات حول التشذيب والحفر وزراعة الشتلات الجديدة.

سرعان ما ذاعت بين الناس شهرة حديقتنا التي كان الجزء الأكبر منها يقع خلف البيت، مشرفا على النهر، فكان زائرونا يمرّون أولا بالعريشة التي تدلّت منها عناقيد شتى أنواع الأعناب، وكانت تمنحنا ظلا وافرا للاستلقاء تحته والاحتماء به من قسوة أشعة شمس الصيف، فيما تكفّلت شجيرات الغاردينيا المجاورة وزهورها العبقة بتعطير الأجواء بشذاها المنعش، أما خلال شهور الشتاء الباردة فكانت أغصان الكرمة الكثيفة تذوي ويصبح بذلك المكان مثاليا للتشمّس... كان يلي عريشتنا "المدربان"، وهو طريق طويل يمتد عبر الحديقة ويتسع لمرور ثلاثة

أشخاص، شُقّت السواقي على جانبيه ضمن منظومة دقيقة لري المزروعات بالماء الذي كان يُجلب من ضفة النهر بين يوم وآخر في دلاء هائلة الحجم يحملها ثوران، صعودا إلى الحديقة، وكان الثوران مربوطين مع بعض بحبل بطريقة تتيح لأحدهما أن يصل إلى قمة المنحدر، حيث يقوم صاحبهما بإفراغ محتوى الدلاء في مجرى الماء القريب، بينما يتولى مساعده في الأسفل تعبئة الماء في دلاء الثور الآخر، وهكذا دواليك، وأذكر أننا عندما كنا صغارا، كنا نجد متعة كبيرة في الخوض بأقدامنا الحافية في مياه السواقي الباردة في أيام القيظ.

زُرِعت أصناف عدة من أشجار الحمضيات على امتداد المدربان، بينما توزّعت أشجار الفواكه الأخرى خلفها، كالمشمش والخوخ والبرقوق والكرز والتوت والتين والرمان والتفاح والكمثرى، بالإضافة إلى النبق الأصفر والأحمر شهي المذاق والرائحة، وكذلك الموز الذي لم يكن معروفا بعد في العراق على نطاق واسع، كما ضمّت حديقتنا أشجار الجوز واللوز والبندق والفستق، وكانت الأخيرة أكثرها ندرة، أما الخضروات، فكانت تحتل رقعا عشوائية من التربة، وشملت الطماطم والخيار والباذنجان والفلفل الأخضر والشِجر أو الكوسة مع النعناع والزهور المختلفة كالبنفسج والزنابق البرية... تصميم الحديقة لم يكن متناظرا، إذ شغلت الزهور والخضروات المساحات بين أشجار الحمضيات التي توزّعت بدورها بين أشجار النخيل وفي ظلالها، فكنا نجد متعة عظيمة في التجوّل في أرجائها وقطف الثمار ذات المذاقات والملامس المتباينة، وكان يستهوينا منها نحن الصغار كل ما اخضر لونه ولم ينضج.

كان يتم جمع زهور أشجار البرتقال بعناية لاستخلاص "ماء القدّاح"[14] منها، أما ماء الورد فكان يصنع من أوراق الورد زهري اللون الذي زرعه بابا خصيصا لذلك الغرض، إذ كان يأتي إلى دارنا عبر النهر رجل مع عدة التقطير، ويتخذ له مقرا في الفضاء المفتوح بين المطبخ والحديقة، حيث يقوم جاسم وفطّوم وكل من أراد المشاركة معهم بسكب زهور البرتقال بحذر على مفرش كي لا تتكسّر، ثم توضع في الجهاز مع مقدار من الماء، وتبدأ عملية التسخين، فيتصاعد البخار من المزيج، ويتكثّف عند مروره في الأنبوب المرتبط بوعاء التقطير، ويتحول إلى قطرات تُجمع في قنانٍ خاصة، وتعاد العملية ذاتها للحصول على ماء الورد... خزيننا من السائلين العطريين كان وفيرا وكافيا لاستخدامه في الطبخ (لتنكيه المعجنات والحلويات)، بالإضافة إلى استعماله في الحمام.

كان المدربان ينتهي عند البوابة التي تفضي إلى الشارع حيث تسير حافلات صغيرة لنقل الركّاب من وإلى باب المعظّم في بغداد، ولم تكن هناك مواقف خاصة بالباصات على امتداد الطريق، فكان على الراغبين بالصعود أن يقوموا بالتلويح للسائق، أما الراغبين، بالنزول فكانوا يقولون له بصوت مسموع: "يمّك!" بمعنى: قف هنا!

سرعان ما صارت حديقتنا مطمعا للمارّين من الصبية، فاضطررنا إلى بناء سورٍ عالٍ من الآجر وضعنا فوقه قطع الزجاج المكسور، لكن ذلك لم يحل دون قيام اللصوص بتسلّقه وسرقة كل ما طالته أيديهم من ثمار، ولذلك لم يكن مسموحا لنا نحن الأطفال أن نمعن في السير نحو

أطراف الحديقة خشية أن يصادفنا أحدهم، وهو ما حدث معي ذات يوم، إذ وجدت نفسي وجها لوجه مع أحد المتسلّلين، وكان صبيا في العاشرة من عمره، في مثل سني حينها... حاول اللص التظاهر بالثبات أمامي وبأنه غير خائف حتى سألته: "ما الذي تفعله هنا؟" فأجاب: "أراد أبي أن يضربني فهربت منه واختبأت هنا"، ثم قال عندما لاحظت ما كان يحمل في يده: "وجدت حبات العنب هذه على الأرض تحت الشجرة"، لكن الحبل المربوط حول دشداشته كالحزام كي يتمكّن من طيها واستخدامها ككيس لتعبئة أكبر قدر من الثمار المسروقة فضح كذبه. حاولت استدراجه للذهاب إلى البوابة كي يقدم جاسم له المساعدة، لكنه أدرك حيلتي، واستطاع أن يعثر على منفذ في السور، فهرب عبره بخفة القرود.

كان جاسم دائم البحث عن النخلات الذاويات بغية شقها عند القمة، واستخراج قلبها الذي كان يطيب لنا أكله بسبب حلاوة مذاقه وصلابة قوامه المحبّبتين حتى إننا كنا نعده أحد أصناف الفاكهة، وكان جاسم يحظى بمساعدة عدد من العاملين الأجراء في مواسم تشذيب النخيل وجني الثمار، فكان بابا يحرص على مراقبتهم وهم يستعرضون مهاراتهم في تسلّق الجذوع السامقة دون عون من حبال أو مقاعد يستندون إليها، كما كان يروق له تجاذب أطراف الحديث معهم، والإصغاء إلى تجاربهم ورؤاهم غير المتكلّفة عن الحياة بشكل عام.

أذكر هنا أن أحد العاملين كان يحمل اسم "عبد علي"، إذ شاءت الظروف أن أكون في الجوار واسترق السمع للحكاية التي رواها لبابا عن "طارق" الرجل الغني الذي عاش في زمن العصملي وعُرِف بتديّنه

الشديد، فكان يكثر من التسبيح والذكر والاستعاذة بالله من شر الشيطان الرجيم، لكن يبدو أن الأخير قد سئم من كثرة اللعن، وقرر أن يضع حدا له، خصوصا وأنه لم يتسبب بأذى لطارق الذي كان أثرى رجال قريته.

عزم الشيطان على أن يشغل تفكير طارق بأمر ثان، فتنكّر بهيئة حصان، واندس وسط الخيول في حظيرته، ثم راح يراقبه عن بعد ويتربص به حتى سنحت له الفرصة الذهبية أخيرا عندما أقام طارق الصلاة... لمح الشيطان وجود ماسورة تصريف فضلات قريبة، فزج بنفسه في داخلها ومضى يتدحرج ويهز أذنيه كي يغيظ طارق الذي قطع صلاته وفرك عينيه غير مُصدّق لما رآه، ثم شرع بالصراخ كالمجانين: "حصان! حصان! هناك حصان في الماسورة!".

هرع الناس إلى المكان لاستطلاع الأمر، فوجودا طارقا شاحبا ومرتجفا، يشير بإصبعه إلى الماسورة الفارغة، فيما غطى العرق الغزير وجهه، وراح يقسم بأغلظ الأيمان أنه رأى للتو حصانا يدخل في الماسورة ويهزّ أذنيه... عجز الحضور عن إقناع طارق باستحالة الأمر، ولم يُجد تمسّكه برأيه في جعلهم يصدقون أن حصانا يمكن أن يدخل في ماسورة لا يتجاوز قطرها سنتيمترات عشرة، فحاولت زوجته ووالداه وأبناؤه أن يثنوه عن ترديد مزاعمه التي جعلت منه أضحوكة لأهل القرية، لكنه بقي ثابتا على موقفه.

استدعت الأسرة طبيبا لفحص طارق، فأبلغهم أنه يعاني من حالة جنون مؤقت، وأن حرارة الجو ربما تسببت بإحداث ضرر في دماغه، ثم أوصاهم بإيداعه مشفى للأمراض العقلية.

تناوب الأقارب والأصدقاء على زيارة طارق في المشفى، وكان الطبيب المعالج يأتي إليه كل يوم كي يسأله عن الحصان في الماسورة، فكان جوابه يأتي مطابقا لما قاله في اليوم السابق حتى قرّر أحد أصدقائه المُقرّبين أن يتدخّل للمساعدة... "طارق، اسمعني جيدا! أنا أصدّق ما تقوله، لكنك تريد أن تخرج من دار المجانين هذه، أليس كذلك؟".

"نعم، أرجوك أن تخرجني من هنا، أنهم جميعا مجانين، ساعدني كي أخرج!".

"حسنا يا صديقي، لتفعل ما سأقوله لك إذًا، عندما يأتي الطبيب للحديث معك اليوم، عليك أن تنكر كل ما حدث، بل اسأله إن كان يمزح، فكيف يمكن لحصان أن يزج بنفسه في ماسورة؟".

اتبع طارق إرشادات صاحبه، وتم السماح له أخيرا بمغادرة المشفى، فعاد إلى مكان الواقعة كي يصلّي لله شكرا على نجاته من المحنة، لكنه وجد الشيطان بانتظاره على هيئة حصان يمرح في الماسورة ويهز أذنيه مشاكسا، فبدأ بالصراخ من جديد، ثم توقّف وتفكّر في عاقبة فعلته... ابتلع طارق ريقه وجلا قبل أن يمضي نحو فوهة الماسورة، ويقول: "أيها الشيطان اللعين، أعلم أنك مختبئ هنا، لكن من سيصدقني هذه المرة لو أبلغت عنك؟".

هوامش الرسالة السابعة

(1) مدينة ساحلية في بلجيكا، تضم أحد أهم موانئ أوروبا، وتعد مركزا تجاريا بارزا.

(2) طاولة الزهر والدومينو.

(3) "الكشيدة" و"الفينة" تسميتان شائعتان للطربوش في العراق.

(4) الكهرمان.

(5) السحر محرّم بشدة في الإسلام أيضا.

(6) تحية الصباح الشائعة بين العراقيين على اختلاف دياناتهم وطوائفهم، وهي منتشرة كذلك في كثير من البلدان العربية الأخرى.

(7) حفل يقام عند بلوغ الذكر اليهودي السن التي يصبح فيها مكلفا بأداء الواجبات الدينية كالصلاة مع الجماعة وسواها.

(8) دعاء على الحاسد بأن تُثقب عينه، بينما يقول البعض الآخر في معنى مماثل: "عين الحسود بيها عودا!".

(9) رئيس الاتحاد السوفيتي السابق بين عامي 1990 و1991... أدت سياسته الإصلاحية إلى انهيار النظام الشيوعي الحاكم.

(10) التاجر "شاؤول شعشوع" مالك "قصر شعشوع" المشار إليه.

(11) المفردة بالعبرية تعني "مُمزّق"، لكنها تستخدم فعليا لوسم كل طعام غير كوشر.

(12) "باشي" مفردة متداولة بكثرة باللغة التركية وتعني "القائد" أو "الكبير".

(13) ثاني أكبر مدن مقاطعة "ماهاراشترا" الواقعة في غرب الهند.

(14) تسمية أخرى في العراق لماء الزهر أو "مازهر" المعروف في بلاد الشام.

صورة بورتريه لفيوليت شمّاش خلال سنوات شبابها

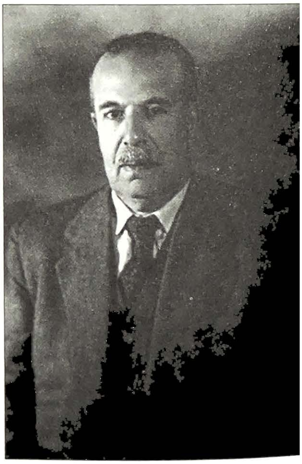

صورة والد فيوليت،
مناشي اسحيّق "بابا"

صورة "تانا" والدة فيوليت، أو "خاتون"
كما كان يناديها زوجها

קול ששון וקול שמחה קול חתן וקול כלה

נומרו ٧٨

גלד

בשם ה' נעשה ונצליח : בסימנא טבא ובמזלא יאה אורה וצהלה : לחתן ולכלה אביר

מצא	נס"ט	שוש
אשה מצא טוב ויפק רצון מה' : בית והון נחלת אבות . ומה' אשה משכלת אשתך כגפן פוריה בירכתי ביתך . בניך כשתילי זתים סביב לשלחנך	ובמזלה יאה אורה וצהלה : ויקר וגדולה לחתן ולכלה : ולכל ישראל עדה סגולה : יבים אידם בעין הדמלה : אמן נצח כלה	אשיש בה' תגל נפשי באלהי . כי הלבישני בגדי ישע מעיל צדקה יעטני כחתן יכהן פאר וככלה תעדה כליה . ברוך אתה בבואך

שני אלפים דינאר

בדפוס יהושע חיי שלמה ביבור : מכת בן פורת

صورة عقد زواج فيوليت وداود المسمّى "كتبّه"، وينص على أن قيمة المهر ألفا دينار

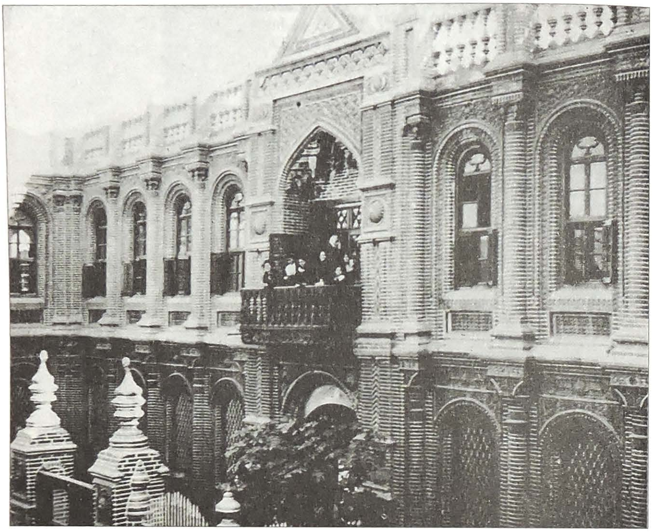

صورتان لمدرسة "الأليانس" في بغداد

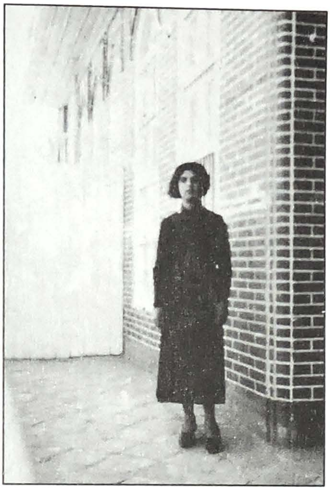

صورة فيوليت في محيط "القصر"

صورة خطوبة فيوليت وداود شمّاش،
التقطتها عدسة المصور الأرمني
العراقي الشهير "آرشاك"

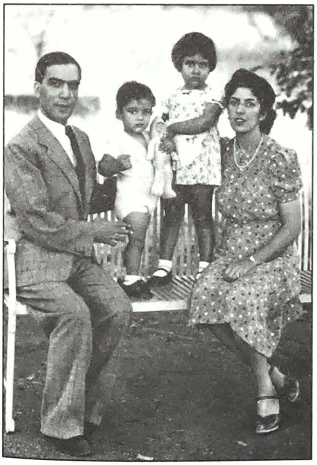

صورة العائلة في الهند،
بعد مرور عام على
مغادرة العراق

صورة فيوليت وهي ترتدي العباءة التقليدية خلال رحلة بالباص
خارج العاصمة

صوة تجمع بين صاحبة المذكرات،
وسلفتها وسميّتها "فيوليت" زوجة "هارون شمّاش"

صورة تخت "جالغي"، يظهر فيها من اليسار: عازف الايقاع "حسين عبد الله"، عازف القانون "يوسف زعرور"، المطرب الشهير "محمد القبانجي"، عازف العود "داود الكويتي"، عازف التشيلو "ابراهيم طقو"... وقوفا في الخلف: عازف الكمان "صالح الكويتي"، عازف الناي "يعقوب مراد العماري"

صورة فيوليت الجدة في فترة تدوين مذكّراتها

الرسالة الثامنة

الحب والزواج

الخاطب أو "الدلّال" كانَ هو الآخر من بين رواد "قهوة موشي" الذين اتخذوها مقرا لممارسة مهامهم، فالزواج المدبّر من قبل الأهل كان القاعدة المُتبعة في تلك الأيام، أما الحب والرومانسية، فمكانهما الأفلام والروايات... الأمر كان يبدو طبيعيا في ظل ثقافة حضّت الأطفال على تقبيل أيدي الآباء والأمهات كمظهر من مظاهر الخضوع والطاعة، ولذلك كانت شخصياتنا عند البلوغ تتسم بالخجل والانضباط والامتثال لأوامر الكبار حتى في ما يتعلّق باختيارنا شركاء الحياة.

اعتاد الدلال أن يقوم بعمله عن طريق احتكاكه بزبائن المقهى، وكانت العملية تسير وفق ضوابط متفق عليها وبمعونة عدد من الوسطاء، أما مهارة الدلالة، فكانت تتجلّى من خلال زياراتها للبيوت وقدرتها على الإقناع... كانت المفاوضات شبيهة بتلك التي تسبق عقد صفقة تجارية، وتقتضي مثلها كثيرا من المساومة، وكان دور الوسطاء هو ضمان توافق أسرتي العريسين المستقبليين، خصوصا في الحالات ذات الاشتراطات الصعبة التي لم يكن يتأهل لها سوى عدد محدود من المرشحين والمرشحات.

كما هو الحال في عملية الانتقاء الطبيعي، كانت المعايير مرتبطة بشكل رئيسي بوضع عائلة العريس، فآل "كوهين" الذين ينحدر نسلهم

من الكاهن الأعظم في المعبد الأصلي في أورشليم كانوا يبحثون لأبنائهم عن فتيات مطيعات كفوءات، ولم يكونوا يرضون قط بالزواج من أرامل أو مطلّقات، وكان يليهم في الرتبة آل "ليفي" وهم عائلة مرموقة، عمل أجدادها بمعية آل كوهين وكانوا يحظون باحترام مماثل لهم، أما آل "شمّاش"، فكان أسلافهم من العاملين في المعبد أيضا وتكفّلوا بالعناية به عبر العصور، لكنهم لم يكونوا يتمتعون بذات مكانة العائلتين الأوليين، كما عُرف عن أبنائهم التواضع والمباشرة في تعاملاتهم... وسم العوائل بصفات مرتبطة بتاريخ وإرث كل منها، وتعميمها على جميع أفرادها، كان أمرا شائعا ووسيلة معتمدة للتكهّن بنتائج المصاهرات بين الأسر حادّة الطباع وتلك المشهورة بالهدوء، أو بين العوائل لطيفة المعشر والفظة، أو سخيّة اليد والبخيلة، المتكبّرة والبسيطة، وأيضا الذكية والغبية، فكان واجبا على الدلّال أن يشرح للوالدين ميزات وعيوب الأسرة التي سيناسبانها، وكانت عائلتي التي حملت لقب "إسحيّق" (مشتق من "إسحق") معروفة بالعناد والفخر وحب المجادلة.

عكست أسماء العوائل في كثير من الأحيان معاني مرتبطة بمهن الأسلاف مثل آل "حايك" و"خيّاط" و"حكيم" و"صوفر"[1] و"مُعلّم" و"ديّان" و"ساعجي"[2] و"صرّاف"، وفي بعض الحالات كانت الألقاب تجنح نحو المشاكسة بإشارتها إلى ملمح جسدي مثل آل "طويل" أو "قصير"، لكن المحرج في الأمر كان أن يحمل المرء لقبا مثل "دعبول" وهو القصير السمين، أو "شحمون" وهو وافر الشحم، أو "الأعرج" أو "خرموش" وهو حامل الندوب، وكذلك صفات مثل "مدلّل" و"اليتيم"

وحتى "المجانين"، ويبقى اسم عائلة "دعس الجمل" من أغرب ما سمعت على الإطلاق... لم يكن الناس يأخذون معاني الألقاب على محمل الجد على أرض الواقع، وكانوا يجدون فيها بعض الطرافة.

جرت العادة أن تُحجب الفتاة التي تبلغ السن المتعارف عليه للزواج عن الأنظار في منزل والديها، وفي أوساط العوائل الثرية، كان المرشّح الأوفر حظا معروفا مسبقا، إذ كانت الأغلبية تركن في اختياراتها إلى اتباع الأصول وما هو متوافق عليه كالتزاوج بين أبناء العمومة من الدرجة الأولى والثانية وسواها، بالرغم من فارق العمر في بعض الأحيان، فصلة القربى كانت تُعدّ ضمانة لاحترام الرجل لعروسه وحفاظه عليها، وعدم معاملتها كأحد مقتنياته، وكان الطلاق نادر الوقوع حتى في حال حدوث خلاف بين الطرفين... كل ما كان بوسع الزوجة فعله عندما يسيئ زوجها إليها هو اللجوء إلى والدها والاحتكام إلى رأيه، وكثيرا ما كان الآباء يوصون بناتهن بالصبر والاحتمال، فعودة البنت إلى منزل والدها لم تكن مقبولة اجتماعيا.

الدلّالون والدلّالات كانوا يتواصلون سرا مع أهل الفتاة ويعرضون عليهم الأسماء المطروحة في سوق العرسان، ثم يناقشون معهم مؤهلات كل من المرشحين من خلفية اجتماعية وثروة وتوافق عمري ومظهر خارجي، ويلي ذلك النظر في أصل عائلته وعلاقاتها وسمعة أقاربه واحتمالية حصوله على إرث من والديه والمهر المُزمع تقديمه، أما المواصفات الأخرى مثل الذكاء ومستوى التعليم والمهارات الخاصة وحسن الأخلاق فكانت تزيد من حظوظ المتقدمين، لكنها لم

تكن تحظى بالأولوية عند اتخاذ القرارات بشأنهم.

مفاهيم الجمال السائدة في تلك الأيام كانت ترجّح كفة الفتاة ذات الشعر فاتح اللون والبشرة البيضاء كالحليب والعيون الزرقاء أو الرمادية، ولذلك لم يكن مستغربا أن تقوم والدة العريس بزيارة بيت عروس ابنها المستقبلية برفقة صديقاتها وقريباتها كي يقمن بتفحّص الفتاة عن قرب، بل والطلب منها أن تغسل وجهها أمامهن خشية أن تكون مساحيق التجميل قد أخفت عيبا ما فيه، وكذلك مراقبة طريقة مشيها للتأكّد من سلامتها من العرج أو أية علل أخرى، فقد كانت هناك حشرة خبيثة معروفة بلدغتها التي تترك تشويها ظاهرا على الوجه، أو ما يُسمى بـ "الأخت"[(3)]، وكان يُعتقد أن الأمر ذو علاقة بصنف دم المصابين... لحسن الحظ، لم تكن أسرتنا ممن استطابت الحشرة دماءهم.

كما في أية صفقة تجارية، كانت تلي المشاهدة المساومة على مبلغ المهر الذي يُعطى إلى العريس، وإن كان في حقيقته من مستحقات العروس، فإن وقع الطلاق بينهما أو مات الزوج مبكرا، كانت قيمة المهر تُدفع للزوجة قبل تسديد أية ديون أخرى مترتبة على المتوفي، وكان العرسان الأثرياء المتقدّمون في السن موضع ترحيب الآباء لأنهم يعفونهم من دفع المهور، وقد يحصل والد الفتاة بالإضافة إلى ذلك على مبلغ محترم من المال لنفسه... الاتفاقيات المالية كانت تدوّن تفصيليا في عقد الزواج المعروف بـ "كتبّه"[(4)] مع الأمور الأخرى المتعلقة بالضرر وتسوية الطلاق أو رغبة الفتاة أن تكون العصمة في يدها، أو حتى الاشتراط بإعادة المهر كاملا لو كان الزوج عاجزا.

وهكذا، كان الأمر متعلقا بشكل أساسي بتلبية رغبات الوالدين، وقد يحدث أن يُغرم الزوجان ببعضهما فيما بعد، لكنهما في معظم الأحيان كانا يعتادان على العيش سوية، اما اختلاط الفتيات والشباب في الأماكن العامة والنوادي الاجتماعية ونشوء علاقات صداقة بينهما قد تتطور لاحقا إلى حب يليه طلب مباركة الأهالي للارتباط، فلم يصبح مألوفا إلّا بعد مرور زمن طويل.

بيت العروس كان يتحول إلى خلية نحل قبل حفل الزفاف، وكانت الأمهات يبدأن التحضير للجهاز والمفارش المُطرّزة بالخيوط الذهبية منذ نعومة أظفار بناتهن، أما الإعلان عن الخبر السعيد، فكان يرافقه توزيع اللوز المغلّف بالسكّر[5] و"الحلقوم"، وهو صنف من الحلوى التركية... من التقاليد الأخرى كان صبغ أصابع العروس كاملة وأحد إصبعي العريس الصغيرين بالحناء، طلبا للفأل الحسن في حفلة "الحنّة" التي تُقام قبل يومين أو ثلاثة من موعد حفل الزفاف، ويُدعى إليها المقرّبون من أسرتي العروسين، وتُحييها جوقة الدقّاقة بالغناء والثناء على جمال العروس أو طيبة أبيها وقلبه الكبير، بالإضافة إلى ارتجال أغان تمتدح كرم الضيوف من ذوي المكانة المرموقة، فكان يتعين على الأخيرين منح شيء من المال للجوقة، إذ كان البقشيش الذي يُرمى على أفرادها خلال الحفلات مصدر رزقهم الوحيد.

في تلك الأثناء، كانت العروس تستقبل سرا في دارها زائرة من نوع خاص للقيام بمهمة نزع الشعر عن جسمها، وترك بشرتها ناعمة ملساء

استعدادا لليلة الموعودة، فكانت "الحفّافة" تؤدي عملها بإتقان حتى وإن تسببت بألم للفتاة بفعل تمرير خيط مفتول على جلدها لانتزاع الشعر منه... أما في منزل العريس، فالاستعدادات كانت تجري على قدم وساق أيضا للتحضير لحفلة وليلة الزفاف، خصوصا سرير الزوجية الذي يجب أن يكون قد تم تنجيده ونفش قطنه حديثا على يد النذّاف.

جرى العرف على أن يُقدّم المدعوون هداياهم للعروسين في الكنيس حيث تجري مراسم الزواج، ولم يكن الاحتفال يبدأ حتى الانتهاء منها تماما، وكانت عادة الفتيات في حفلات زفافهن أن يرتدين خلاخيل ذهبية سميكة أو "حجولة" مع ضفائر من الذهب تُجدل مع خصلات الشعر، كما كان حضور التخت الموسيقي المعروف بـ "الجالغي" ضروريا لإحياء الليلة بالأغاني الجميلة عن فضائل العروسين وأسرتيهما بمرافقة عزف الكمنجات وضرب الطبول التي يتردّد صداها في أرجاء فناء الدار.

الضجيج كان يستمر لما بعد مغادرة الزوجين وتوجّههما إلى غرفة نومهما، إذ كان يُعتقد أن إيقاع الطبول يعطي العريس ثقة بنفسه ويُحسّن من أدائه، وإن كانت الحقيقة عكس ذلك تماما، فالقرع المتواصل وصوت التخت الرجالي الذي يُسمع خارج الفناء ويصل إلى الحي بأكمله كان يذكّره بوجود جمهور في الخارج يترقّب، ولم يكن الغناء والعزف ينقطعان حتى ظهور الشرشف المبقّع بالدم الذي كان يتم التلويح به بزهو من الشرفة كدليل على فحولة العريس وعذرية العروس، ومن هنا جاءت تسمية "ليلة الدُخلة".

جدير بالذكر أن العملية لم تكن تجري بسلاسة دائما، فالمعلومات المرتبطة بها كانت تُحجب تماما عن الأحداث للحفاظ على عفّتهم، وبالتالي كانت الأغلبية منا لا تفقه شيئا مما يحدث بين العروسين في ليلة الزفاف حتى اللحظة الأخيرة، عندما يطلب الأهل من مرشد ومرشدة من الأقارب أو المعارف توضيح الأمور لكل من الطرفين، فينكشف بذلك المستور... الكبت الطويل كان يتسبّب أحيانا بأحداث غير سارة عند الممارسة الأولى تدفع ثمنه العروس الخجول، فكان الناس يتداولون قصصا عن تقطيع الملابس وتكسير الحلي، وكذلك استدعاء الأطباء في منتصف الليل.

بعد ظهور الإشارة، كان والد العريس يتكفّل بتوزيع البقشيش على أفراد التخت من أكياس معدّة مسبقا مليئة بقطع النقود المعدنية، وكان يجزل العطاء لهم عند ذكر أبنائه الآخرين، الأمر الذي جعلهم يحرصون على معرفة أسماء ذرية الأسرة قبل بدء الحفل لتحقيق أكبر قدر ممكن من الربح، يلي ذلك تمني الحظ السعيد للعزّاب من الحضور بالعثور على شريكات لحياتهم قريبا، وفي كثير من الأحيان كان الموسيقيون يعودون لتقديم وصلتهم الأخيرة عند شروق الشمس.

لكن تلك لم تكن آخر المراسم، ففي السبت الأول بعد الزفاف كان يتم استقبال الزائرات، فيما عُرِف بـ "سبت النسوان"، حيث تتوافد على الدار مئات من النساء المتلفّعات بالعباءات السوداء وهن يسدلن خُمرهن على وجوههن كي لا يتعرف على هويتهن أحد... في حقيقة الأمر، كن في معظمهن من الغريبات اللاتي دفعهن الفضول للحضور،

والفرجة على بيت الزوجية والعروس وهي جالسة فيه بكامل زينتها وحليّها.

لم نتحرّر من نير التقاليد القديمة البالية حتى عشرينيات القرن العشرين... لحسن الحظ، عندما بلغت وشقيقاتي السن المناسبة للزواج، استطعنا أن نفلت من تلك الممارسات المهينة.

تمت خطوبة شقيقتي الكبرى ريجينا عند بلوغها العشرين أو الحادية والعشرين من العمر، وكان ذلك بعد أن تعرّف بابا إلى خطيبها بالقرب من مكتبه، ولفت انتباهه بمظهره الجيد وخلفيته الاجتماعية المرموقة، إذ كان ينحدر من عائلة اليعازر خضوري مؤسس مدرستنا، كما كان لـ "روبن"، وهو اسم الخطيب مميّزات كثيرة، فبالإضافة إلى وسامته، كان قد تلقّى تعليمه في لندن، كما سبق له السفر إلى شنغهاي لزيارة أقارب له... جميع المؤشرات كانت تؤكّد أن مستقبلا باهرا كان بانتظار روبن، وهو ما جعله عريسا مثاليا لريجينا.

تحضرني هنا طرفة عن تسامرنا ذات ليلة صيف حارة على سطح منزلنا بعد أن انتهينا من تناول العشاء وأكل الرقّي المنعش الذي كنا نكثر من استهلاكه في الصيف ليس فقط بسبب وفرته، ولكن لأنه كان يروي عطشنا خلال القيظ، أضف إلى ذلك لهونا نحن الأطفال ببذوره الزلقة بعصرها بين أصابعنا ومراقبتها وهي تنطلق في الهواء... كنت في الحادية عشرة من عمري حينها، ورحت أمرح وأتنافس مع شقيقاتي الصغيرات في مسابقة حامية لقذف البذور لأبعد مسافة ممكنة مع الحرص على عدم

لفت انتباه الكبار إلينا، حتى انزلقت إحداها من بين أصابعي بالخطأ وأصابت الشاب الوسيم في جبهته، الأمر الذي أشعرني بالذعر، لكنني حاولت التماسك قدر استطاعتي والتظاهر بالبراءة وأنا أرقب روبن وبابا ونانا وريجينا وهم يتلفّتون حولهم حائرين، فصرت أتلفّت حولي أنا أيضا، وكذلك فعلت شقيقاتي الأخريات، ثم نظر روبن إلى السماء ففعلنا مثله، وعندما تساءل قائلا: "من أين يمكن أن تكون قد جاءت؟" ردّدت قوله وراءه كدليل على جهلي بهوية الفاعل: "من أين يمكن أن تكون قد جاءت؟".

دار حديث في البدء بين الأسرتين عن إقامة حفل الزفاف في قصرنا، لكن الرأي استقر أخيرا على مبنى المدرسة، فوُجهّت الدعاوى إلى عدد كبير من الناس، وتم تزيين المكان بسعف النخيل... كان علينا قطع المسافة الطويلة من القصر إلى المدرسة في عربانات، فتسبّبت حرارة الجو والغبار المتطاير بوصول العروس إلى الحفل في حال مزرٍ، ولم تكن تلك خيبة الأمل الوحيدة، إذ تبيّن لنا أن روبن لم يكن ثريا، وان علاقته باليعازر خضوري لم تكن تتجاوز القرابة البعيدة، لكنه كان رجلا طيب القلب، وعاشت ريجينا معه في بيت ضمّ أخاه الأكبر ووالدتهما وحماتها.

بعد زواج ريجينا، جاء الدور على شقيقتي نعيمة التي ارتبطت في عام 1925 برجل يُدعى "ساسون سوسة" من "الحلة"، وهي قرية[6] قريبة من موقع بابل الأثري، عاش فيها آل سوسة طيلة حياتهم، وكانوا يعتبرون من وجهائها... "موشي" والد ساسون كان قد توفي قبل عام من ذلك

التاريخ خلال خضوعه لعملية جراحية في القلب في فيينا وهو لما يزل في الثالثة والأربعين من العمر، وكان ساسون قد اضطر إلى ترك دراسته الطب في بيروت كي يقوم برعاية والده بسبب تردي حالة الأخير الصحية، فكان حاضرا بجواره عندما وافته المنية، ووقع عليه عبء إدارة شؤون الأسرة من بعده باعتباره أكبر أبنائها، رغم أنه كان في الثانية والعشرين من عمره، وكانت أعمال موشي متنوّعة، شملت تسويق محاصيل الحنطة والأرز والسمسم التي كانت تنتجها مزارعه في الحلة، بالإضافة إلى احتكاره توليد الطاقة الكهربائية فيها وتوفير قوالب الثلج لأهلها، فالثلّاجات المنزلية لم تكن معروفة في تلك الأيام، لكن أهم مسؤوليات ساسون كانت رعايته لوالدته وشقيقه الأصغر وشقيقاته الثلاث وتزويجهن.

أقيم حفل زفاف ساسون ونعيمة في الحلة حيث عاشا معا، وما زلت أذكر الحرائر البديعة التي شكّلت جزءا من جهاز شقيقتي، إذ كان بابا قد ابتاعها عن طريق تعاملاته مع شركة لاستيراد السلع الفاخرة في إنكلترا... الأمر الثاني الذي استقر في ذاكرتي عن ساسون كان خط يده الجميل، فكنت أجد متعة بمراقبته وهو يكتب.

كانت فهيمة الثالثة في التسلسل، وعُرفت بأنها الأجمل بين أخواتها، فتقدّم للزواج منها رجل وسيم أيضا يُدعى "يعقوب كارة"(7) وكان يكبرها بعشرين عاما... حضور العريس إلى بغداد من فلسطين حيث كان يقيم ويعمل كان لغرض محدّد هو البحث عن زوجة له من بنات جلدته، فوقع اختياره على فهيمة التي كانت في العشرين من عمرها، أي في مثل عمر

ريجينا عند زواجها، غير أن بابا أصرّ هذه المرة على إقامة حفل الزفاف في قصرنا، وتم تأجير باصات خاصة كي تقل المدعوين من المدينة.

بعد مرور فترة وجيزة على زواجهما، اصطحب يعقوب عروسه معه في رحلة طويلة إلى تل أبيب على متن حافلة لنقل المسافرين عبر بادية الشام... كانت تلك المرة الأولى التي تغادر فيها فهيمة العراق، فواجهتها مصاعب كثيرة في الاستقرار في مسكنها الجديد، كما عانت من عارض الحنين الجارف ليس فقط لأسرتها، ولكن أيضا لمجموعتها المُقرّبة من الصديقات اللاتي كن يعتبرنها قائدتهن، أضف إلى ذلك أن تل أبيب في عام 1931 كانت لا تزال بلدة صغيرة حديثة النشوء، إذ لم يكن مضى على تأسيسها سوى اثنان وعشرين عاما، الأمر الذي شكّل صدمة لشقيقتي التي عجزت عن التأقلم مع نمط حياة غريب عنها، فعوضا عن عيشها في قصر جميل واسع يعمل فيه عدد كبير من الخدم، وجدت نفسها وحيدة في شقة حديثة كان عليها تدبير أمرها فيها بلا معين، ولذلك لم يمضِ وقت طويل على وصول فهيمة إلى فلسطين حتى وصلت بابا برقية منها بالفرنسية (اللغة التي ما زلنا نتراسل بها حتى يومنا هذا)، مفادها: "أنا مريضة، احضروا!" بقلق بالغ، أعد بابا العدة للسفر إلى تل أبيب برفقة نانا وصغيرة الأسرة مارسيل، ثم استغل وجوده هناك، بعد الاطمئنان على ابنته، في القيام بجولة طويلة لوحده في أرجاء أوروبا، إذ آثرت نانا أن تبقى هي ومارسيل مع فهيمة، فزار بابا خلال رحلته عددا من الأقارب في سويسرا، كما عرج على باريس ولندن وبراغ وسواها من العواصم، ويبدو أنه عانى من تأنيب الضمير لابتعاده عنا، فعاد محمّلا بالهدايا وملابس وفق آخر صيحات

الموضة، ابتاعها لكل واحدة منا من متجر "غاليري لافاييت" الشهير في العاصمة الفرنسية، بما في ذلك معاطف فراء وعلب مجوهرات، حملت أغطيتها صورا لبرج "أيفل"، ما زلت أحتفظ وأعتزّ بها.

أخلف بابا وعده لي بإكمال دراستي في باريس، وربما كان السبب وراء ذلك خوفه من أن يفتح ذهابي الباب أمام رحيل المزيد من أبنائه، لكن إحدى صديقاتي تمكّنت من بلوغ غايتها، إذ كانت الابنة الوحيدة المدلّلة لوالدين بالغي الثراء، وكان أبوها محاميا مرموقا... لم تكتف أسرة صديقتي باجابة طلبها بالدراسة في باريس، بل رافقتها في الرحلة، وبقيت معها هناك لعام كامل، فلما عادت أخيرا، ذُهلنا لمرأى أزيائها الباريسية ونطقها للمفردات على طريقة أهل العاصمة الفرنسية بتحويل الراء إلى غين وكأنها تتغرغر بها، وصار كل ما يصدر عن أفواهنا يشنّف سمعها المرهف، فترد علينا بتعالٍ بالفرنسية: "عندنا في باريس، نقول ذلك بطريقة مختلفة!" أو "عندنا في باريس، نفعل هذا ولا نفعل ذاك!" حتى فاض بنا الكيل، وبدأنا بالسخرية من تكلّفها، وتقليد طريقتها في الحديث، وان كان رائجا في تلك الفترة بين أوساط المتعلمين الزج بالكلمات الفرنسية في الحوار للمفاخرة، فكانوا يقولون "نو" بدلا من "لا"، و"أو كونترير" بدلا من "بالعكس"، إلخ.

بعيدا عن المظاهر، تركت رحلة صديقتي إلى باريس أثرا واضحا علينا جميعا وكانت لها دلالة مهمة، إذ اعتادت الأجيال التي سبقتنا من الشابات (والشباب أيضا) العيش في ظلال الأهالي والانقياد لِمشيئاتهم في كل ما تعلق بالمستقبل ورسم ملامحه بما وافق الأعراف والتقاليد، فكان بديهيا أن يعمل الفتى مع والده عندما يكبر بصرف النظر عن ميوله

وقدراته الشخصية، وكلما ازدادت ثروة الأب استحكمت قبضته على مصائر أبنائه... كمثال على ما سبق، رفض بابا السماح لأخي سلمان بالسفر إلى الخارج لإكمال تعليمه، بالرغم من تفوّقه الدراسي، الأمر الذي طالما حيّرني وأثار تساؤلات في نفسي: هل كان بابا يخشى أن يتخذ سلمان تخصّصا مهنيا مختلفا في زمن كان الناس فيه ينظرون باحترام إلى حملة الشهادات، لكنهم كانوا يدركون أيضا بأنها لا تدر على أصحابها أرباحا وفيرة كما تفعل الأعمال الحرة؟ في النهاية، خضع سلمان لرغبة والده، والتحق بالعمل معه، فقام بابا بمكافئته ببناء قصر صغير له في موقع قريب من دارنا.

أشعرني غياب بابا ونانا في فلسطين وبقائي مع شقيقي وشقيقتي الصغرى ديزي بفراغ كبير وضيق، ولذلك توسّلت إليهما أن يسمحا لي بالسفر عندما وصلتنا برقية أخرى من فهيمة بعد مرور عامين، دعت فيها والديّ لموافاتها في تل أبيب للمرة الثانية، فوافقا على اصطحابنا أنا وديزي معهما.

سلكنا الطريق المعهود على متن حافلة تابعة لشركة "نيرن"، أقلّتنا إلى "الرُطبة" أولا، ومنها إلى سوريا حيث قمنا باستئجار سيارة تاكسي حملتنا إلى وجهتنا النهائية... كانت الجِمال وسواها من الدواب وسائط النقل المتاحة في الأزمان الماضية، إذ لم يكن الطريق عبر البادية قد شُقّ بعد، وكان المسافرون عرضة لشتى المخاطر من هبوب العواصف الرملية العاتية وغزوات البدو وسواها، فكان ذلك سببا للنجاح السريع الذي حالف باصات نيرن حتى صار اسم الشركة التي أسّسها أخوان من

نيوزلندا (قدما إلى العراق للخدمة في صفوف الجيش البريطاني) يتردّد على كل لسان لأنها أتاحت لنا فرصا لم تكن تخطر لأحد على بال، وبات بوسعنا السفر في زمن قصير نسبيا من بغداد إلى دمشق أو بيروت أو حيفا، وركوب القطار من هناك إلى مصر أو تركيا، أو ربما الإبحار على متن باخرة إلى أوروبا كما فعل بابا، أو حتى إلى أمريكا.

إقامتنا في فلسطين طالت لعامين من 1933 إلى 1934، بحث بابا ونانا خلالهما إمكانية استقرارنا الدائم هناك، لكن كل ما كان يعنيني وقتها أن استكشف الحياة في مجتمع منفتح أتاح لأفراده حرية لم آلفها من قبل، فقمنا أنا وديزي بالتسجيل في دورة لتعلّم اللغة الإنكليزية، وأخرى للعبرية، وثالثة للرقص، كما جرّبنا لأول مرة الخوض في مياه البحر، وكانت تلك مغامرة بحد ذاتها، ومؤشّرا على التغيير والانطلاق الذي تمتعنا به... كان الأمر مختلفا في بغداد، إذ اقتصر التطوّر على مواكبة بعض خطوط الموضة في أوروبا، فتخلّت النساء عن لبس الحُجُب أولا، وتلا ذلك انسحاب العباءات تدريجيا من المشهد السائد، ثم اختفاؤها كي تحل محلها الأزياء الغربية، وإن بقي انتشار الأخيرة مقصورا على العاصمة، فكان علينا الالتزام بتقاليد اللباس القديمة عند خروجنا إلى القرى والضواحي.

ما لمسه جيلي من تحرّر من قيود العادات والأعراف كان مذهلا، فقبل ولادتي كانت النساء ممنوعات من خلع جواربهن السميكة حتى وهن في داخل بيوتهن خلال أيام الصيف الحارة، وكان الحظر صارما شاملا لا استثناء فيه لمسنات أو سواهن، وها نحن بعد جيل واحد فقط نسبح في البحر في فلسطين على مرأى من الجميع!

أعطى قدوم البريطانيين إلى العراق إبّان الحرب العالمية الأولى والعثور على خزين هائل من النفط في أراضيه زخما متسارعا لحركة التحديث في البلاد، فشهدت بغداد افتتاح عدد من النوادي الاجتماعية التي باتت ملتقيات مُفضّلة للأصدقاء، مثل "الرشيد" و"الزوراء" و"الرافدين" ولاحقا "لورا خضوري"... للأسف، لم تكن الفرص تسنح لنا كثيرا أنا وشقيقاتي للمشاركة في تلك الاجتماعات بسبب بعد قصرنا عن المدينة، ولذلك كان تواجدنا في أماكن تتيح الاختلاط بين الجنسين خلال سنتي إقامتنا في فلسطين مثار سعادة غامرة لي ولديزي، خصوصا وأن عددا من الشباب بدأوا بالتودّد لي، وكان بينهم أستاذ جامعي من روسيا، لكنني صددتهم جميعا، فلم أكن مستعدة للارتباط وقتها، أو أفكر في خوض علاقة عاطفية.

لم يكن بابا يعتبرني جميلة، وكان كثيرا ما يبدي قلقه إزاء الأمر، فيقول لي: "من سيرغب في الزواج منك وعيناك بالغتا الاتساع هكذا؟ ألا يمكنك أن تبقيهما نصف مغلقتين؟ لقد سمعت عن طبيب تجميل يستطيع جعلهما أصغر!"... لحسن الحظ أن بابا ونانا كانا قد أتمّا تزويج نصف بناتهما، ولذلك لم يكونا مستعجلين لرحيلي بعد أن صرت عونا لهما في الدار، ثم ازداد تقديرهما لوجودي اثر شغفي بالخياطة خلال إقامتنا في فلسطين، والتحاقي بدورة لتعلمها وإتقاني لها حتى بتّ قادرة على صناعة حمالات صدر ذات مواصفات حديثة، فالحمّالات السائدة في تلك الأيام كانت تقوم بتسطيح الثديين عوضا عن إبرازهما، لذلك عُدّت خياطتي لحمالات وفق النمط الجديد إنجازا، خصوصا وإني كنت من ذوات الصدور الكبيرة.

على الرغم من تقدّم عدد من الشباب لخطبتي في تلك الفترة كما علمت من بابا، لم يتم زواجي إلّا بعد مرور زمن طويل، وكان من بين المُرشّحين اخ روبن الأصغر، وأيضا أشقاء زميلات دراستي، وكذلك أصدقاء سلمان.

كان رئيس المحكمة العليا في بغداد صديقا مقرّبا من والدي، وكان معتادا على زيارتنا في القصر برفقة أطفاله، إذ كان أرمل، فتوطّدت عرى الصداقة بيني وبين ابنته الكبرى التي كانت زميلة لي في المدرسة أيضا، وتعرّفت من خلالها على شقيقها، وأُعجبت به كثيرا، رغم أنه كان يصغرني بعام، لكني لمْ أرَ في ذلك عائقا أمام ارتباطنا، خصوصا وأن ذلك كان فارق السن بين نانا وبابا... بقيت أفكّر في الموضوع، وأمنّي نفسي بتمامه حتى دعاني بابا إليه ذات يوم كي يبلغني بأمر مهم للغاية، فشعرت بتسارع في دقات قلبي.

ما زلت أذكر شذا الياسمين الذي عبقت به حديقتنا، والخيبة التي شعرت بها عندما علمت أن رئيس المحكمة قد طلبني للزواج لنفسه وليس لأبنه، لكن يُحسب لبابا أنه لم يفرض رأيه عليّ كما اعتاد كثير من الآباء أن يفعلوا مع بناتهم، وترك لي حرية الاختيار، رغم أن صديقه كان يُعدّ مطمعا لكثير من الأسر، وكان اقتراني به سيرفع من شأننا في الأوساط الاجتماعية، لكنني لم أشعر بأي ميل نحوه بسبب فارق السن الكبير بيننا، كما لم يكن بوسعي تخيّل كارثة العيش تحت سقف واحد مع ابنه الذي جمعتني به مشاعر رومانسية... بين رغبتي بالزواج من الابن ورفضي لأبيه وحرصي على عدم خسارة صديقتي المقرّبة، أحسست

كمن سقطت في فخ، وبقيت صامتة، إذ لم يكن باستطاعتي البوح بما ماج في رأسي من أفكار، فأدرك بابا نفوري، ولعله كان متردّدا في قبول العرض، أو ربما لم يكن يريدني أن أغادر الدار، من يدري؟

قام بعد ذلك رجل يُدعى "أبراهام شاشوا" بمفاتحة والدي بشأن طلب يدي للزواج من شقيق زوجته "داود"، ودار بينهما حديث مطوّل حول مؤهلات العريس، وحالتيه المادية والاجتماعية، فتبيّن أنه شريك في أحد خانات البيع بالجملة للبضائع المستوردة، وإن علم بابا لاحقا أنه لم يكن يملك سوى نسبة ضئيلة من رأس المال، كما كانت لعائلته سمعة طيبة، لكنها كانت دوننا في المكانة الاجتماعية... تحفّظات بابا لم تحل دون استمرار المفاوضات بين الطرفين دون علمي حتى توصلا أخيرا إلى اتفاق حول قيمة المهر، فاستدعاني بابا إليه كي يطلعني على قرب إعلان خطوبتي من رجل لم يسبق لي أن التقيت به، ولم أكن أعرف شيئا عن شخصيته أو مظهره، كل ما علمته عنه أن اسمه كان داود.

ما حدث معي لم يكن مختلفا عن الطريقة التي تم بها تزويج شقيقاتي الأخريات، إذ كان بابا يبلغهن بالأمر بعد أن يستقر رأيه على العريس المناسب لكل منهن، لكن أكثر ما أسعدني في الموضوع كان تمكّني من الإفلات من رئيس المحكمة العليا، فكثيرات من زميلاتي في المدرسة كن قد زُوّجن من أصدقاء آبائهن.

تم توجيه الدعوة للعريس كي يقوم بزيارتنا في القصر مع والديه وقرابة دزينة من أفراد عائلته، كما ضمّت قائمة المدعوّين الكثير من

أقاربنا، وعلى رأسهم يمّة التي تقدمت في السن حتى كاد سمعها أن يذهب تماما، فكان علينا توضيح كل شيء لها بصوت عال.

أستقبل والداي الضيوف في الموعد المُحدّد، وشعرت بالرهبة عند دخولي الغرفة المزدحمة بالحاضرين، وكان أحدهم الرجل الذي سيصبح زوجي، لكنني عجزت عن تحديد هويته وسط كم الوجوه الغريبة التي أحاطت بي، وما زلت غير قادرة حتى اليوم على تسمية أصحابها أو إحصاء عددهم لشدة اضطرابي وقتها... كان بابا قد أبلغني بلطف أني لست مضطرة لقبول الزواج لو لم يرق لي شكل داود، لكن كلينا كان يعلم استحالة حدوث ذلك، فالأمر كان محسوما، والمدعوون جاءوا خصيصا لحضور حفل خطوبتنا.

لم يتم تقديمي للضيوف الذين تعرّفوا عليّ فورا، لكن الأمر لم يكن بذات السهولة بالنسبة لي، فرحت أبحث بعيني عن العريس في المكان الواسع المكتظ حتى استنتجت تدريجيا أنه الأصغر سنا بين الغرباء الواقفين، بالرغم من أنه كان في الخامسة والثلاثين من العمر... بدأت المراسم بإلقاء خطبة مطوّلة بحضور المسجّل الخاص بالجالية أو "المقدّش" الذي تلا علينا دعاء البراخا أو البركة، فصرنا بذلك مخطوبين، وكان ظاهرا انبهار داود بما رآه من بهاء عروسه، وفخامة دارنا ونمط حياتنا، كما لا أنكر إعجابي به أنا أيضا، إذ بدا لي لطيفا ووسيما، وهكذا، بينما جلس الضيوف القادمون من مسافات بعيدة يتسامرون، دعاني خطيبي إلى التمشّي لوحدنا في الحديقة لبعض الوقت، ثم غادر مع الحضور عند عودتنا.

جاءنا داود زائرا في اليوم التالي، فقدّمنا له الشاي (قال لي فيما بعد أنه لم يرق له لأنه يفضل الشاي الداكن ذا النكهة القوية، بينما كان شاينا ضعيف اللون والمذاق)، ثم دعاني إلى مرافقته إلى بغداد لالتقاط صورة لنا في ستوديو "أرشاك"، أشهر مصوّري العاصمة حينها.

رحنا نتجاذب أطراف الحديث خلال الطريق عن خططنا للمستقبل وبيت الزوجية، فشعرت للمرة الأولى بحريتي وقدرتي على أخذ قرارات مهمة مع شريك حياتي القادمة... وهكذا، بعد شهرين من التحضيرات المتواصلة، أقيم حفل زفافنا في عام 1937 في نادي الرشيد الواقع في منطقة الباب الشرقي، وأذكر أن بابا أهدى ساعة يد ذهبية رائعة ليلتها لأبراهام الذي كان واسطة التعارف بين أسرتينا على سبيل الامتنان، قام الأخير بمنحها لأبنه البكر "مارسيل" الذي كان في العاشرة من العمر وعُرف بشغفه للاستكشاف، فما كان منه إلا أن أحضر مفكّا وشرع بتفكيكها حتى استحال تجميع أجزائها مرة أخرى، ولذلك لم يكن مُستغربا أن يصبح مارسيل مهندسا بارعا بعد مرور سنوات عدة على تلك الواقعة.

عقد زواجنا المعروف بالـ "كتبّه" نص على أن مقدار المهر ألفا دينار، بما عادل ألفي جنيه إسترليني، ما عُدّ مبلغا ضخما في تلك الأيام التي شهدت إلغاء التعامل بالروبية، وحلول الدينار عوضا عنها كعملة محلية... حرص "هارون" شقيق داود الذي كان يعيش في أوروبا ويكبره بعشر سنوات على حضور حفل زفافنا، فأُعجِب بي عندما رآني وطلب مني أن أبحث له عن عروس مناسبة، وهو ما حدث بالفعل حيث

رشّحت له فتاة تدعى فيوليت أيضا، كانت إحدى ثلاث شقيقات عشن في البصرة، ومن الحكايات التي روتها لي فيوليت لاحقا أن سيدة مسيحية كانت تسكن الدار المقابلة لهم، سعت جاهدة لتزويج أحد أبنائها من إحدى الشقيقات بالرغم من صعوبة الأمر بسبب اختلاف ديانتي الأسرتين، لكن فيوليت كانت تخشى تحديدا أن يتم تزويجها من "طارق"، الأبن الأصغر البدين وقصير القامة الذي اتضح فيما بعد أنه لم يكن سوى "طارق عزيز" نائب رئيس مجلس الوزراء خلال حكم صدام حسين[8]. على أية حال، يبدو أن ترشيحي قد نال استحسان هارون الذي أهداني جهاز "راديوغرام"[9] كان آخر ما وصل الأسواق من وسائل الترفيه المنزلي.

قد يكون مجحفا بحق زوجي أن أقارنه ببابا الذي تلقّى تعليما متقدما وكان موسوعي المعارف، لكن داود تمتّع بموهبة فذّة على التعاطي مع الآخرين جعلته موضع حسد الكثيرين، رغم حقيقة عدم إكماله تحصيله الدراسي بسبب انتقاله مع والديه للعيش في البصرة التي كانت أول ما استولى البريطانيون عليه من مدن خلال الحرب العالمية الأولى، لكن حياة الأسرة في البصرة شهدت اضطرابات عدة، فقرّر والداه العودة إلى بغداد... استطاع داود حينها أن يجمع مقدارا من المال ابتاع به آلة عود، ثم تلقّى دروسا في العزف حتى أجاده تماما وصار بوسعه العمل كعازف محترف، إذ كانت أذنه موسيقية مرهفة، كما امتلك جاذبية شخصية، بالإضافة إلى صوت رخيم أعانه على أداء أغاني "عبد الوهاب"[10] الذي كان معشوق الفتيات في تلك الفترة. مواصفات داود

تلك جعلته يحظى بإعجاب واحترام الأصدقاء الذين أحاطوا به وتهافتوا على سماع عزفه وغنائه.

على الجانب الآخر، كان والد داود "شمعون" رجعي الفكر والسلوك، حتى أنه ظل يرتدي الزي القديم المكوّن من الزبون والعباءة والطربوش، ولم يستبدله بالبدلة العصرية إلا بعد إلحاح من ابنه بمناسبة زفافنا... كان شمعون معتادا على تمضية الأماسي في تدخين النركيلة، بينما تستقر على الطاولة بجواره نصف قنينة من العرق، كان يأتي على ما فيها في نهاية جلسته، لكنه لم يكن معجبا بقدرات داود الموسيقية، فوبّخه ذات يوم، قائلا: "هل تطمح أن تكون مهرّجا؟ ألم يحن الوقت كي تكف عن هذه الحماقة، وتضع عودك جانبا كي تلتحق بالعمل في التجارة؟" تأثر داود لسماع رأي أبيه فيه، وقرّر أن يكرّس وقته كاملا للتجارة، فتراجع شغفه بالعود والعزف عليه.

كان الوضع مختلفا في أسرتنا، إذ كنا نهوى الموسيقى وصوت العود الأساسي في تكوين فرق الجالغي، وطالما أطربتنا المعزوفات والأغاني التي كانت تبثّها محطة الإذاعة، وكان ذلك شأن كثير من الناس الذين حرصوا على سماعها في المقاهي والمناسبات العائلية والحفلات... بعد زواجنا، أوضح داود لي أن تخت الجالغي يضم بالإضافة إلى عازف العود عازفين لكل من الكمنجة و"الدمبك"[(11)] والقانون أو "السنطور" والدف، ولم تكن للأغاني دلالات يهودية بالضرورة، بل كانت كلماتها وألحانها تعبّر عن شتى العواطف وصنوف العشق.

هوامش الرسالة الثامنة

(1) الكاتب أو المدوّن، مشتقّة من مفردة "سِفر" في الكتاب المقدّس، وهي تسمية غير شائعة بين سائر العراقيين.

(2) بائع أو مُصلّح الساعات.

(3) تُعرف أيضا بـ "حبة بغداد" التي يُرى أثرها على وجوه كثير من المسنين، ويُعتقد بأن النوم على سطوح البيوت خلال شهور الصيف كان السبب الأبرز في انتشارها.

(4) باللغة اليديشية.

(5) يُعرف في العراق بـ "المصقول".

(6) اقتضى التوضيح أن "الحلة" مدينة، وليست قرية.

(7) يلفظ بالجيم غير المُعطّشة كما في لهجات أهل مصر واليمن، وهو لقب عائلة من يهود البصرة.

(8) من المرجّح حدوث التباس ما، فطارق عزيز كان طفلا بعمر سنة أو اثنتين في ذلك التاريخ.

(9) جهاز يجمع بين الراديو ولاعب الأسطوانات.

(10) المطرب والملحن المصري المعروف (1902-1991).

(11) الطبلة، وهي آلة الإيقاع.

الثلاثينيات

واكب نضجي كفتاة نمو وتطوّر العراق عقب اكتشاف خزين عظيم من النفط في الأراضي القريبة من كركوك في عام 1927، وحصول "شركة بترول العراق" التي سيطر البريطانيون عليها على حقوق التنقيب عنه واستخراجه بترخيص من الحكومة... المؤسف في الأمر أن تنوّعنا العرقي الذي كان يُفترض به أن يكون دافعا نحو اندماجنا وتكاملنا كشعب، تحوّل إلى عامل فرقة وشقاق بيننا، ففي الوقت الذي طالب الكثيرون فيه بخروج البريطانيين من البلد، كان رأي اليهود أن وجود القوة الاستعمارية يشكّل ضمانة للاستقرار، وأن لا خير يُرتجى من زعزعة الأمن وشيوع الفوضى، ولذلك جاء التوقيع على المعاهدة التي حصل العراق بموجبها على استقلاله في عام 1930 مع منح لندن امتيازات عسكرية فيه وسيطرتها على سياسته الخارجية بمثابة مخرج دبلوماسي أمثل من الأزمة.

بعد مرور عام واحد على انتهاء عهد الانتداب في عام 1932، توفي الملك فيصل[1]، ففقدت جاليتنا برحيله حاكما عطوفا، وخلفه على العرش ابنه "غازي" الذي كان يبلغ الحادية والعشرين من العمر ويفتقر إلى الخبرة، الأمر الذي عدّه كثيرون منا كارثيا، وعانى المسيحيون

الآثوريون من أسوأ تبعاته، إذ تم سحق تمرّدهم على السلطة بوحشية... لـم يُخفِ غـازي شغفه بـاللهو وباقتناء اللعب الغالية التي كـان يوليها اهتماما أكبر من إدارته شؤون البلاد، فأنشأ محطة إذاعة في قصره، وكان كثيرا ما يقوم بقراءة نشرة الأخبار فيها بنفسه، كما حرص على شراء أسطول من أحدث السيارات الأوروبية والأمريكية، لكن ما أثار قلقنا حقا كان محتوى البث الذي حمل بصمات ألمانيا النازية ودعايتها المعادية للسامية.

شهدت السنوات الثلاث الأولى من عهد الملك الجديد الكثير من التطوّرات، ومع حلول عام 1936 كان الوضع في فلسطين قد بلغ حد الغليان، فقام غازي بالتوقيع على معاهدة مع عدد من الدول العربية أكّد فيها سعيه لطرد البريطانيين، ثم تمادى في غيّه بالمجاهرة بإعجابه بهتلر وموسوليني وسط مخاوفنا المتزايدة، إذ تزامن صعود المد النازي مع وقوع اعتداءات استهدفت اليهود ومصالحهم، كان من بينها مقتل ثلاثة أشخاص في أحد شوارع بغداد، وفي العام التالي قام أحد القوميين بتفجير كنيس في يوم كيبور، كما تتابعت الانقلابات العسكرية التي رفعت جميعها شعار "إنقاذ فلسطين"، وأدّى غازي دورا بارزا فيها بالتنسيق مع تنظيم سري من ضباط الجيش العراقي، عُرِف باسم "المُربّع الذهبي" كناية عن رمز الماسونية المتكوّن من مربع وبوصلة[2]، وبات له عدد كبير من الأتباع من الضباط الذين سبقت لهم الخدمة ضمن صفوف الجيش العثماني.

لم يطل عهد غازي في الملك، إذ لقي حتفه على نحو مريع في عام 1939 إثر اصطدام سيارته الرياضية بعمود إضاءة، وبقي السبب وراء

الحادث لغزا، وإن اعتقد كثيرون أنه تم بتدبير من الاستخبارات البريطانية.

بلغ عدد سكان العراق في عام 1930 مليوني نسمة، استقرّ ثلاثمئة ألف منهم في بغداد حيث تمركزت أغلب الأقليات، وكان الاقتصاد في مجمله ريفيا معتمدا على فلاحة الأرض، وإنفاق العائد الضئيل من بيع المحاصيل على تلبية الاحتياجات الأساسية من طعام وكساء، إذ قلما كان المزارعون يزورون الأطباء لأن معظمهم لم يكونوا يملكون مالا كافيا لدفع أجور الفحص، بعكس ما كنا نظنه نحن سكان المدن من أن السبب هو طبيعة الحياة الصحية في القرى... طعام المزارعين وأسرهم كان بسيطا، مكونا بشكل رئيسي من الخبز المعروف بـ "الصمّون"[(3)] وكانت حصة الفرد البالغ منه رغيفين في وجبة الغداء مع قرابة كيلوغرام من التمر، وهو الفاكهة الأكثر وفرة والأرخص ثمنا وإشباعا، فشهية المزارعين كانت عارمة بسبب مشقة عملهم في الحقول، حتى أن واحد منهم كان بوسعه التهام عشر بيضات أو نصف كيلوغرام من اللحم في جلسة واحدة، لكن قلة فقط كانت قادرة على استهلاك منتجات الرفاهية تلك، رغم توفّرها بأسعار زهيدة نسبيا.

بحكم حياتنا المرتبطة بالمدينة، كنا على تواصل يومي مع المسلمين في بغداد، كما جمعت مودة خالصة بيننا وبين الأشخاص الذين كنا نلتقيهم خلال زياراتنا السنوية لقرية "الكفل" بالقرب من الحلة ضمن احتفالنا بعيد "شفوعوت"[(4)] في شهر أيار، وكان علينا قطع المسافة

الطويلة عبر طرق غير معبّدة مليئة بالغبار والمطبّات كي نصل في النهاية إلى ضريح النبي حزقيل أو حزقيال الذي آمن كثيرون بقدرته على إحداث المعجزات... تكفّل القرويون من المسلمين الذين كانوا يعيشون بجوار المرقد بمهمة العناية به، وكانوا يتطلّعون إلى موعد زيارتنا، إذ كنا نحمل لهم معنا هدايا عدّة.

العجلات في ذلك الوقت كانت مختلفة عما هي عليه اليوم، فكان طريقنا إلى الضريح يستغرق زمنا طويلة ويتخلّله إصلاح ثقوب عدة في الإطارات، ولم نكن نتنفس الصعداء إلا عندما نصل القرية الواقعة على ضفاف الفرات، لكن كل ما كان بوسعي رؤيته عند دخولي الضريح المظلم كان المرقد المغطّى بقماش مخملي سميك ذي لون داكن، وكانت التوجيهات المعطاة لي تنص على اقتفاء أثر الزائرين الآخرين وهم يطوفون حول القبر المرة تلو الأخرى، ثم تقبيل الضريح والدعاء همسا: "بارك بابا ونانا!"... عندما تنتهي الزيارة، يكون التعب قد نال مني وتشقّقت شفتاي، لكنني كنت أكتم ضيقي وألمي، وأباهي الجميع بإنجازي.

اعتادت جدتي يمّة أن تروي لنا تفاصيل زياراتها إلى الكفل عندما كانت في السادسة عشرة من العمر، إذ كانت تذهب برفقة بابا الذي بالكاد أتم عامه الأول، فتجلسه أمامها على ظهر الحمار طيلة الرحلة التي لم يكن يتخلّف عنها أحد من أفراد العائلة، بمن في ذلك حماتها والأشقاء وأبناء العمومة والأطفال، وكان الركب يتوقف عند كل قرية لنيل قسط من الراحة وشراء "القيمر" أو القشطة اللذيذة المصنوعة من

حليب الجاموس وتناولها مع الخبز الطازج، كما كان يرافق المسافرين شوحيط خاص كي يجنّبهم إثم أكل لحم مذبوح بطريقة غير شرعية، فكان يقوم بشواء الدواجن أو الحملان لوجبات العشاء على نار موقدة من الحطب... لم يفت جدتي أن تحكي لنا أيضا عن المسلمين من أهل القرى التي كانوا يمرون بها في طريقهم الطويل إلى الضريح، وتشيد بالاهتمام الذي أحاطوهم به على الدوام، بالإضافة إلى شهامتهم وكرم الضيافة المعروف عنهم، وملازمتهم القافلة خلال مبيتها في الكفل بلا مقابل، إذ لم يكن من اللائق منحهم المال نظير خدماتهم، فكان يُستعاض عنه بتقديم الهدايا لهم مثل الصنادل، أو أطوال من الأقمشة القطنية السادة أو المُطبّعة التي كانوا يخيطونها فساتين للعرائس الجدد.

ترجع سلالتنا (إسحيّق) في أصولها إلى "حلب" في سوريا، لكنها غادرتها في مطلع القرن الثامن عشر كما هو مدوّن في وثيقة شجرة العائلة التي ما زالت بحوزتي، والتي تنص كذلك على أن جدنا الأكبر (سحاق) كان قد قدم إلى بغداد ضمن حاشية الحاخام "صدقة" الذي قيل أنه كان في الأصل من "سالونيكا"(5)، المدينة التي آوت كثيرا من اليهود الفارين من ظلم محاكم التفتيش في إسبانيا خلال القرن السادس عشر... اتخذ أحفاد سحاق ألقابا عدة كانت كلها تنويعات على اسم الجد، بينما عُرِف الفرع الذي استقر في لندن باسم "ساسون" نسبة إلى الاسم الأول لجدي ساسون.

وفاة ساسون، وهو جدي لوالدتي، جاءت في ظروف استثنائية عام 1901، وكانت مثار حكايات عدة تناقلها أفراد العائلة وردّدوها أمامي

عندما كنت طفلة، إذ قيل أنه عانى من تجمّع المياه البيضاء في عينيه وسمع عن جرّاح في فيينا كان يجري عمليات لسحبها، فالعاصمة النمساوية كانت تعد مركزا لعلوم الطب في ذلك الزمن، لكن الرحلة الطويلة إليها كانت مغامرة غير مضمونة العواقب... عقد جدي العزم على السفر بالرغم من المشاق والمخاطر، واصطحب معه أكبر أبنائه "حزقيل"، فتوجّها أولا إلى "بور سعيد" في مصر، ثم استقلا باخرة أبحرت بهما نحو مارسيليا في فرنسا، حيث كانت الخطة أن يركبا القطار منها إلى وجهتهما النهائية.

لم يكن جدي قد أعدّ العدّة المناسبة للرحلة، كما غاب عن باله عدم وجود طعام كوشر على متن الباخرة، الأمر الذي لم يشكّل عائقا أمام باقي المسافرين من اليهود، فقاموا بأكل ما توفّر لهم من بيض مسلوق وجبن وخبز وما شابه ذلك، لكن كبرياء جدي منعته من الخضوع للأمر الواقع، ورفض تناول أية أطعمة غير الفواكه والخضروات، ما تسبّب بمرضه حتى قيل أنه مات جوعا، فلما رست الباخرة في الجزائر، ووري جسده الثرى فيها، ثم تكفّل أبناء أخوالي في عام 1952 بإقامة شاهد له في المقبرة، أما خالي حزقيل، فقد رجع وحيدا إلى بغداد، لكنه توفي بعد مرور سنوات تسع عندما ابتلعته مياة دجلة خلال سباحته في النهر.

لم يكن في بلاد الرافدين عند ولادتي صناعات تُذكر، ولم يكن هناك تصدير للفواكه إلى الخارج، ولا وجود لمزارع الدواجن أو المزارع التعاونية بطبيعة الحال، أما ظهور المروج الخضراء، فكان قصيرا في موسم

سقوط الأمطار في الشتاء، وكان الريف يتحوّل بعدها إلى أرض جرداء، خصوصا خلال فصل الصيف، إذ كان الري مقتصرا على الأراضي المحاذية للأنهار، كما كانت الماشية تُربّى وفق طرق بدائية للغاية.

من المشاكل التي واجهتنا في تلك الأيام كانت صعوبة حفظ الأطعمة سريعة التلف، فالمعروض من البيض الطازج في الأسواق كان قليلا، إذ كان أغلب الناس يفضّلون ترك البيض حتى يفقس للحصول على جيل جديد من الكتاكيت، وتربيته لإنتاج المزيد من البيض، ولغرض استهلاك لحومها أيضا، أما المزارعون الراغبون بالمتاجرة، فكان عليهم توفير وسيلة لنقل بضاعتهم من البيض الفائض عن الحاجة إلى بغداد كي يقوموا ببيعها هناك، وكانوا يلجأون إلى رصّها في "زمبيل" أو سلة حتى تمتلئ، ويصير بيعها مجتمعة مجديا من الناحية الاقتصادية، غير أن الزمبيل الدافئ كان يتحول في كثير من الأحيان إلى مفقسة، وبالإمكان تخيل العواقب الناتجة عن ذلك... أذكر هنا أن أحد أصدقاء أسرتي كان قد أخذ على عاتقه مهمة تجهيز البيض للجيش البريطاني، ويا لها من مهمة شاقة!

كان المسكين دائم الشكوى من صعوبة العثور على البيض الطازج، حتى أن الطهاة كانوا يقومون بكسر كل بيضة على حدة في كاسة خشية أن تكون فاسدة أو أن يخرج منها كتكوتا، فذات يوم، وبينما كان المُتعهّد يتبادل الحديث مع الضابط المسؤول عن تفتيش الوحدات البرية والبحرية والجوية، لمح بطرف عينه صوصا يتحرك في خلفية المستودع الذي كان يتم حفظ البيض فيه، وكاد قلبه أن يسقط بين رجليه

هلعا، لكنه تنفّس الصعداء عندما ارتسمت معالم السرور على وجه الضابط الذي بدا مستمتعا بالمشهد.

مع حلول العشرينيات، بدأت المتاجر الحديثة بالظهور في المدينة، بما في ذلك المخازن متعدّدة الأقسام التي كنا نعدّها من مظاهر الرفاهية، إذ كان متجر "أوروزدي باك"[6] قد افتتح فروعا له في العديد من عواصم الشرق الأوسط صارت سريعا وجهات مفضّلة للتبضّع لآلاف من الأسر، وكان للمتجر شعار مضحك يظهر فيه فيل وهو يقود درّاجة ذات ثلاث عجلات، لكن شهرته ذاعت بين سكان بغداد باعتباره المحل الأول والوحيد الذي اعتمد سياسة البيع وفق أسعار ثابتة محدّدة مسبقا، ولم يكن يتيح مجالا للمساومة، فكان على الزبائن الاختيار بين قبول عروضه أو رفضها، كما لا يمكن إغفال ذكر أن المتجر كان أول مبنى ضم مصعدا، وبات بذلك مثار دهشة وإعجاب الكثيرين... الشركة الأم التي أسّسها يهود أوروبيون كانت معروفة بجودة وفخامة بضائعها، الأمر الذي جعل الناس يقصدون متجرها في بغداد لتجهيز عرائسهم، وشراء هدايا الزفاف حيث كانت آخر خطوط الموضة ترد أولا بأول من أوروبا، فكان كأنه "هارودز"[7] زمانه، وكان روّاده يدركون أنهّم لن يتعرضوا للغش، وأنّهم سيحصلون فيه على أفضل قيمة مقابل الثمن المطلوب.

كل معروضات المتجر كانت فاخرة أنيقة، بدءا من أحذية "بالي"[8] ومرورا بمعاطف الكشمير والفساتين الحريرية الجاهزة والأقمشة المتنوّعة، بالإضافة إلى أطقم المائدة الخزفية، وأدوات الطعام الفضية، واللحف الحريرية المحشوّة بالريش، وكذلك الملابس الداخلية،

وألبسة الأطفال الجاهزة الفرنسية ماركة "بتيت باتو"... كان أوروزدي باك شبيها بالجنة، وحتى يومي هذا لا مذاق يضاهي في فمي طعم الحلويات والشوكولاتة التي كنا نبتاعها منه.

مع بدء تدفق عائدات بيع النفط في الثلاثينيات حقّق المجتمع قفزات هائلة نحو التحديث، فصار من المألوف أن تكون للدور مواسير لتصريف مياه الصرف الصحي وأنابيب لتوفير المياه النظيفة، كما تم تجهيز معظمها بالتيار الكهربائي، وشُقّت الطرق المُعبّدة التي حفّت جوانبها أعمدة الإضاءة، وتوفّرت كذلك خدمة النقل بالباصات إلى شارع الرشيد، وظهر عدد من سيارات الأجرة التي راحت تجوب أنحاء العاصمة مع سيارات الأهالي، ومُدّت خطوط الهاتف إلى بيوت الأسر الموسرة.

بدأت بغداد بالتوسّع على نحو متسارع، فشيّدت البيوت الحديثة في ضواحيها الجديدة حتى وصل العمران إلى حي الكرّادة، وانتشرت المقاهي والمطاعم على ضفتي النهر، وصار الناس يكثرون من السفر وبلغوا وجهات بعيدة للغاية مثل الولايات المتحدة، وتحضرني هنا قصة "سليم"، وهو جار سابق لنا من حي حنّوني ذهب لزيارة عمه في نيويورك، ثم روى لنا عند عودته كيف أن الناس هناك يعيشون في منازل مضغوطة كالعلب، يطلقون عليها تسمية "شقق"، وحكى سليم لوالده أنه عندما وصل إلى نيويورك ودخل شقة عمه، ظنّها لأول وهلة عليّة البيت، وسأله عن السبب وراء عدم استعمال سائر غرف الدار، فأجابه عمه: "هذه هي الدار!".

عم سليم كان قد ابتدأ حياته العملية ببيع الجوارب النسائية، ثم تمكّن فيما بعد من امتلاك مصنع حديث ينتج الآلاف منها... مشهد

وضجيج الماكنات التي تدار الواحدة منها بكبسة زر أثارا دهشة سليم الذي راح يراقب إحدى الآلات وهي تغزل الجوارب، بينما تقوم أخرى بفرزها في أزواج وتغليفها، وثالثة تتكفّل برصّ كل دزينة منها في علبة، وهكذا، لم يكن سليم يكف عن الحديث عن عجائب رحلته، وعن التقدّم في أمريكا وحداثتها وضخامة إنتاجها، وتزامنت عودته مع عرض فيلم "شارلي شابلن" "الأزمنة الحديثة"[9] في صالات السينما في بغداد، فكان ذلك دليلا على صدق روايته.

بعد رجوع سليم من الولايات المتحدة بفترة وجيزة جاء ابن عمه "جورج" إلى بغداد للبحث عن زوجة له، علما أن اسم جورج الأصلي كان "ناجي"، فتم حجز غرفة ذات إطلالة على نهر دجلة في أفخم فندق في العاصمة للشاب القادم من نيويورك، وذهب والد سليم كي يصطحب ابن أخيه لزيارة جده وجدته اللذين تقع دارهما على مبعدة عشرين دقيقة سيرا على الأقدام عبر أزقة المدينة القديمة... عندما دق والد سليم على الباب الذي حمل في وسطه نعلا عتيقا مثبتا بمسمار واستقرت على يمينه تعويذة الميزوزا، انفتح سريعا، ودخلا إلى ممر مظلم قادهما إلى الفناء الوسطي الذي كان خاليا، فبدت الدهشة على جورج الذي راح يتلفت حوله بحثا عمن فتح الباب لهما، فقال له عمه مداعبا: "ذلك الباب يعمل أوتوماتيكيا، أليس لديكم مثله في أمريكا؟".

شرع جورج يحصي في رأسه الملايين التي بإمكانه جنيها في نيويورك من وراء بيع ذلك الاختراع المدهش دون أن يلحظ الحبل المربوط بمزلاج الباب، والممتد على طول درابزين السلم، صعودا إلى

الطابق العلوي، حيث جلس جداه لمراقبة المارين في الزقاق كي يقوما بسحب الحبل، وفتح الباب عند وصولهما.

عفّ الزمن على حنّوني الذي لم يعد حيّا سكنيا راقيا، لكن حياتنا بقيت مرتبطة بالجزء القديم من المدينة حيث كنا نتسوّق بشكل يومي، فسوق الشورجة كان مقصدا لأرباب الأسر لتلبية احتياجات أهليهم، وكانوا يصطحبون معهم الطهاة أحيانا كي يقوموا بحمل المشتريات، أو يستأجرون عتّالين لنقل البضائع ذات الأوزان الثقيلة.

التجوّل في "سوق الخبز" كان بحد ذاته تجربة مُثيرة، فمشهد أفران خبز التنور المتوهّجة في صف واحد كان مدهشا، وكذلك مراقبة الخبّازين الواقفين عليها، وهم يقلّبون أقراص العجين بأيديهم بمهارة من يؤدّي عرضا بهلوانيا بالأطباق، فضلا عن رائحة الشواء المنبعثة التي كانت تداعب أنوف المارين بجوار المكان، وتجعل لعابهم يسيل شوقا لتذوّق الخبز الساخن... "سوق الصفافير"[(10)] كان يلي سوق الخبز، وكنا نشتري منه كافة قدور الطهي وأدوات المطبخ المعدنية، وكان معروفا بضجيجه الصادر عن طرق الحرفيين المتواصل على المعادن وتطويعها على أشكال القطع المطلوبة، أو إصلاحهم القطع القديمة المتضرّرة كي يمكن استخدامها من جديد، إذ كان الجميع يطهون طعامهم في قدور النحاس بعد طلاء دواخلها بطبقة رقيقة من القصدير لمنع تفاعل المعدن مع أحماض المأكولات، لكن طبقة القصدير كانت تزول بعد فترة، فيُعاد طلاؤها مرة أخرى، وهكذا دواليك.

كنت أجد متعة كبيرة في مراقبة الصفّارين وهم يعملون، بالرغم من صخب ضرباتهم المزعج للأذن، فالوميض المنبعث من سقوط أشعة الشمس على القدور ذهبية اللون وهي تتحرّك بين أيديهم كان بديعا، وعندما كانوا يقومون بتعليق القطع المنجزة، كان المكان يصير شبيها بمغارة علاء الدين.

السوقان كانا يُعدّان امتدادا لسوق حنّوني الواقع في قلب الحي اليهودي الذي يتوسّطه الكنيس الكبير، وأذكر أن السوق في حنّوني كان مُقسّما إلى أربعة أجزاء، خُصّص كل منها لبيع منتج بعينه كاللحوم والأسماك والدجاج، بالإضافة إلى الفواكه والخضروات والأجبان، ويا لتلك الروائح العبقة والألوان المتنوّعة للتوابل والأعشاب والثمار الطازجة، ويا لمذاق الحلويات الشهية كالبقلاوة والسمسمية والزنكولة![11]... ضم أحد تفرعات السوق محال الجزّارين حيث كانت تباع لحوم الحملان والأغنام بشكل رئيسي مع سائر أجزاء الذبائح، والقليل فقط من لحوم الأبقار، وفي موضع آخر كانت تباع الأسماك التي تم اصطيادها حديثا من النهر، وكان النوع المفضّل لدينا هو "الشبّوط"، أما الدجاج فكان معروضا في قسم ثالث، ويتم شراؤه حيا، ثم يؤخذ إلى الشوحيط كي يقوم بفحصه والتأكد من سلامته من العيوب قبل ذبحه، وكان الجزء الأخير من السوق مخصّصا لبيع الفواكه الموسمية والخضروات مع محال لبيع الأجبان التي كنّا نفضل منها الجبنة البيضاء الطرية، وأيضا اللبن الزبادي المُصفّى سميك القوام، والزبدة والقيمر.

كان توخّي الحذر ضروريا عند المرور بتلك الأزقّة المكتظّة، وإن كان من شبه المستحيل تجنّب دهس أقدام الآخرين عن طريق الخطأ، أو التعرض لدهسهم... يلجأ البريطانيون في مثل تلك الحالات إلى الاعتذار من بعضهم البعض بطريقة متحضّرة، لكن الأمر كان مختلفا معنا نحن أهالي بغداد، إذ كان رد الفعل المألوف بل والمقبول أيضا أن تصيح الضحية بالفاعل: "عمى!"، كما ضم قاموس إهاناتنا مفردات أشد وطأة على النفوس كذكر الدين بسوء أو التشكيك بالنسب، أما عبارات مثل "كلب ابن كلب" أو تلك التي تتناول الأمهات، فكانت كثيرا ما تتسبّب بشجارات دامية مع تسديد اللكمات والضرب بالرؤوس وتبادل المزيد من السباب مثل "وغد" أو "طفيلي" التي ربما تبدو مهذبة بمعايير هذه الأيام! جرت العادة أيضا عند نشوب الشجارات أن يسارع المارة بالحؤول بين الطرفين وتهدئة غضبهما، غير أن ذلك كان يتسبب في أحيان كثيرة بتأجيج الصراع أكثر، وقد يُستدرج إليه المزيد من الأطراف ويؤدي إلى وقوع خسائر وأضرار، لذلك كان اليهود والمسيحيون حريصين على الانسحاب بهدوء من المكان حال اندلاع العنف فيه.

من مظاهر التغيير الأخرى أن السينما أصبحت وسيلة الترفيه الأبرز لساكني المدينة، فكانت "الرافدين" الواقعة في وسط شارع الرشيد أفضل صالات العرض، وكنا شغوفين بمتابعة الأفلام الجديدة التي تركت أثرها الواضح على حياتنا عن طريق شرائنا ملابس شبيهة بأزياء الممثلين فيها من أوروزدي باك... كان للأفلام القدرة على جعل الكبار

يتابعون مشاهدها المتلاحقة مشدوهين كما لو كانوا أطفالا، وكانوا يُصدّقون الأحداث، بل ويندمجون فيها إلى درجة أن كثيرين كانوا يسارعون إلى نجدة البطل عند تعرّضه للخطر برمي القناني الفارغة على خصمه، الأمر الذي كان يتسبب بحدوث خروق في الشاشة، أما الأعمال الرومانسية مثل "غادة الكاميليا"[12] أو "تحت سطوح باريس"[13] فلم يكن مسموحا لنا نحن المراهقات بمشاهدتها، لكنني أذكر حماستي الشديدة عندما ذهبت في رحلة مدرسية لطالبات الصفوف المتقدمة لمشاهدة فيلم "كل شيء هادئ على الجبهة الغربية"[14]، وكذلك النجاح الكبير الذي حققه فيلم "رامونا"[15] والأغاني العاطفية التي تضمّنها، إذ كان بوسعنا متابعة كلماتها مترجمة إلى العربية على الشاشة، كما كانت أفلام شارلي شابلن و"لوريل وهاردي" محبوبة من الجميع.

شرع الشباب بتقليد نجومهم السينمائيين المفضلين عن طريق إطلاق شواربهم، وتصفيف ودهن شعورهم بمنتج البرليانتين على نمط "كلارك غيبل" و"همفري بوغارت" وأيضا مطربنا النجم محمد عبد الوهاب، كما انتشرت أجهزة الغرامافون على نحو كبير، وتمكّن مغنّو بغداد من الاستحواذ على إعجاب المستمعين بأنماطهم الموسيقية الحديثة، فكانت أغانيهم تتردّد بأصوات عالية في مقاهي الأرصفة بشكل مستمر، وكان داود يفضّل أغنية بعينها لـ "عزيز علي"[16] حملت عنوان "شوباش"، لم يكف عن الترنّم بها طيلة حياته... في تلك الأغنية، يشكو المطرب من حال ابنه شوباش[17] الذي عاد للتو من الدراسة في لندن، حاملا معه أفكارا جديدة، وراح يستهزئ بوالديه ويتمرّد على سلطتهما،

فيسخر الأب بالمقابل من مظهر ولده الشبيه بالغراب وهو يرتدي بدلته السوداء أوروبية الطراز، وثورته على التقاليد وسلوكه المُتصنّع.

المقارنة مع الغراب كانت ذات دلالة خاصة، فالعوام كانوا يرونه طائرا قبيح المظهر وجالبا للشؤم، شأنه في ذلك شأن البومة التي يُعد التشبيه بها إهانة، وكانت تُستخدم عندما يُراد القول بأن الشخص المعني قد أساء التصرّف كالبومة... أسوأ من ذلك كان وصف أحدهم بـ "الوبا" أو الوباء من باب الكراهية، فكان يُقال عندما يُرى مُقبلا: "جا الوبا!" وأفظع الجميع كان قولنا: "وجع!" تعبيرا عن الاستياء والضيق والمفاجآت غير السارة، وسواها من المُنغّصات.

لم يكن من السهل في مطلع القرن العشرين التفريق بين الرجال اليهود ونظرائهم من المسلمين لأول وهلة، فكلاهما كان يرتدي زيّا مكوّنا من عباءة فضفاضة فوق قميص طويل الأكمام مع سروال مزموم بحزام عريض عند الخصر، لكن الوضع تغيّر مع بداية الثلاثينيات حيث بات الرجال والنساء معا يفضّلون ارتداء الملابس الأوروبية، وإن حافظ الرجال من شتى الأديان على تقليد ارتداء الفينة على الرأس، وكان بعضهم يلجأون إلى العادة القديمة بلف عصبة طويلة من القماش حولها تُدعى "جتاية"، وأيا كان غطاء الرأس المستخدم كان من الضروري أن يكون مهندما، فإن كان مصنوعا من اللباد، تحتم إرساله إلى "أبو الفيوسة"[18] بين الفترة والأخرى كي يتم كيّه مثلما تفعل محال الغسيل الجاف في هذه الأيام، غير أن الخدمة كانت مقصورة على أغطية الرأس، وتجري بتثبيتها على قوالب نحاسية يتم تسخينها باستخدام موقد

نفطي... التماهي في المظهر مع المجموع منح رجالنا شعورا بالأمان، كما جنّبهم مخاطر التعرّض للمضايقة على أيدي بعض المتنمّرين.

كانت الفينة تُصنع عادة من اللباد الأحمر مع بطانة صلبة كي تعطيها قواما متماسكا ومظهرا أنيقا، خصوصا عندما تُلبس مائلة إلى الجانب، وكانت تتدلّى منها شرّابة سوداء كبيرة مثبتة في قمتها كما لو كانت منشّة ذباب، أما الصنف المصنوع بلا بطانة، فقد بقي مُستخدما في العراق بالرغم من حظره في تركيا باعتباره رمزا للعهد العثماني، ثم قام الملك فيصل بإصدار مرسوم باستبداله بالـ "سدارة" عشية إعلان الاستقلال في عام 1932 ضمن السعي لإيجاد هوية متفرّدة للبلد... غطاء الرأس الجديد الذي كان مصنوعا من اللباد الأسود واتخذ شكل القارب لم يرق لكثير من الرجال العرب الذين وجدوه غير لائق، ورفضوا ارتداءه في بادئ الأمر، بينما بقي اليهود والمسيحيون مذبذبين لوقت طويل، ولم يحسموا قرارهم بشأنه حتى نهاية الثلاثينيات عندما شاعت أغنية نظم كلماتها "المُلّا عبّود الكرخي"[19] بعنوان "يا حلو يابو السدارة"، فصعُب على الجميع بعدها مقاومة إغراء اعتمار السدائر.

عقد الثلاثينيات لم يكن مليئا فقط بالفكاهة والطرب، إذ لا يمكنني استرجاع أحداثه دون المرور على حالة الركود التي ضربت بغداد وكانت الأسوأ على الإطلاق، وإن سبقتها إرهاصات عدة، لكننا كنا معتادين على الحرص وعدم التبذير حتى في الظروف العادية، خصوصا في ما يتعلق بالأطعمة... أذكر العديد من الروايات التي تداولها الناس عن الموضوع، منها ما حدث لـ "إسماعيل" الذي كان راكبا حماره في

الريف عندما اشتد به الجوع والعطش ورأى كوخ راع، فترجّل عن ظهر دابته وحيّا صاحب الكوخ بلطف، ثم قال له: "أنا جائع عطش، وحماري كذلك، ولا أملك في جيبي سوى قطعة النقود هذه، فهل بوسعك مساعدتي؟".

"سوف أعطيك بطيخة حمراء مقابل نقودك كي تسد بها رمقك وتروي عطشك، وبوسعك أن تطعم حمارك قشرتها، ثم تقزقر بذورها خلال ترحالك"، أجابه الراعي.

كان يروق لبابا أيضا أن يروي لنا حكاية "أبي ناجي"، وهو رجل بلغ من العمر أوسطه وعُرِف بالشُح والتقتير الشديدين، فذات يوم وبينما كان يزور "أبي شاؤول" المعروف بحرصه على المال أيضا، جلس الصديقان في فناء دار الأخير لتبادل أطراف الحديث عن الحياة وشؤونها، واحتساء الشاي الذي أعده أبو شاؤول بإضافة الماء إلى ما تبقى من تفل في قعر الأبريق من اليوم السابق، ثم أحضر استكانين وسأل ضيفه: "قطعة سكر واحدة أم تفضّل الشاي بلا سكر؟"... سؤال الزائرين عن عدد محدد من قطع السكر التي يرغبون بإضافتها إلى الشاي لم يكن يُعدّ لائقا، لكنّ أبا ناجي لم يستأ، بل ابتسم إعجابا بمهارة صديقه، وعقد العزم على التفوّق عليه، فالمنافسة بينهما كانت حامية.

عندما حل الظلام، شرع أبو شاؤول بإيقاد شمعة ضئيلة القوام شبيهة بعود ثقاب، لكنّ أبا ناجي استوقفه قائلا: "لقد رأينا بعضنا كفاية، دعنا نوفّر الشمعة، ولنكمل حديثنا بدونها!"... لم يكن بوسع أبي شاؤول سوى أن يقر بالهدف الذي أحرزه أبو ناجي في مرماه.

حان أخيرا وقت مغادرة أبي ناجي بعد مرور ساعات استنفد الصديقان خلالها شتى مواضيع الحوار، فتحسّس أبو شاؤول جيبه بحثا عن عود ثقاب، لكن أبا ناجي قال له: "مهلا، دعني أرتدِ بنطالي أولا، إذ لم أجد داعيا لاستهلاكه طالما أن لا أحد يستطيع رؤيته!" فكانت تلك الضربة التي حسمت نتيجة المباراة النهائية لصالح أبي ناجي.

لو وضعنا المزاح جانبا، كانت بعض أحياء المدينة ترزح بالفعل تحت ضنك العيش وتعاني من فقر مدقع، ولقد عثرت بين أوراقي القديمة على موضوع إنشاء بقلم صديقة دراستي "ديزي"، رسمت فيه صورة معبّرة عن صعوبة الأوضاع في تلك الفترة، وكان النص جوابا على سؤال: "ما مقدار المال الذي ينفقه والداكِ عليكِ؟".

منذ ولادتي وحتى اليوم لم أرتدِ من الملابس سوى ما ضاق على شقيقتي الكبرى... أحذيتها التي تنتعلها الآن ذات كعوب عالية بعض الشيء، لكنها ستصبح مناسبة لي عندما تبلى قليلا، فأختي تكبرني بثمانية عشر شهرا، ولذلك تصبح كتبها المدرسية من حصتي بعد أن تنتفي حاجتها إليها، ودفاترها أيضا، وإن تحتّم عليّ محو كل ما كُتِب فيها كي تكون نظيفة وجاهزة للاستخدام لتأدية الفروض، علما أن كلتانا تدرس على نفقة الجالية، إذ لا يطيق والدانا دفع أجور المدرسة.

عندما أحسن التصرّف وأقوم برعاية أخي الأصغر، تكافئني والدتي بمنحي فلسا واحدا (مبلغ ضئيل جدا) *كي اشتري به حلوى الكركري. لا أستطيع أن أحصي عدد الفلسان التي حصلت عليها من أمي حتى الآن، فرعايتي لأخي تأتي في أوقات متفاوتة، وهي ليست عملا منتظما.*

لا تطهو أمي لنا من أصناف الطعام سوى الحساء الذي تسهل إضافة الماء إليه كي يكفي لإطعام ضيف زائر، لكنها تحرص على تقديم الحساء لوالدي قبل تخفيفه، أما في الصيف فنقوم بشراء "عِلبة لِبن" كل يوم، وهي حاوية خشبية مليئة باللبن الزبادي، تقوم أمي بإضافة رشة من الملح وكوب من الماء إليها، وتحرّك المزيج حتى يصبح قوامه قشديا، وتقدّم الشربة الأولى منه لأبي، ثم تكون الشربة التالية من حصة أخي الأكبر بعد إضافة كوب ثان من الماء ورشة ملح أخرى، وهكذا تستمر والدتي في إضافة الماء والملح حتى إذا جاء الدور عليّ للشرب، كان لون الخليط قد أصبح شاحبا وتحول طعمه إلى ماء مالح.

عند حلول الليل، نخلد جميعنا للنوم في غرفة واحدة على مرتبة رقيقة نفرشها على الأرض، ونقوم بلف معاطفنا كي نستخدمها كوسائد، وقد يبيت عندنا ضيف أو أكثر، فهناك دائما متسع لهم، وفي الصيف نلجأ إلى النوم على سطح الدار، مفترشين حصيرة صنعناها من خوص النخيل لكونها أبرد من المرتبة التي نحرص على الحفاظ عليها من التلف.

أحسنت ديزي التعبير عن معاناة الفقراء بأسلوبها اللمّاح، لكن المفارقة أن أسرتها كانت ميسورة الحال، ثم تزوجت فيما بعد وأنجبت أربعة من الأبناء، هاجرت معهم إلى إنكلترا في عام 1947... لقب عائلة صديقتي ديزي هو "ساعجي"[20].

هوامش الرسالة التاسعة

(1) الملك فيصل الأول (1883-1933).

(2) لم يتم العثور على سند آخر لزعم الاستيحاء من الرمز الماسوني، أما الاعتقاد الشائع بين العراقيين، فهو أن التسمية جاءت من عدد الضباط الأربعة المتأثّرين بالفكر النازي، وكانوا قادة الحركة/ التنظيم.

(3) "الصمّون" شائع في المدن أكثر من القرى التي ما زال أهلها يستهلكون أرغفة الخبز المسطّحة المخبوزة في التنور، أو "خبز العرب".

(4) يعرف أيضا بـ "عيد العنصرة"، وكان في الأصل مناسبة للاحتفال بموسم الحصاد، لكنه تحوّل لاحقا إلى عيد يحتفي بنزول التوراة على موسى.

(5) ثانية أكبر المدن اليونانية حاليا، وكانت إحدى ولايات الدولة العثمانية لغاية عام 1912.

(6) تأسّست الشركة في أواخر القرن التاسع عشر، وافتتحت أول محالها في العاصمة النمساوية، ثم توالى بعد ذلك افتتاح فروع لها في مدن الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، فكانت القاهرة أول العواصم العربية التي ضمت متجرا للشركة، وإن تم تغيير اسمه لاحقا إلى "عمر أفندي".

(7) المتجر الباذخ الأكثر شهرة في العاصمة البريطانية، تأسّس في عام 1849.

(8) شركة سويسرية معروفة عالميا بصناعة الأحذية الراقية، تأسّست في عام 1851.

(9) فيلم كوميدي صامت عن عصر المكننة وتأثيره على نمط حياة الفرد والمجتمع، أُنتج في عام 1936.

(10) ما زال السوق شاخصا ويعتبر من معالم بغداد الشهيرة، لكن لم يعد استخدام النحاس الأصفر (خليط النحاس والزنك) شائعا في أدوات المطبخ كما كان في السابق.

(11) صنف من الحلوى يصنع بقلي العجين السائل ثم إضافة العسل إليه، لكن التسمية المذكورة لم تعد متداولة.

(12) نشرت الرواية الفرنسية الشهيرة للمؤلف "الكسندر دوما" الأبن في عام 1848، وعرض أول الأفلام الفرنسية الناطقة المقتبسة عنها في عام 1934.

(13) فيلم فرنسي كوميدي موسيقي، أُنتج في عام 1930.

(14) فيلم ملحمي أمريكي مناهض للحرب، انتج في عام 1930.

(15) رواية للمؤلفة الأمريكية "هيلين هانت جاكسون" عن وقوع فتاة نصف هندية حمراء في الغرام، نشرت في عام 1884 وتم اقتباسها للسينما أكثر من مرة، كانت إحداها في عام 1936.

(16) مونولوجست وشاعر شعبي عراقي ساخر (1911-1998).

(17) عند مراجعة كلمات الأغنية/ المونولوج، تبين أن مفردة "شـوباش" تفيـد التعجّـب والاستنكار، وليست اسما للابن.

(18) لم يتم العثور على ذكر للتسمية في مصدر آخر.

(19) شاعر شعبي شهير (1861-1946).

(20) "ديـزي عـازر" زوجـة "ناثـان سـاعجي"، ووالـدة الأخـوين "تشـارلز" و"مـوريس" اللذين أسّسا في لندن عام 1970 واحدة من أكبر وأشهر وكالات الإعلان في العالم هي "Saatchi & Saatchi".

الثورة

ما شهدناه من تطوّر كان مذهلا، وجرى وفق إيقاع لاهث بالتزامن مع انهماكي في التأقلم مع حياتي وأسرتي الجديدتين ودائرة الأصدقاء والمعارف التي باتت تحيط بي... في خضم تلك الأحداث المتسارعة، كنت مُدركة للتحوّل الذي طرأ على موقف المسلمين منا، لكنه لم يشكّل مبعث قلق لي أو يهدّدني على نحو مباشر، وظننته أمرا طارئا لن يلبث أن يزول، فأقصى ما كان يمكن أن يحدث هو أن أضطر إلى التلفّع بالعباءة السوداء من جديد عند خروجي من دارنا، الأمر الذي لم يكن يخلو من بعض الفوائد مثل سهولة الاندماج في جموع السائرين وصعوبة تمييزنا عن الباقين، وكذلك درء نظرات الرجال الوقحة عنا، لكني لم أكن مُهيّأة على الإطلاق لمواجهة الانقلاب الجذري الذي أوشك على الوقوع، ولم يكن يخطر لي على بال أني سأضطر يوما للفرار من بيتي وبلدي.

شهدت ثلاثينيات القرن العشرين دخولي وأقراني مرحلة الشباب واتساع نطاق علاقاتنا، فبالإضافة إلى العديد من أبناء العمومة، صار لنا كثير من الأصدقاء من أبناء معارف والديّ ممن كانوا في أعمار مقاربة

لنا، وبات قصرنا مكان التجمّع المفضّل، حتى أن زهرة كانت تجاهد لصناعة كميات من السمبوسك تكفي لإطعام الزائرين.

اعتاد أصدقاؤنا على القدوم إلى دارنا دون سابق إخبار في البدء، ومع توفّر خدمة الاتصال الهاتفي، بات بوسعنا التحضير والإعداد للقاءاتنا التي كنا ندعو إليها الجميع، وكثيرا ما كنا نذهب في سفرة إلى الجزرة في وسط النهر بصحبة جهاز الغرامافون... في أيام صفائنا تلك، كنا نظن أن حياتنا ستمضي أبدا في مرح وهناء.

كان للجزرة حضور جميل في شتى مراحل عمرنا، إذ شكّلت بالنسبة لنا ملاذا كنا نلجأ إليه كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا، خصوصا وأن ظهورها كان مؤقتا ومرتبطا بانحسار ماء النهر، فيصبح بوسعنا عندها أن نبلغها سيرا على الأقدام، بينما كانت مياه دجلة تغمرها حتى تختفي تماما في موسم الفيضان في الربيع... أرض الجزرة كانت خصبة للغاية، وكانت تطرح شتى أصناف الخضروات التي لم يزرعها أحد وأنبتت من تلقاء نفسها، فكنا نشعر كما لو أننا في قطعة من الجنة، ونهرع لجني الخيار الذي كان يصدر صوتا مُحبّبا عند قضمنا إياه من فرط قرمشته.

كنت طفلة صغيرة حين ذهبت إلى الجزرة ذات نهار صيفي حار برفقة عمتي ومجموعة من الأصدقاء، فدُهشت لرؤية ساقي عمتي مكشوفتين، إذ شاعت بين النساء في تلك الأيام موضة ارتداء الجوارب بلون الجلد التي أطلق عليها الباعة تسمية "لحمي"... ظننت في بادئ الأمر أن عمتي كانت ترتدي زوجا منها، لكنها حسمت حيرتي بقولها:

"إنّه لحمي!" فضحكنا جميعا للمعنى المزدوج للكلمة، وتأكّدت أنها كانت عارية الساقين بالفعل.

في مناسبة أخرى، ذهبت ضمن مجموعة من ثماني فتيات إلى الجزرة، ثم تفاجأنا عندما حان وقت رجوعنا أن مستوى الماء في النهر قد ارتفع، وصار علينا الخوض فيه لبلوغ الضفة، فوقفنا في مكاننا خائفات لا ندري ما الذي يجب علينا فعله قبل أن يلمحنا رجل في قارب ويهبّ لنجدتنا... أعاننا الشاب الشهم على صعود قاربه عن طريق ثني ركبته التي وطئناها الواحدة تلو الأخرى، ثم جدف بنا في الماء حتى أوصلنا إلى دارنا حيث قمنا بتقديم الشكر له، وتشاء الأقدار بعد مرور سنوات على تلك الحادثة وزواجي من داود أن يعود ذات نهار إلى البيت برفقة صديق له لم يكن سوى الرجل الذي أنقذنا في قاربه، فما أن رأينا بعضنا حتى عقدت الدهشة لسانينا وبقي داود ينظر إلينا حائرا.

من جملة التغيرات التي طرأت على حياتنا كانت الرحلات التي صرنا ننظّمها لاستكشاف مناطق بعيدة عن أماكن سكنانا، فقمنا في إحدى المرات باستئجار باص حملنا إلى الحلّة لزيارة شقيقتي نعيمة... عندما أتأمّل الآن صور سفرتنا، تستوقفني كثافة الأشجار والمزروعات الظاهرة فيها، لكن الحقيقة هي أن الأرض كانت عطشى للغاية، ومليئة بالشقوق العميقة بعد انتهاء موسم المطر في الربيع، فقمنا بغمر ثمار البطيخ الأحمر في جدول قريب كي تبرد قليلا، ثم شربنا جميعا من مياهه حتى ارتوينا دون أن نرتاب في كونها ملوّثة أو احتمالية ألتقاطنا عدوى ما، وهو ما لم يحدث لحسن الحظ! وفي صور أخرى يظهر الأطفال

وهم يمتطون ظهور الخيل، وكذلك رفيقاتي وهن يحملن سلالا مليئة بثمار الفاكهة الطازجة التي قمن بقطفها، ونبدو جميعا مرتديات أزياء عصرية مواكبة لآخر صيحات الموضة.

شهدت تلك الفترة أيضا بدء استخدامنا لخطوط السكة الحديدية التي كان الألمان قد باشروا بمدّها في أواخر عهد الدولة العثمانية لربط بغداد بإسطنبول، ومن بعدها ببرلين عبر "قطار الشرق السريع"، ثم أكمل البريطانيون إنشاءها وتوسعتها جنوبا كي تشمل البصرة أيضا... أتاح لنا السفر بالقطار فرصة ثمينة للترحال خارج حدود العاصمة، بالإضافة إلى كونه تجربة ساحرة ومغامرة شيقة، فكنا نقوم في بعض الأحيان باستئجار عربة بأكملها كي تقلّنا إلى "خانقين" في الشمال الكردي حيث الجو البارد المنعش، أو إلى "سدّة الهندية"[1] للاستمتاع بمراقبة أسراب الطيور الغريبة المهاجرة وهي تحطّ للارتواء من مياهها العذبة، أو زيارة آثار بابل، أو الذهاب جنوبا إلى البصرة ذات القنوات المائية التي تنتشر على ضفافها القصور المشيدة والحدائق الوارفة حتى يخال المرء نفسه في مدينة "البندقية" الإيطالية.

كان "فيصل الثاني" طفلا في الرابعة من العمر عندما انتقل الحكم إليه بعد مقتل والده الملك غازي في عام 1939، فتم تعيين خاله "الأمير عبد الإله"[2] المعروف بولائه للبريطانيين وصيا عليه، لكن فرحنا باعتلاء الملك الجديد العرش عكّره قدوم مفتي القدس العام "الحاج أمين الحسيني"[3] الذي لجأ إلى العراق بعد أشاعته الفوضى في فلسطين، وقيادته لعمليات إرهابية فيها استهدفت اليهود والبريطانيين...

كان جليا للجميع أن المفتي سيتخذ من بغداد مقرا لاستئناف نشاطه التخريبي، ولذلك عُدّ وصوله نقطة تحول خطيرة في مسار الأحداث.

في تلك الأثناء كان قد مضى على زواجي عامان شهدا تغييرا شاملا في نمط حياتي، إذ قمنا أنا وداود باستثمار مبلغ المهر في شراء قطعة أرض في منطقة كان يجري تطويرها هي "بستان الخس"، وبدأنا ببناء دار لنا فيها، وكنا نسكن على مقربة من الموقع عند أهل داود في حي "الأورفلي"... رغم كونه الأصغر عمرا بين ثلاثة أشقاء من الذكور، وجب على داود وعليّ بصفتي زوجته القيام برعاية والديه، وهي مهمة تقع عادة على عاتق الابن الأكبر في الأسرة، لكن أخوي داود كانا يعيشان في الخارج وقتها، فكنت أجاهد لإنجاز أعمالي الكثيرة، خصوصا وأني حملت بعد الزواج مباشرة، وعانيت من نوبات الغثيان الصباحي، لكنني تأقلمت بسرعة على حياتي مع أسرة زوجي وشقيقاته الثلاث اللاتي كن يقمن على مقربة منا مع أزواجهن وأبنائهن، فلم تكن الحركة تهدأ في البيت بين مجيء زائر وذهاب آخر، ما تسبب في غياب الخصوصية، بالإضافة إلى عبء القيام بواجبات الضيافة، لكن انغماسنا في النشاطات الاجتماعية لمجموعة أصدقائنا الجدد، من تلبية دعوات عشاء وحضور حفلات موسيقى وارتياد النوادي، هوّن الأمر علي، وما أن أبصرت طفلتي الأولى "لينا" النور في شهر آب من عام 1938 حتى استحوذت على جلّ وقتي واهتمامي.

كانت لعائلة زوجي أعمال مزدهرة ومقرّ في قلب المركز التجاري في بغداد، حمل اسم "شمّاش أخوان" بالشراكة مع "ي. جوري وأخوته"

في خان مكوّن من طابقين ضمّا مخازن، ومكاتب محيطة بفناء وسطي، وكان يتم الدخول إليه عبر بوابة عريضة تتسع لمرور العربات المحمّلة بالبضائع، شأنه في ذلك شأن الخانات الأخرى في العاصمة التي سبق لي وصفها... اختصّت العائلة بتجارة الأقمشة المستوردة من إيطاليا وبلجيكا حيث كان يقيم شقيقا داود "هارون" و"غالي"، فكانت أطوال القماش تباع بالجملة إلى محال التجزئة، وكان على داود باعتباره أحد الشركاء أن يقوم بإنهاء الإجراءات الجمركية لها قبل وصولها إلى الخان، الأمر الذي كان يتطّلب الكثير من المساومات، إذ لم تكن هناك تعريفات محددة للبضائع، فكان داود يعتمد على مهاراته وجاذبية شخصيته في عملية التفاوض لتخفيض المبلغ المُستحق، بالإضافة إلى تقديم "البخشيش" في كثير من الأحيان.

كان الخان مزدحما على الدوام بالبضائع المختلفة بين قادمة ومغادرة، وكانت الإدارة تحتل الطابق العلوي منه، حيث اعتاد داود ووالده وشركاؤهما استقبال الزبائن وعقد الصفقات معهم بمعونة كاتب وسكرتير، أما أعمال التحميل والتفريغ، فكان يقوم بها أربعة من العتّالين الأكراد... الطابق الأرضي كان مكتظا بشتى أصناف الأقمشة الرجالية والنسائية، بالإضافة إلى الأقمشة المستخدمة في تنجيد الأثاث والمفارش المصنوعة من الحرير أو القطن أو الصوف، الرخيصة منها وكذلك النفيسة الغالية، فباستثناء أوروزدي باك الذي كان يقصده البغداديون للتبضع في مناسباتهم الخاصة، لم تكن في العاصمة محال لبيع الأزياء الجاهزة، وكان اللجوء إلى تفصيل الملابس خيارا شائعا،

وإن بدا مُستغربا في يومنا هذا، إذ كانت العملية تستغرق وقتا لا بأس به وتتم على مراحل، تبدأ أولاها بالتوجه إلى محال بيع الأقمشة لانتقاء ما يناسبنا من معروضاتها، ثم أخذ مقاسات الجسم من قبل الخيّاطة والاتفاق معها على التصميم المطلوب، يلي ذلك عادة القيام بعدد من التجارب قبل أن تصبح القطعة جاهزة كي نرتديها، ولحسن الحظ أننا لم نكن مضطرين للذهاب إلى الخيّاطة، فقد كانت الأخيرة تحضر إلى دارنا كلما احتجنا إلى خدماتها.

سرعان ما اندلعت الحرب في أوروبا(4)، وتمكّن شقيقا داود من النجاة بروحيهما بعد أن اضطرا إلى ترك كل ممتلكاتهما وراءهما، وعادا كي يعيشا معنا، لكن بغداد التي رجعا إليها كانت مختلفة عن المدينة التي أبصرا فيها النور وشهدت طفولتهما وصباهما، فمشاعر سكانها والمناخ السياسي برمته كانا قد بدآ بالميل بشكل خطير نحو الألمان.

الدار في حي الأورفلي كانت مؤجرة من أحد وجهاء المسلمين وكان قد وافق على تجديد العقد معنا، الأمر الذي أشعرنا بالطمأنينة والاستقرار، لكنه ما لبث أن رجع عن قراره وبعث إلينا تبليغا بإخلاء العقار خلال أيام ثلاثة فقط بلا سابق تنويه أو توضيح للأسباب، فاتجّهت نيتنا في البدء إلى الاعتراض، لكن حماي شمعون وهو رجل مسالم، توسّلنا أن نتجنّب المواجهة مع المالك في مثل تلك الظروف الحرجة وتردّد العديد من الأقاويل عن تشكيل عصابات مسلحة، ولذلك عندما جاءت شاحنة في اليوم التالي وأفرغت حمولتها من الصناديق أمام مدخل الدار، ظننا أنها كانت تضم بنادق، فأصابنا الهلع.

دارنا الجديدة كانت لا تزال في طور التشييد، وصاحب البيت الذي كنا نقيم فيه بدا مصمّما على إخراجنا منه، لكنه عاد وأرسل إلينا في المساء كي يبلغنا بوجود دار شاغرة قريبة أصغر حجما، تعود ملكيتها لابن عم له، وأعلمنا باستعداد الأخير لتأجيرها لنا مقابل مبلغ أكبر، فلم يكن أمامنا سوى القبول بالعرض، وأتممنا الانتقال في اليوم التالي.

لم نكد نستقر في البيت الجديد حتى وصل شقيقا زوجي قادمين من أوروبا، وكان هارون أول الواصلين، لكنه أمضى معنا زمنا قصيرا، إذ تمكن من العثور على سكن أنسب له، وانتقل سريعا للعيش فيه، ثم وصل غالي مع زوجته "لي لي" وابنتيه الصغيرتين، فأصبح في دارنا ثلاثة أطفال رضّع، وانعدمت بذلك فرصنا في الحصول على شيء من الخصوصية، كما تقلّص كثيرا هامش الحركة المتاح لكل منا، غير أن غالي كان قادرا على تطرية الأجواء في الدار بتقليده المتقن لموسوليني وطريقة كلامه وإيماءاته، فكان يجعلنا نستغرق في نوبات من الضحك... اعتبر ضيوفنا أنفسهم محظوظين بالنجاة من أتون الحرب والعودة سالمين إلى العراق رغم فقدانهم جميع ممتلكاتهم، لكن لي لي بدأت في التصرّف على نحو مستفز، وسعت لفرض مشيئتها على سائر أفراد العائلة دون التشاور مع أحد منهم، فكانت تعطي أوامرها للطاهي بخصوص أصناف الطعام التي ترغب بتناولها وأوقات تقديمها، حتى لو تعارض ذلك مع جدول وجباتنا المعتاد.

احتملت سلوك لي لي المزعج طويلا، لكن الكيل فاض بي ذات يوم، فانتهزت فرصة خروجهم، وقمت بتدبير مقلب لهم عن طريق

خياطة فتحات أكمام ملابس نومهم مع فتحات الأرجل، ثم استمتعت بمراقبة اضطرابهم بعد أن عادوا، دون أدنى شعور بالندم، غير أن لي لي خاصمتني على أثر تلك الحادثة ولم تعد تحادثني.

شعر داود بالحرج، واحتار بين واجب إبداء الاحترام لشقيقيه الأكبرين ورغبته في أن يلزم جانبي، فوعدني بأن يصطحبني معه في رحلة إلى البصرة خلال عطلة نهاية الأسبوع تعويضا عن شهر العسل الذي لم نحصل عليه بعد زفافنا، شرط أن أقوم بالاعتذار عن فعلتي... لم أتردّد في قبول العرض المغري، وقدّمت اعتذاري بالفعل، فاستقلينا القطار المتجه نحو الجنوب بعد أن تركنا لينا برفقة مربيتها تحت رعاية جدّيها، وأقمنا خلال سفرتنا في فندق "شط العرب" الأكثر فخامة في واحدة من غرفه الجميلة المطلة على المياه، وحصلنا على العديد من الهدايا الصغيرة، كما أمضينا وقتا رائعا في المدينة.

كان حتما أن تمتد عدوى المعارك المحتدمة في أوروبا إلينا في بغداد مع كم الأموال المبذولة والمنشورات والدعاية المُموّلة من قبل السفارة الألمانية، وقيام المفتي بتصعيد نبرة هجومه على البريطانيين، وتحريضه ضدنا عبر إثارة الشغب وتنظيم المظاهرات... رجل الدين العنيف كان قد جاهر باصطفافه مع "الرايخ الثالث"[5]، وطالب بالإجهاز على مشروع إنشاء دولة يهودية في فلسطين وتزويد العرب بالبنادق والأسلحة، ثم قام مع ضبّاط المربّع الذهبي بعقد صفقة سرية مع ألمانيا نصّت على أن تتكفّل الأخيرة بدعم العروبيين مقابل استحواذ هتلر على ثروة بلدنا النفطية بالكامل، وتسخيرها لتنفيذ مخططه بغزو روسيا.

تعاطف عامة المسلمين مع هتلر كان غير منطقي، فهم ليسوا من أبناء عرقه الآري، كما أن الألمان، شأنهم شأن البريطانيين، لم يكونوا من المؤمنين بالدين الإسلامي، ومع ذلك، تفاقمت تجاوزات بعض أهل بغداد من المسلمين بحق جاليتنا، وحلت كراهيتهم لنا محل الود والوئام، فبتنا نسمع في كل يوم أخبارا جديدة مُقلقة لم تكن الجرائد تأتي على ذكرها بسبب الرقابة المفروضة عليها، وصار الناس يقسمون بأغلظ الأيمان على الولاء لهتلر، وتقديم الدعم له في سعيه لمحو اليهود عن وجه الأرض... نتج عن ذلك اندلاع موجة من الاعتداءات ضد اليهود شملت اقتحام وسلب محالهم ودور الفقراء منهم، فبدأ رجالنا بالعودة إلى بيوتهم مبكّرين، إذ لم يعد مأمونا البقاء في الخارج لوقت متأخر.

أدرك أخوة داود أن فرص العمل باتت محدودة مع استمرار تدهور الأوضاع، فقرّر غالي ذات يوم أن يحزم حقائبه ويسافر إلى "بومباي"[(6)] لتجربة حظه فيها بعد سماعه عن ذهاب بعض البغداديين إليها، وتمكّنهم من جني الثروات. حاول غالي ولي لي إقناع شقيقاته برعاية ابنتيهما خلال فترة غيابهما دون جدوى، فجميع الشقيقات كن متزوجات ولديهن العديد من الأبناء، ولم يكن بوسعهن تحمل المزيد من الأعباء، الأمر الذي اضطر غالي إلى تقديم طلب للحصول على تأشيرات دخول لكافة أفراد أسرته، وسارعوا بالسفر بمجرد وصول الرد بالموافقة... قرار التوجه إلى الهند كان حكيما، إذ كانت للعائلة اتصالات عدة ومصالح تجارية في بومباي، كما أن حكم البريطانيين المعروف بـ "الراج البريطاني" كان قد أرسى دعائمه فيها.

وضع هارون كان حرجا إلى حد ما، فهو وزوجته فيوليت كانا ينتظران قدوم طفلهما الأول، وهو ما دفعهما للانتقال إلى دار أوسع في حي الأورفلي كما ذكرت، واصطحبا والديه كي يعيشا معهما، أما بالنسبة إلينا، فقد اكتمل بناء بيتنا الجديد أخيرا، وانتقلنا للسكن فيه.

تزايدت مخاوفنا بسبب التمييز والمضايقات المستمرة، وصارت حياتنا في بغداد أكثر صعوبة مع حلول عام 1941حتى أننا فكّرنا بجدّية في أن نحذو حذو غالي ونغادر العراق، لكن ثمة مشكلة عويصة واجهتنا، فبينما كان شقيقا داود قد تجاوزا سن التجنيد، كان عليه أداء خدمة العلم قبل حصوله على الوثائق التي تتيح له السفر إلى الخارج، إذ كان الالتحاق بالجيش في سن معينة واجبا على جميع الذكور من حاملي الجنسية العراقية، وكانت كثرة من الشباب تعتبره دليلا على الولاء للوطن، والاستعداد للدفاع عنه ضد عدوان البريطانيين.

رأى المسلمون في استمرار هيمنة بريطانيا غير المؤمنة على بلدهم تدخّلا سافرا في شأنهم، وتناسوا المنافع الكثيرة التي جلبها البريطانيون إلى العراق، وهو ما زاد من معاناة رئيس الوزراء الموالي لبريطانيا "نوري السعيد"[7] لإبقاء الوضع تحت السيطرة، ومنع زمام الأمور من الانفلات من يده مع اجتياح المظاهرات الغاضبة للشوارع، وترديد المشاركين فيها هتافات مثل "قدّم خطواتك يا رومل!"... أمسى وضعنا أكثر حراجة، فكل مسلم حمل في قلبه ضغينة ضد يهودي أو كان مدينا له بمبلغ من المال، صار بوسعه استغلال تأجّج مشاعر الغوغاء لتصفية حساباته معه، خصوصا وأن تنظيم المربع الذهبي مضى في استنساخه

الخطير للنموذج النازي عن طريق تجنيد الفتية الصغار في منظمة "الفتوّة" التي ماثلت في هيكليتها ولباس أعضائها الموّحد تنظيم "شبيبة هتلر"، كما تم تأسيس قوات مقاتِلة خاصة، وإطلاق تسمية "كتائب الشباب" عليها تأهبا لتحديد المفتي ساعة الصفر لانطلاق "الثورة الوطنية".

كانت الحكومة تعاني في تلك الفترة من الاضطراب بسبب توالي سقوط الوزارات، وعجزها عن صياغة موقف موّحد يخرج بالبلد من الأزمة، أما على المستوى الشخصي، فقد كنا نواجه معضلة أخرى بعد أن عقد داود العزم على الرحيل إلى الهند، علما أنه لم يسبق له أن غادر العراق... اتخذنا قرار المغادرة معا بعد مناقشات مستفيضة ودراسة لعواقبه المحتملة بمعزل عن عدم استقرار الوضع الراهن، إذ كان داود توّاقا إلى الخروج من عباءة شقيقيه وتأسيس تجارة خاصة به، أما بالنسبة إليّ، فكانت سنتا إقامتي في فلسطين وما تمتّعت به خلالهما من تحرّر وحصلت عليه من خبرات ماثلة في ذاكرتي، وجعلتني أتطّلع إلى حصولنا كأسرة على استقلاليتنا أيضا، الأمر الذي شجّع داود على المضي قدما في مسعاه، مستعينا بتجربتي السابقة في السفر وإجادتي لأكثر من لغة، لكن كان علينا أولا حلّ مشكلة التجنيد، ثم تجاوز عقبة أخرى هي رفض أهلنا الشديد لفكرة هجرتنا إلى المجهول مع طفلين، إذ كنت حاملا للمرة الثانية، وكان موعد ولادتي متوقعًا في شهر أيار، فقالوا لنا: "أنتما لا تتحدثان لغة أهل البلد، وسينفذ ما معكما من مال سريعا، وتضطرّان للعودة خاليي الوفاض".

خشيت أن ينجح أهلنا في ثني داود عن قراره، فلم يعد من الممكن تجاهل الخطر المحدق بنا مع تعالي الهتافات الشنيعة في الشوارع، وتصاعد حدة الخطاب التحريضي ضد اليهود ضمن برامج الإذاعة... صار همي الوحيد تدبير خروجنا من العراق، ولأجل ذلك، كان علينا إتمام مهمتين: أولاهما بيع دارنا وتصفية ممتلكاتنا، والأخرى حصولنا على وثائق السفر.

استمرت اعتراضات الأقارب على قرار الرحيل طيلة الأشهر التالية، لكن دادو قام بتقديم طلب إلى السلطات لإصدار جواز سفر له، ومنحه تأشيرة مغادرة... ألقى الموظف المسؤول نظرة عليه، ثم قرّر سريعا أنه لا يزال في سن التجنيد، فمازحه داود قائلا: "هلّا كتبت أني في سن أصغر من ذلك كي أعود بالمرة إلى مقاعد الدراسة!" في نهاية المقابلة بينهما، وعده الموظّف بالموافقة على طلبه لو استطاع إبراز شهادة ميلاد رسمية، أو وثيقة تثبت تجاوزه السن المحدّدة لأداء خدمة العلم.

واجه داود المولود في عام 1905 صعوبة جمّة في إقناع السلطات أن عمره الحقيقي أكبر مما دلّ عليه مظهره، وكان متوجّسا من أن يتم استدعاؤه إلى أداء الخدمة الإلزامية في أية لحظة في ظل شائعات عدّة تردّدت عن الموضوع، لكنّه تمكّن بمساعدة من معارفه وأصدقائه القدامى من استخراج جوازات سفر لنا جميعا بعد أن حصل على شهادة موقّعة من رئيس الطائفة اليهودية، نصّت على أنه من مواليد بغداد في عام 1900، وهكذا، ازداد عمر زوجي بين ليلة وضحاها خمس سنوات، وحصلنا أخيرا على ما كنا نصبو إليه.

مضت شهور حملي الأخيرة في قلق مستمر على داود وموقفه من الخدمة العسكرية، والمناخ العام الذي بات متوترا للغاية... أيقظني رنين جرس الهاتف من نومي في ساعة مبكرة ذات صباح، فهرعت لرفع السمّاعة وكاد قلبي أن يسقط في قدمي عندما سمعت صوتا رجاليا على الطرف الآخر، دلّت لهجته على كونه من مسلمي بغداد، وسألني بنبرة جافة: "هل هذا منزل داود شمّاش؟" عندما أجبت بنعم، قال: "ينبغي عليه أن يقوم بمراجعة مركز الشرطة على الفور بخصوص تجنيده في الجيش!".

داود! هل تحققت مخاوفي؟ لكنني استدركت بعد لحظات، وقلت: "أبو نسيم، دع عنك المزاح الثقيل، فحيلتُك لم تنطلِ عليّ، وما زال أمامك كثير من المران قبل أن تستطيع خداعي!"... لحسن الحظ، تمكّنت من التعرّف على صوت زوج شقيقة داود.

كان "أبو نسيم" مُدرّسا رصينا كأسلافه، ولذلك حملت عائلته لقب "المُعلّم"، بينما عُرِفت زوجته "روزا" بمرحها وميلها للدعابة، ويبدو أنها قد تمكّنت من التأثير على زوجها الجاد، ونقلت إليه بعضا من ملامح شخصيتها حتى صار يتمتع بحس الفكاهة هو الآخر، وكنا نتبادل تدبير المقالب فيما بيننا... كاد أبو نسيم أن ينال مني هذه المرة لولا أني كشفته في الوقت المناسب، فراح يقهقه، مُعترفا بهزيمته.

"لا تفعلها مرة ثانية أرجوك، لقد أصبتني بالرعب!" قلت له، ثم عقّبت مُحذّرة: "أخشى أنك لن تقوى على احتمال انتقامي إن كرّرت المحاولة".

"بكل سرور، سأكون بانتظار ردّك!" أجابني ضاحكا قبل أن ننتقل بحديثنا إلى شؤون أخرى.

شرعت على الفور في التخطيط لمقلبي القادم، لكن الفرصة جاءتني على طبق من ذهب عندما اتصلت بهم في ظهيرة ذلك اليوم لدعوتهم إلى لعب الـ "رومي"[8] في دارنا، فردّ عليّ أبو نسيم، قائلا: "أهلا فكتورين! كيف لي أن أخطئ صوتك اللطيف؟ كيف حالك، وكيف هو موشي؟".

أدركت عندها أن أبا نسيم لم يتعرّف عليّ، وظنني "فكتورين"، سيدة المجتمع المعروفة بنشاطها ودعواتها... *ها قد حانت لحظة الانتقام، فليقع في شر أعماله!*

"سنقيم أنا وأخي حفلا في دارنا هذا المساء، ويسعدنا حضورك مع العائلة"، قلت له، ثم أردفت: "لقد قام موشي بالاتفاق مع "صالح الكويتي"[9] (صاحب أشهر تخت جالغي في بغداد) كي يحيي الحفل، فهل ستستطيعون القدوم؟".

"بالطبع!" أجاب أبو نسيم مبتهجا، فمن ذا الذي يستطيع تفويت فرصة كتلك؟ كان "موشي" شابا عازبا يحتل منصبا كبيرا في دائرة الجمارك، وكانت والدته دائمة البحث عن عروس له تشبه "جون كراوفورد"[10]، كما كان صديقا مُقرّبا لداود.

انتظرت قليلا قبل التوجّه برفقة صغيرتي لينا إلى بيت أبي نسيم لمشاهدة نتيجة مقلبي، فبحكم سكننا في ذات الحي، كنا نتبادل الزيارات للدردشة أو لعب الطاولي، أو حتى الاستمتاع

بغناء داود وعزفه ألحان عبد الوهاب على العود.

لاحظت عند وصولي أن حال الأسرة قد انقلب رأسا على عقب، إذ هرع أفرادها للاستعداد للحدث المرتقب، فبلغني صوت أبي نسيم وهو يعطي أوامره: "أين الماء الساخن؟ أريد حلاقة ذقني!" علما أنه كان قد أتم حلاقتها في الصباح، ثم صرخ بالخادم الذي كان يقوم بكي ملابسه: "بسرعة، بسرعة! أريد قميصي الأبيض فورا!" سمعت أيضا صوت ابنته "هبّاوي" قادما من الطابق العلوي: "مامي، أيّ فستان أرتدي؟" أجابتها روزا: "الفستان الأحمر سيكون مناسبا".

مضى أبو نسيم يحلق ذقنه للمرة الثانية في الفناء حيث كنت جالسة، فسألته وأنا أتظاهر بالبراءة: "ما الذي يجري؟".

"لقد اتصلت بنا فكتورين كي تدعونا جميعا إلى حفل جالغي في دارهم، ألم توجّه الدعوة لكم أيضا؟".

"كلا، لم يقم بدعوتنا أحد".

"أمر غريب"، قال أبو نسيم وهو مستمر بالحلاقة.

شعرت بحجم الورطة التي أوقعت نفسي فيها، وبات الأمر محرجا، فخصمي لم يدرك بعد المقلب الذي تعرّض له.

"هل أستطيع استعمال الهاتف؟".

"بالتأكيد، تعلمين أنك لست بحاجة إلى الاستئذان".

قمت بالاتصال بداود في مقر عمله، وقلت له بصوت عال كي يسمعني كل الموجودين: "داود، أواجه مشكلة كبيرة... ويهُ ويه! يا لفعلتي الحمقاء، أرجوك أن تحضر إلى دار روزا بسرعة!" تمكّنت من

إثارة فضول الجميع الذين خشوا أن يكون قد أصابنا سوء.

"لا أستطيع أن أخبرك عبر الهاتف، تعال بسرعة!" أجبت داود عندما سألني عمّا حدث، ثم قلت له بعد أن لمحت أبا نسيم وهو يحاول أن يسترق السمع:

"حسنا، سأحكي لك عمّا جرى بيني وبين أبي نسيم منذ البداية، لقد دبّرت له مقلبا، ولا أدري كيف أخرج نفسي من هذا المأزق... أرجوك داود، احضر الآن، فالحرج يتملّكني!".

تغيّرت تعابير وجه أبي نسيم عندما أدرك خدعتي، وكان قد أتم حلاقة نصف ذقنه، فبدا كأنه خارج للتو من لوحة رسمها فنان ساخر، وبقي حاملا بيده الفرشة التي علتها رغوة الصابون، لا يدري أيكمل الحلاقة أم يتوقف، ثم انفجر ضاحكا، وقال: "حسنا، لقد وفّرت عليّ حلاقة ذقني في صباح الغد"... الروح الرياضية التي تمتّع بها أبو نسيم وحضور داود معي لاحقا أنقذاني من الموقف المحرج، فرحنا نقهقه لطرافته، ونسترجع مطبّات أخرى كان أبو نسيم وأفراد عائلته قد وقعوا فيها في السابق، وحتى اليوم، لا أستطيع تمالك نفسي عن الضحك كلّما تذكّرت تلك القصص.

بداية حياته مع روزا كانت قد شهدت اندلاع العديد من الخلافات الحادة بينهما، وكان أبو نسيم يخرج مهزوما دائما من المواجهات مع زوجته التي كانت تترك الدار غاضبة في كل مرة، وتلتجئ إلى بيت والديها القريب، فيسارع إلى مراضاتها، وأقناعها بالعودة معه بسبب حبه الشديد لها، وحرصه على عدم مضايقتها... لم يكن الزوجان يتردّدان في

رواية تفاصيل شجاراتهما القديمة العاصفة تلك للأصدقاء، والتندّر عليها.

من بين حكاياتهما أن أبا نسيم عاد إلى بيته بعد نهاية الدوام ذات يوم صيفي قائظ ليجد أولاده الصغار حفاة يخوضون في المياه، بينما تناثرت أحذيتهم ونعالهم حولهم، فاستشاط غضبا، لكنه لم يشأ أن يثير الموضوع مع روزا كي لا ينشب بينهما شجار جديد، وقام بجمع الأحذية والنعال، وحملها إلى غرفة النوم في الطابق العلوي، ثم جلب مطرقة ومسامير، وراح يعلق الفردة تلو الأخرى على الحائط، كما لو كانت صورا عائلية.

كان لأبي نسيم ستة أخوة، عمل أحدهم طبيبا، وكان اسمه "داود" أيضا، فاستوقف الأخير هزال أبناء شقيقه خلال أحد لقاءاتهم العائلية، ونبّهه إلى ضرورة أن يدفعهم لتناول المزيد من الحليب... أصدر أبو نسيم أمره بشراء ليترين من الحليب الطازج فورا، وقام بتسخينه قليلا، ثم سكبه في أكواب حملها إلى صغاره، لكن جميع محاولاته لإقناعهم بشربه باءت بالفشل، فطلب من روزا أن تكون قدوة لأطفالها، وتقوم بشرب الحليب أمامهم، ليفاجأ برفضها هي الأخرى، فاستبد به الغيظ لدرجة أنه أفرغ محتوى الأكواب كلها في جوفه، وتم استدعاء شقيقه الطبيب كي يعالجه من نوبة إسهال حادة.

عُرِف عن أخوة أبي نسيم تمسّكهم المتطرّف بالنظام والسلوك الصائب، فكانت كثيرا ما تصدر عنهم أفعال غاية في الغرابة، منها أن أحد الأشقاء كان معتادا على ارتياد مقهى مطل على دجلة لشرب القهوة في

الصباح، والاستمتاع بالمنظر الجميل لانسياب المياه، لكن الصبية الصغار المتواجدين في المكان تكفّلوا بتعكير صفوه المنشود ذات يوم... ما أن اتخذ شقيق أبي نسيم مقعده في المقهى حتى توجّه صبي نحوه، عارضا عليه القيام بتلميع حذائه، فرفض العرض، وطلب منه الذهاب، لكن الصبي عاد بعد مرور دقائق خمس، وكرّر محاولته بجذب الحذاء، فنهره مرة أخرى وقال له: "امشِ!" انصرف الصبي لدقائق معدودة قبل أن يعود من جديد، فجنّ جنون شقيق أبي نسيم لمرآه، وهبّ واقفا، ثم خلع فردتي حذائه، ورماهما في النهر.

لم نكن نكلّ من الإصغاء إلى نوادر أبي نسيم، والضحك لطرافتها في جلسات سمرنا التي كانت تمتد لأوقات متأخرة في الليل، لكن خطورة الأوضاع المحيطة بنا ما لبثت أن فرضت نفسها على طبيعة أحاديثنا، وقلبت حبورنا إلى توتّر ووجوم.

هوامش الرسالة العاشرة

(1) سد مقام على نهر الفرات جنوب بغداد، أنشئ في عام 1913.

(2) الأمير عبد الإله بن علي بن الحسين (1913–1958) ابن عم الملك فيصل الأول، وشقيق الملكة عالية زوجة الملك غازي.

(3) محمد أمين الحسيني (1895–1974).

(4) الحرب العالمية الثانية (1939–1945).

(5) لقب عُرِفت به ألمانيا تحت الحكم النازي.

(6) تغير اسمها في عام 1995 إلى "مومباي"، وهي أكثر مدن الهند اكتظاظا بالسكان.

(7) السياسي العتيد المعروف بـ "نوري باشا" المولود في عام 1888 في بغداد... تقلّد السعيد منصب رئيس الوزراء لمرّات عدّة قبل أن يطيح انقلاب عام 1958 بالحكم الملكي، ويتسبّب بمقتله بطريقة بشعة.

(8) أحد ألعاب الورق.

(9) موسيقي ومُلحّن يهودي (1908–1986) يُعدّ من أعلام المقام والغناء العراقي مع شقيقه "داود الكويتي" (1910–1976).

(10) ممثلة أمريكية شهيرة (1904–1977).

حظر تجوال

الأول من نيسان عام 1941 كان التاريخ الذي وقع عليه اختيار ضباط المربّع الذهبي للقيام بضربتهم، واتخذوا من "رشيد عالي الكيلاني" الذي كان رئيسا للوزارة لفترة قصيرة قبل أن يُعزل من منصبه في مطلع العام واجهة لهم... كان الكيلاني محاميا في الأصل، معروفا بموالاته للنازية، كما سبقت له الخدمة في الجيش العثماني برتبة نقيب[1]، فقام بتشكيل "حكومة إنقاذ وطنية"، افتتحت عهدها بإلغاء معاهدة عام 1930 الموقّعة مع بريطانيا، وبدء مفاوضات للدخول في حلف عسكري مع هتلر، الأمر الذي أفزعنا.

روايات شتّى تردّدت عمّا حدث في تلك الأيام، ولم نتبيّن الحقيقة إلّا بعد مرور زمن لا بأس به، إذ علمنا بتلقّي الوصي إنذارا بشأن الحركة في الليلة السابقة لقيامها، وهو ما مكّنه من الفرار من مقر إقامته في "قصر الزهور" في بغداد، فتم تهريبه ملفوفا داخل سجّادة في سيارة تابعة للمفوّضية الأمريكية إلى "القاعدة الجوية الملكية" في "الحبّانية" التي تقع في الصحراء على مبعدة قرابة تسعين كيلومترا غرب العاصمة، ثم تولّى البريطانيون نقله من هناك جوّا إلى البصرة كي يكون بحماية "قوات البحرية الملكية" فيها، بينما بقي الملك فيصل الثاني ذو السنوات الست

في بغداد، وعهد رشيد عالي بمهام الوصاية عليه إلى شخص آخر[2]، لتلي ذلك سلسلة من الأحداث المُفجِعة التي تسبّبت بتصفية وتشريد أقدم الجاليات اليهودية في الشتات.

استمر عهد رشيد عالي الأسود شهرا بأكمله، وكان من أبرز سماته منع التجوال وانقطاع الكهرباء، فاضطر كثير من اليهود إلى الانتقال للسكن مع الأقارب، علّ تكتّلهم مع بعض يوفّر لهم شيئا من الأمن والحماية بمواجهة الخطر الداهم، كما قمنا بدفن مقتنياتنا الثمينة تحت الأرض وفقا للتوجيهات التي تداولها أفراد الجالية وقتها، وحضّت الجميع على سحب ودائعهم من البنوك أيضا، فأسرع داود بوضع نقودنا وحليّنا في علبة صفيح، أوسدها تربة حديقتنا الخلفية في موضع اختاره بعناية كي يتسنّى له تذكّره فيما بعد... قرّرت شقيقتي ريجينا وزوجها وأبناؤهما السبعة اللجوء إلى قصر العائلة للإقامة فيه مع نانا وبابا، أمّا نعيمة وأسرتها، فقد كانوا يسكنون في تلك الفترة في عقار مملوك لهم في بغداد، لكنهم آثروا مغادرة العاصمة، والتوجّه إلى الحلّة بعد أن قاموا بدفن أغراضهم الثمينة وسندات ممتلكاتهم في تربة الدار، وكان لداود شقيقة اسمها "نعيمة" أيضا، وهي زوجة إبراهيم الذي لعب دور الوسيط في زواجنا، انتقلت برفقته وأطفالهما الثلاثة للإقامة مع روزا وأبي نسيم بعد تركهم لبيتهم في حي الكرّادة.

احترنا أنا وداود أين نولّي وجهينا، فالاعتداءات التي حملت بصمات النازية راحت تتوالى مع قيام مجموعات من الغوغاء بجوب الأحياء اليهودية، والتعرّض لسكانها بالمضايقة والنهب، وفي بعض

الأحيان الاغتصاب والقتل وإضرام النيران، وحتى تحطيم أجهزة المذياع بزعم وجود "شياطين" في داخلها تردّد الأغاني اليهودية... المشكلة الأخرى التي واجهتنا في خضم تلك الأوقات العصيبة تمثّلت في أنني كنت موشكة على وضع طفلي الثاني.

تردّدت أخبار أن البريطانيين كانوا يحضّرون أنفسهم للعودة لحماية مصالحهم في العراق، فشاهدنا في السادس من أيار طائرات "القوة الجوية الملكية" تحلّق فوق رؤوسنا، دون أن تلقي شيئا من حمولتها من القنابل... لم تكن الأخبار تصلني بالتفصيل في تلك الفترة بسبب حرص المحيطين بي على سلامتي وعدم إزعاجي، لكنني علمت لاحقا أن مجموعة من المخرّبين حاملي الهراوات قامت باقتحام مستشفى "مير الياس"(3) بحجة اختباء طيّارين بريطانيين بداخله مع شخص بريطاني آخر كان مسؤولا وفق زعمهم عن إرسال إشارات للطائرات المغيرة لتحديد الأهداف المطلوب تدميرها، وتحوّل المستشفى في دقائق معدودة إلى ساحة قتال شرس، تعالت فيها الصرخات ودوي الطلقات النارية، وراح المرضى يتراكضون بحثا عن مكان يحتمون به، إذ قام المهاجمون أولا باحتجاز الأطباء وطاقم التمريض والكادر الإداري، ثم أطلقوا الرصاص على صيدلي وأردوه قتيلا، الأمر الذي أصاب مرافق المستشفى بالشلل التام، فعُهِد إلى جمعية "الهلال الأحمر" بالإشراف عليه بدلا من إدارته اليهودية.

كان من المفروض أن تجري طقوس الختان المعروفة ببريت ميلا في دار "يعقوب شالوم" الواقعة في الشورجة في اليوم التالي... وفقا لرواية

"أبراهام توينه" عما حدث، قامت مجموعة من الشباب بكسر الباب واقتحام البيت، وطعن أحد الصبية الموجودين فيه بسكاكينهم، كما أصابوا شقيقه الأكبر بجروح بالغة، وذكر توينه أن المُعتدين كانوا يخطّطون لمهاجمة موظفي سكة الحديد من اليهود، فحاول الأخيرون الفرار إلى بيوتهم، لكنهم لم يتمكّنوا من المغادرة لأن الهرب في حالات الطوارئ كان يُعد عملا تخريبيا قد تصل عقوبته إلى الإعدام.

سمعنا أن أحد الطيارين البريطانيين تم أسره، وأن طائرته التي أُسقِطت قد وضِعت مع قائدها مُقيّد اليدين في مؤخرة شاحنة جالت بهما الشوارع، بينما راحت الحشود الغاضبة تتبعها وهي تردّد الأناشيد والهتافات المتهكّمة... لم يكن بوسعنا التحقّق من الأخبار المتضاربة التي تابعناها عبر المذياع بعد أن أخفضنا صوته، فمكثنا في بيوتنا ونحن نرتجف خوفا، لكننا أدركنا فيما بعد أن الطيّار كان ألمانيا، وأن استهداف طائرته قد تم عن طريق الخطأ.

لم يعد بقاؤنا نحن الثلاثة مع بعض المستخدمين آمنا في بيتنا الكبير، إذ كنا أهدافا سهلة مكشوفة بلا مكان نستطيع أن نختبئ فيه في حال تعرّضنا للهجوم، كما لم نكن ندري كيف يمكن أن نُحضِر القابلة كي تولّدني لو داهمني الطلق خلال ساعات حظر التجوال والتعتيم.

أصررت على ضرورة حضور بعض أفراد عائلتي كي يعطيني وجودهم بقربي دعما معنويا، ويكونوا عونا لي عند الحاجة، لكن كيف لنا وسط كل ذلك الرعب أن نطلب منهم مغادرة دورهم للإقامة معنا؟ تمكّن داود بعد محاولات عدة من إقناع شقيقتي نعيمة وزوجها ساسون

الذي كنا نناديه بـ "ساس" أن بقاءهما في العاصمة أضمن لأمنهما من ذهابهما للسكن في إحدى القرى المحيطة بالحلة حيث عرض عليهما أحد الأصدقاء من وجهاء المسلمين أن يؤويهما في بيته، واستقر الرأي على ذهابنا للسكن معهما وأطفالهما الخمسة في دارهم، خصوصا وأن نعيمة لم تكن محبّذة لفكرة الرحيل من الأصل، فقاموا بتوديع الأقارب الذين كانوا يعتزمون السفر برفقتهم، وهم شقيقة ساسون وزوجها "مناشي خلاصجي" وأطفالهما.

تقبّلت نعيمة برحابة صدر غزونا لدارها أنا وداود ولينا ومربيتها و"فريجة"، وهي فتاة في الخامسة والعشرين من العمر، قمنا بتوظيفها كي تتولى مهمة العناية بالمولود الجديد وبي، كما جاء معنا طاهينا "شيمتوف" الذي بات مسؤولا عن الطبخ للجميع، فنعيمة كانت قد استغنت عن وجود الخدم عندما أوشكت الأسرة على المغادرة، وأبقت فقط على "إسماعيل"، وهو فتى مسلم كان يقوم بالذهاب إلى السوق لجلب احتياجاتنا من الأطعمة.

ما كادت أيام معدودة تمضي على انتقالنا للسكن مع نعيمة حتى وردتنا أنباء مريعة أثبتت أن مخاوفنا من مغادرة بغداد كانت مبرّرة، فمناشي قد قُتِل، لكن ذبحه لم يكن على أيدي الغوغاء، بل تم بتحريض من شريكه في التجارة، وهو شيخ مسلم انتهز فرصة غياب القانون لتحقيق مأربه... عادت أرملة مناشي مع أطفالها الخمسة إلى بغداد في وضع مزر، وأدركنا عند سماعنا تفاصيل ما حدث معهم أعجوبة نجاتنا من ملاقاة مصير مشابه.

كان مناشي محبوبا ومُحترما من قبل الجميع، كما حظي بمكانة اجتماعية مرموقة في أوساط جاليتنا، إذ كان تاجر حبوب معروفا وصاحب أراضٍ زراعية، وكان يسكن مع عائلته في الشارع الذي ضم دار أسرة نعيمة قبل زواجهما... جريمة مقتله أصابتنا جميعا بالصدمة وأشعرتنا بالفجيعة، لكن ساس كان أكثرنا تأثّرا، فراح ينتحب كالأطفال، وحرص هو وداود على الذهاب إلى مجلس العزاء المعروف بـ "شيفا" في كل يوم، ثم سعى جاهدا لشد أزر شقيقته ومواساتها في مصابها الأليم.

اقترحت شقيقتي نعيمة أن نستعين بخدمات القابلة "مسعودة"، فتم الاتفاق مع الأخيرة على الحضور إلى الدار مساء كل يوم، والمبيت معنا تحسّبا لحال مداهمة "الحدث السعيد" في منتصف الليل... مسعودة كانت تُعدّ الاختيار المُفضّل للسيدات الحوامل في دائرة معارفنا، كما سبق لها أن قامت بتوليدي عندما كنت حاملا في لينا، ولذلك عندما طلبت أن ندفع لها أجرا مضاعفا لم نتردّد في الموافقة، وواظبت طيلة أسبوعين على المجيء قبل غروب الشمس، والمغادرة في الصباح التالي بعد تناول الفطور، حاملة معها شتى الأخبار عمّا كان يحدث لليهود بمن فيهم ابنتها التي هوجمت وتعرّضت للسرقة في إحدى المرات.

راقت أحاديث داود الشيقة لمسعودة التي كانت بدورها تجيد رواية الحكايات، فكنا نمضي ساعات في الإصغاء لهما، إذ كان الخروج متعذّرا علينا بسبب سوء الوضع الأمني، وباتت الدردشة وسيلتنا الوحيدة لقضاء وقت الفراغ الطويل... معظم حواراتنا كانت استرجاعات لذكريات الأيام الخوالي عندما كان الوئام والاحترام سائدين بين فئات المجتمع، كما كنا

نناقش الأخبار المنشورة في الصحف عن مجريات القتال، ونتساءل عن مدى صحتها، فقد كنا نخشى استخدام الهاتف لأن جميع المكالمات تجري عبر الاستعانة بالبدالة، وكانت عرضة للمراقبة والتنصّت، وأيضا لأن عدد الأشخاص الذين كان بوسعنا الحديث معهم كان محدودا، فلم تكن الخدمة واسعة الانتشار في بغداد بعد، حتى أن أرقام هواتفنا تكوّنت من ثلاثة مراتب فقط.

جاءتنا مسعودة في أحد الأيام بنبأ أفزعنا عن أحد معارفنا الذي احتاج إلى المال، فاضطر لاستخراج نقود كان قد دفنها في التربة، لكنه فُجِع عندما وجد الأوراق وقد غمرتها المياه حتى تلفت تماما... توجه داود في صباح اليوم التالي إلى دارنا برفقة حارسنا الكردي، وطلب منه عند وصولهما أن يبتاع الحليب من السوق كي لا يستدل على مخبئنا السري، كما قام بصرف الحارسين الكرديين اللذين عهدنا إليهما بحراسة البيت خلال غيابنا، ثم شرع بالبحث عن موضع الدفن الذي كان قد اختاره بالقرب من صنبور الماء في الحديقة بسبب سهولة الحفر في التربة الرطبة.

اضطر داود إلى ضرب الأرض بمعوله في أكثر من موقع حتى تمكّن أخيرا من العثور على الصفيحة، ولشدة فرحه قام بجلبها معه، واستخرجنا معا الحلي التي كانت في داخلها لنجد عقد اللؤلؤ الخاص بوالدته وقد غطّته البقع السوداء وتعرّض لأضرار غير قابلة للإصلاح، أما الأوراق المالية، فكان الماء يقطر منها، لكنها لم تكن قد تلفت بعد لحسن الحظ، فقمنا بنشرها في أرجاء الغرفة كي تجف.

لم نكن نثق في الأخبار الواردة في نشرات الإذاعة العراقية بسبب نبرتها الزاعقة وتحريضها المستمر ضدنا، فساعات الإرسال اليومية الثماني عشرة كانت عبارة عن موسيقى مارشات عسكرية مع خطب رنّانة عن "نصر" مزعوم على كل الجبهات، الأمر الذي جعلنا نلجأ لخدمة البث باللغة العربية من "راديو أنقرة" الأكثر حيادية كمصدر بديل لمعرفة آخر تطوّرات الأحداث التي اتخذت منعطفا جديدا في التاسع من الشهر بإعلان المفتي "الجهاد"، ودعوته كل مسلم سليم البدن إلى حمل السلاح، والقتال ضد أعداء الإسلام.

تجاوبت الإذاعة مع التصعيد ببث مزيد من الدعاية النازية وتلاوات من القرآن والأخبار المناوئة للبريطانيين، كما حضّت المواطنين على الانتفاض ضد هيمنة المستعمرين، والانصياع لقيادة رشيد عالي، لكن المصيبة كانت في التهديد المُبطّن الوارد في تحذير الحكومة للشعب الذي بثّته الإذاعة المرّة تلو الأخرى بالتوقف عن هدر ذخائر الأسلحة عبثا (بإطلاق العيارات في الهواء) في غمرة الابتهاج بالنصر، وجاء في آخره: "نأمل أن يحل السلام في كل مكان، وبمجرد أن يتحقّق نصرنا المبين على البريطانيين، سيحين وقت الانتقام من عدوّنا في الداخل الذي سنقوم بتسليمه إليكم كي تثأروا منه بأيديكم".

لم تكن معرفة المقصود بـ "عدو الداخل" عسيرة على أحد، كما أن الهدف من وراء إعطاء مثل تلك التعليمات كان واضحا للجميع.

لم يعد عندنا شك في جسامة الخطر الذي حاق بنا مع سقوط بغداد في أيدي جموع الفتوّة الهائجة، فمسعودة كانت تأتينا في كل ليلة بمزيد

من الأخبار المُفجِعة عمّا حلّ بالأحياء الفقيرة في شرق بغداد، وتمترس سكانها من اليهود خلف أسوار سطوحهم دون أسلحة أو وسائل دفاع عن النفس سوى استخدامهم المياه المغليّة، وقطع الآجر والحصى كي يدرأوا بها أذى المهاجمين، لكن تلك الطرق البدائية لم تكن لتجدي نفعا في زمن الحرب العالمية الثانية، فالمعارك الطاحنة أسفرت عن سقوط أجزاء واسعة من أوروبا في قبضة النازية، كما عانت بريطانيا من هزائم موجعة في "الصحراء الغربية"[4]، وعمّت فلسطين الفوضى حسب ما أوردته الصحف المحلية... عويل صفارة الإنذار كان يعلو بين الفينة والأخرى على أحاديثنا، معلنا عن شن غارة جديدة، لكن التحذير كان كاذبا في معظم الأحيان، وحتى لو كان صادقا، لم تكن لنا ملاجئ نلوذ بها من الخطر، فما الداعي إلى الإنذار من الأصل؟ هل كان الهدف منه ترويعنا فقط؟

الجلوس في النيم سرداب خلال الغارات كان أقصى ما بوسعنا فعله لحماية أنفسنا، وأذكر أننا كنا في طريقنا إليه ذات مرة عندما عثرت صغيرتي لينا ذات العامين التي سبقتنا إلى النزول على صندوق من المصابيح الكهربائية، كانت نعيمة تحتفظ به لوقت الحاجة... أخرجت لينا أحد المصابيح ورمته على الأرض، فأصدر ارتطامه بها وتحطّمه صوتا جعلنا ننتفض جميعا فزعين، ودعانا داود إلى الهرب بسرعة قبل أن تخرج لينا راكضة من النيم، وأدركنا عندئذ مصدر الصوت المُريب، علما أنها لم تكن المرة الأولى التي تتسبّب فيها بإزعاجنا بلهوها وجريها المستمرين في أرجاء البيت.

نتائج البث الإذاعي التحريضي بدأت بالظهور تباعا، إذ تم احتجاز امرأة يهودية لأن أحد أزرار ثوبها ذهبية اللون بان دون قصد من تحت عباءتها السوداء، فاتُهِمت بمحاولة إرشاد الطيارين البريطانيين، وفي حادثة أخرى، أُدين طالب يهودي بالتجسس لمجرد حمله كتابا باللغة الإنكليزية، كما ألقي القبض على مدرس موسيقى فرنسي بتهمة حيازة جهاز بث لاسلكي في علبة الكمان التي كان يحملها... تم إجبار المدارس اليهودية على إغلاق أبوابها، وتعطّلت الأعمال عندما صدرت الأوامر إلى البنوك بالامتناع عن صرف النقود التي سُخّرت لتمويل المجهود الحربي ورعاية الجرحى، ثم طالبت "كتائب الشباب" ذات التوجّه النازي المتطرّف الجالية اليهودية بتسليمها مدرسة "راشيل شحمون" مع مكاتب إدارتها لاتخاذها مقرا لهم، بالإضافة إلى استحواذهم على ماكنة تسجيل المدفوعات، وقد عثرت الشرطة فيما بعد على خرائط تفصيلية للحي اليهودي في خزينة الكتائب في المدرسة مع قائمة بأسماء قاطنيه، وألقابا حركية وُضعت أمام اسم كل منهم.

تم الاستيلاء أيضا على "الإعدادية اليهودية"، ولم تكتفِ الحكومة بتحويل مدرسة شمّاش التابعة لعائلة زوجي إلى مستودع للهلال الأحمر، لكنها أمعنت في إذلالنا بتعيينها يهودا للعمل في استلام البضائع، وإيداعها المخازن قبل إرسالها إلى الجيش.

في ليلة الخامس عشر من أيار، كنت ضمن أثني عشر شخصا جلسوا في الظلمة والحر الشديد كي يتداولوا الأنباء المزعجة عمّا كان يحدث حولنا عندما ظهرت عليّ علامات الولادة الوشيكة... درجة

الحرارة كانت مرتفعة على نحو استثنائي يومها وبلغت أكثر من أربعين مئوية في الظل، الأمر الذي لم يكن معتادا في ذلك الوقت من العام، علما أن نوافذ الطابق الأرضي كانت مغطاة تماما بالستائر وقطع السجّاد كي تحجبنا عن أنظار المارة في الشارع.

أحاط الموجودون ببصيص النور الخافت لشمعة وحيدة موضوعة على الأرض، فبث قدوم وليدتي بعد مخاض استمر لساعتين وصرختها الأولى التي تردّدت في الغرفة الحياة في أوصالنا، وأخرجانا، ولو مؤقتا، من سجن خوفنا من التعرّض للهجوم في أية لحظة.

"كم هي جميلة! وُلِدت في الظلام، فأنارت المكان. باركها يا الله وأجعل قدومها فأل خير علينا، فنحن أحوج ما نكون إلى غوثك!" قالت مسعودة.

تنفّس الجميع الصعداء لخلاصي من عبء حملي، وابتهج الأطفال الذين تراوحت أعمارهم بين عامين وثلاثة عشر عاما، فأحاطوا بوليدتي، وراحوا يراقبون كل حركة تأتي بها وقد علت الدهشة وجوههم، ثم توالت عليّ أسئلتهم: "ماذا كانت ترتدي عند وصولها؟ كيف جاءت إلى هنا، ومع من؟"... أنسانا دعاء مسعودة اللطيف مشاق واقعنا المرير لبرهة، وجعلنا نستبشر خيرا، ولذلك عندما سألها الأطفال عن اسم القادمة الجديدة، أجابتهم دون تردّد: "أمل".

لم أعلق بشيء، إذ سبق لمسعودة أن أبلغتني أن كل الفتيات المولودات في ذلك الشهر تم إطلاق الاسم ذاته عليهن، لكنني أضمرت في نفسي النية على تغييره فيما بعد إلى "ميرا".

هوامش الرسالة الحادية عشرة

(1) لم يتم العثور على ذكر لخدمة الكيلاني كنقيب في الجيش العثماني في مصدر آخر، فالمعروف والمنشور عنه أنه التحق بالسلك الوظيفي المدني بعد تخرّجه من كلية الحقوق.

(2) "الشريف شرف بن الأمير راجح" الذي يشترك في نسبه الهاشمي مع العائلة المالكة في العراق.

(3) الثري اليهودي "مير الياس" كان قد تبرع بإنشاء المستشفى الذي حمل اسمه في بداية القرن العشرين، وتكفّلت الجالية اليهودية بإدارته حتى تم تأميمه عقب ثورة 1958 وتغيير اسمه إلى "مستشفى الشعب".

(4) الواقعة بين مصر وليبيا.

الفرهود

صعوبة الحصول على الأخبار كانت من المشاكل التي عانينا منها خلال تلك الأيام العصيبة من عام 1941، فبعد شهر من منع التجوال وانقطاع الكهرباء والاختباء، بتنا نعيش في الظلام، وكنا نسمع هدير المزيد من الطائرات في السماء مع تردّد شائعات عن اندلاع معارك مع الجيش البريطاني في الصحراء لوقف تقدّمه نحو بغداد.

لم يجرؤ أحد منا على تمنية النفس بأن تحيق الهزيمة بالثائرين، لكن المعجزة تحقّقت عندما وردنا أن المسؤولين الأبرزين عن محنتنا، وهما رشيد عالي والمفتي، قد لاذا بالفرار، وأن البريطانيين بلغوا مشارف المدينة، وسيقومون بإنقاذنا... هربت جماعة رشيد عالي باستثناء واحد من عتاة أفرادها هو "يونس السبعاوي"[(1)] الذي بقي لإثارة مزيد من المتاعب، إذ كان معروفا بقيادته لمجموعات الفتوّة النازية التي ارتكبت العديد من الاعتداءات ضد اليهود، كما سبق له أن ترجم كتاب "كفاحي" لهتلر إلى العربية، ولذلك كان سماعنا صوته عبر المذياع وهو ينصّب نفسه حاكما عسكريا لبغداد مفاجأة غير سارة.

بعد مرور سنوات، علمت من صهر نعيمة "مير ساسون" أننا أوشكنا على التعرّض للإبادة خلال تلك الأيام الحرجة، فبينما كنا

ملتهين ومبتهجين بقرب نجاتنا، قام السبعاوي في الساعة العاشرة من صباح الثلاثين من أيار باستدعاء والده "ساسون خضوري"، حاخام باشي بغداد، كي يبلغه تعليماته التي نزلت على الأخير كالصاعقة، ونصّت على أن يلزم اليهود بيوتهم ولا يغادروها بعد ظهيرة ذلك اليوم، وأن يقوموا بطهي طعام يكفيهم لثلاثة أيام، وتجهيز حقيبة سفر لكل أسرة، بانتظار أن يتم نقلهم إلى معسكر احتجاز خاص من أجل تأمين "سلامتهم".

التفسير الوحيد لما قاله السبعاوي كان أن خُطّة قد أُعدّت للقضاء علينا، فهرع الحاخام فزعا إلى حكماء الجالية للتشاور معهم، خصوصا وأنه لم يكن هناك من يُمكن اللوذ به لحمايتنا، ثم استقر الرأي على التوجّه إلى أمين العاصمة آنذاك "أرشد العمري"، علّه يكون أكثر إنسانية وعطفا من سواه... طلب الحاخام الاجتماع بالعمري على نحو عاجل، فتم تحديد موعد للمقابلة رغم الاضطراب والهياج السائدين في المدينة، وما أن دخل الحاخام على العمري حتى قام بفعل ترك الأخير مشدوها، إذ سارع بخلع عمامته ورميها على الأرض، فتعرية الرأس أمام رجل مسلم كانت إشارة إلى شدة كرب اللاجئ إليه.

كان العمري متدينا يخشى الله في قلبه، فالتقط العمامة من على الأرض، وسأل الحاخام: "أخبرني، ما الذي حدث!" أجابه خضوري متوسلا: "عُمري[2]، لا تدعهم يرتكبون هذه الجريمة المريعة!"... ناول أمين العاصمة الحاخام عمامته، وطلب منه أن يعيدها إلى مكانها، ثم أبلغه أن يرجع لطمأنة أبناء الجالية، وإبلاغهم أنه سيتكفّل بحل المشكلة.

اقتربت الظهيرة، واقترب معها موعد تنفيذ الأمر الصادر بعدم مغادرة اليهود بيوتهم، وبالفعل، أصدر السبعاوي في الساعة الثانية عشرة تعليماته إلى العاملين في إذاعة بغداد بدعوة الجماهير إلى الانتفاض ضد اليهود وذبحهم، لكن الإعلان لم يتم بثه، وعلمنا لاحقا أن أمين العاصمة قد فرض سيطرته على المدينة في اللحظة الأخيرة، مطيحا بالسبعاوي من منصبه، وإن سمح له بالفرار إلى إيران بعد صرف مرتبه الشهري البالغ مئة دينار... أكّدت الإذاعة في المساء الأنباء التي تردّدت عن هروب الحكومة السابقة بأكملها، وأعلنت عن تشكيل "لجنة الأمن الداخلي" التي ستأخذ على عاتقها مهمة مفاوضة البريطانيين للتوصّل إلى صيغة اتفاقية تحفظ كرامة الدولة وهيبتها.

يا لها من معجزة!

ظننا أن الخطر قد زال، فعقدنا العزم على مغادرة دار نعيمة التي أقمنا فيها طيلة شهر أيار، والعودة إلى بيتنا مساء عيد شفوعوت الذي حلّ في يوم السبت المصادف للحادي والثلاثين من الشهر، بالرغم من إلحاح شقيقتي عليّ بالبقاء معها حتى انتهاء فترة نقاهتي... حضرت عربانة كي تقلّنا، وضجّ أطفال نعيمة بالبكاء عند تحرّكنا، إذ كانوا يريدوننا أن نظلّ معهم.

كان رائعا أن أعاود الوقوف على قدميّ من جديد، وأتنشّق النسيم المنعش، واستمتع بالحرية بعد شهر من الاختباء والخشية على حياتنا، أوشكنا خلاله على الهلاك... غمرنا فيض من المشاعر الجيّاشة عندما دخلنا بيتنا، فرحنا نردّد دعاء العرفان: "باروخ مهيّاي حماتيم"، والتي

تعني "سبحان الذي يُحيي الأموات!" ها هم البريطانيون على وشك العودة، وانزاح أخيرا كابوس شهر رشيد عالي.

كم كنا مخطئين، فالفصل الأسوأ من الأحداث كان بانتظارنا، بل أن مأساة مريعة كانت توشك أن تكشف عن نفسها!

عيد شفوعوت مخصّص للاحتفال بنزول التوراة على موسى بعد أن أمضى أربعين يوما على قمة جبل سيناء، أصغى خلالها إلى الإله القدير وهو يملي عليه الوصايا العشر التي حفرها على لوحين، ثم سلّمهما إلى "يهوشُع بن نون"[3] عند نزوله من الجبل، فقام الأخير بدوره بإيصالها إلى "نبيّين"، أو الأنبياء الآخرين الذين عكفوا على فك رموزها وتفسيرها، وصولا إلى نسخة التوراة المتداولة لدينا اليوم.

عندما كانت الظروف طبيعية، كان الفرح يسود الشهر السابق للعيد، ويتخلّله قيامنا برحلات عدة، كما كانت تلاوة الصلوات في البيوت بحضور أفراد الأسرة والأقارب حتى الساعات الأولى من الفجر من طقوسنا في عشية العطلة، واعتادت النسوة تقديم القهوة التركية في أكواب صغيرة للحاضرين طيلة الليل، على أن يتم تجهيز "الكاهي" لوجبة الفطور، وهو عبارة عن رقائق مقرمشة من العجين، مقليّة قليا عميقا، تقدّم ساخنة بعد رشّها بالسكر الناعم... عند الانتهاء من تناول الكاهي، كان البعض يعودون إلى دورهم لنيل قسط من الراحة، بينما كان قسم آخر يفضّل مواصلة التعبّد في الكنيس، وكنا نطلق على الموسم أيضا تسمية "عيد الزيارة" لقيامنا فيه بزيارة أضرحة أنبياء بلاد بابل بغرض التبرّك بهم ونيل شفاعتهم.

كانت الأسر اليهودية تستعد لزياراتها بإعداد "المخبوز" الذي يُصنع بعضه حلوا، والبعض الآخر مالحا كي يكون "زوّادة" الطريق، كما كانوا يأخذون معهم أيضا الكاهي وأصناف البقلاوة، وكذلك "بعابيع بدهن"[4] وهي من أنواع الكعك الهش الدسم، و"الملفوف" الذي تُشكّل عجينته على هيئة أصابع السيجار، ثم يُحشى كل اصبع منها بخليط اللوز المُقطّع مع السكر والهيل.

كان العيد يستمر ليومين اثنين ويحل دائما في نهاية شهر أيار، حيث يكون الطقس في بغداد جافا ودافئا قبل اشتداد قيظ الصيف، وكان أقران المولودين في شهر أيار يغبطونهم لتوافق أعياد ميلادهم في كل عام مع الموسم الذي يحتفل الجميع بمقدمه ويبتهجون فيه.

عاد التواصل بين أفراد جاليتنا بعد انقطاع، وحل الهدوء محل صخب إطلاق العيارات النارية وهدير الطائرات المحلّقة، كما ظهر عدد من رجال الشرطة في أماكن متفرقة من المدينة وهم يحملون بنادقهم... من الأمور التي أسعدتنا أن محطة الإذاعة استأنفت بث موادها المعتادة من الأغاني العربية بدلا من خطابات الأسابيع المنصرمة العنيفة، وأعلن المذيع في الخامسة والنصف من مساء السبت نبأ توقيع اتفاقية للهدنة واستعادة النظام، كما ورد في موجز الأخبار في تمام الساعة أن الوصي سيصل العاصمة في العاشرة من صباح اليوم التالي، وأن حشود المستقبلين ستكون بانتظاره في المطار للترحيب بعودته.

ذهبنا لأداء الصلاة المسائية في الكنيس، فتم توجيهنا بعدم إظهار الفرح أو الاحتفال خلال مسيرنا في الشوارع، كما أبلغونا عند خروجنا

أن من الخير لنا البقاء ضمن نطاقات أحيائنا وعدم تجاوزها، وهكذا، بعد تلاوتنا الصلوات وتوزيع حلوى العيد، بتنا ليلتنا وقد أتممنا إعداد زوّادة اليوم التالي، وإن كنا نعلم استحالة قيامنا بزيارة الأضرحة في مثل تلك الظروف التي تنامى فيها إحساسنا بالقلق بسبب عدم رؤيتنا لجندي بريطاني واحد في المدينة، ولم نكن نفهم سبب تأخر وصولهم.

كان الطقس جميلا في الصباح التالي، فخطر لنا أن نخرج برفقة معارفنا الذين عزموا على السير إلى جانب الكرخ للترحيب بموكب الوصي، إذ لم يكن الذهاب إلى المطار لاستقباله آمنا، لكننا آثرنا البقاء في البيت، ثم قرّرنا تلبية دعوة زوجة هارون التي اتصّلت بنا في الظهيرة كي نمضي العيد معا بعد انقضاء شهر عزلتنا الاضطرارية... تركت وليدتي أمل (ميرا) بعهدة مربيّتها المُتمرّسة فريجة، واصطحبنا معنا لينا التي أصرت على ارتداء عباءة حمراء مذهبة كانت هدية من جدها، ثم توجّهنا إلى بيت هارون وفيوليت القريب مشيا، وكانا قد رزقا قبل شهور ستة بمولود أسمياه "سيمون".

ظننّا أن البريطانيين قد عادوا، وتطلّعنا إلى سيادة النظام والقانون في مدينتنا من جديد، لكننا ما كدنا نصل إلى بيت هارون وفيوليت حتى دوى صوت انفجارٍ عالٍ... اعتقدنا في البدء أنه كان ضجيج إطلاق ألعاب نارية، لكن جرس الهاتف رن، فأسرع هارون بالرد على المتّصل:

"من معي؟ علي؟ نعم، نحن سلامات".

كان "علي" أحد العتّالين العاملين في خان العائلة تحت إدارة هارون وداود، وكان يتصّل من المكتب لإبلاغنا بما حدث، فانتابنا

الذعر عندما لاحظنا تغيّر ملامح وجه هارون، والتزمنا الصمت علّنا نسمع ونفهم ما دار بينهما من حديث... شعرت بجفاف في حلقي، وعلا طنين في أذني عندما تذكّرت وليدتي التي تركناها في البيت مع مربيتها فريجة و"ملكة" التي كانت تعنى بلينا، وأيضا الطاهي "شمتوف" الذي كان فتى مراهقا، بالإضافة إلى حارسينا الكرديين.

"أحاط الغوغاء بنا، لكننا تمكّنا من طردهم"... كانت مكالمة علي أول علمنا بوقوع أحداث مُفزِعة استمرت ليومين متتاليين، واصطُلح على تسميتها بالفرهود، وهي كلمة شنيعة أكاد لا أعثر على مرادف لها في اللغة الإنكليزية، وكل ما أجده لوصفها أنها حالة انهيار تام للنظام والقوانين، تصبح خلالها الأرواح والممتلكات في خطر، بل قد يصح تعريفها أنها حملة تطهير عرقي، أو حتى مجزرة.

ما كان يجب أن يفوتنا توقّع التطوّرات اللاحقة، فقبل أيام من هروبه متنكرا بلباس امرأة، حرص المفتي على حبك خطوط مؤامرته ببث المزيد من السموم عبر خطاباته الإذاعية التي ألقت باللائمة على اليهود في وضع البلد المزري، وحرّضت السذّج من العوام ضدنا... لم تدّخر مزاعمه المجنونة تهمة إلا وألصقتها بنا، فكان يهيّج الناس بقوله إننا جواسيس، وإننا نرسل الإشارات عبر المرايا للطيارين البريطانيين المُغيرين على المدينة، وأننا نتلصّص على المكالمات الهاتفية والبرقيات، ونقوم بتسريب المعلومات الواردة فيها إلى السفارة البريطانية.

كانت الغالبية المسلمة لتصدق كل ما قيل لها في وسط ذلك التوتّر وتلك الأجواء المشحونة، خصوصا مع وصول بث باللغة العربية من

الإذاعة الألمانية في برلين، وتأجيجه نيران الغضب والكراهية في صدور الجماهير من خلال إعلان المذيع العراقي "يونس بحري"[5] عن وجود مقاتلين يهود من فلسطين ضمن صفوف القوات البريطانية بالقرب من مدينة "الفلوجة"[6].

... وهكذا، تحوّلت بغداد سريعا إلى مدينة خارج السيطرة.

العديد من أبناء جاليتنا كانوا قد توافدوا جانب الكرخ للترحيب بالوصي كما ذكرت، ونظرا لتزامن المناسبة مع موسم العيد، كان ارتداؤهم أفضل ملابسهم أمرا طبيعيا، لكنه كان خطأ جسيما أيضا، إذ سارت بمحاذاتهم أفواج من الجنود العراقيين العائدين من القتال بعد التوقيع على اتفاقية وقف إطلاق النار وهي تجرّ وراءها أذيال الهزيمة... علت الوجوه آثار الخيبة والانكسار، ولم تكن هناك قيادة تسيطر على السلاح الذي بحوزة الجنود، ولا كان الأخيرون يعلمون شيئا عن حلول عيدنا شفوعوت، فاليوم كان الأحد، لا السبت الذي يشهد في العادة معظم العطل اليهودية، ولم يكن لنزول اليهود إلى الشوارع متأنّقين سوى تفسير وحيد لدى الجحافل الحزينة: أن أبناء جاليتنا كانوا مبتهجين بهزيمة الجيش، وعودة الاستعمار البريطاني الكافر لبسط هيمنته على البلد.

... لم ندرك ذلك إلّا لاحقا.

في الساعة الثالثة من بعد ظهر الأحد المصادف الأول من شهر حزيران، وخلال عبور مجموعة من اليهود على جسر "الخُر"[7] في طريق

عودتهم من جانب الكرخ على الضفّة اليمنى للنهر، اعترضت طريقهم مجاميع من الجنود المنسحبين مع بقايا كتائب الشباب، وقاموا بالاعتداء عليهم باللكمات أولا، ثم طعنا بالسكاكين... لقي أحد اليهود حتفه، بينما أصيب ستة عشر آخرون بجراح على مرأى ومسمع من أفراد الشرطة العسكرية الذين لم يحرّكوا ساكنا لإنقاذهم، فالجنّي كان قد خرج من قمقمه.

مكالمة على الهاتفية أصابتنا بالصدمة... *ما العمل الآن؟*

حاولت احتواء ذعري كي لا أقع مغشيا عليّ، وجاهدت للحفاظ على قدرتي على التفكير السليم، فقرّرنا بعد نقاش سريع البقاء حيث كنّا، علّ وجودنا مع بعض يمنحنا شيئا من الأمن كما حدث في المرة السابقة، واستعد داود للذهاب لإحضار ابنتنا، لكن سيارة توقّفت على الجانب المقابل بمجرد أن فتح باب الدار، فتوجّه للحديث مع سائقها... كان الظلام قد تسرّب، وخلا الشارع من المارة والمركبات وحتى القطط السائبة رغم رفع حظر التجوال.

لم ينتبه داود أول وهلة إلى الدم الذي غطى وجه السائق المذعور وتناثرت بقعه على أجزاء سيارته، إذ راح يصغي بقلق إلى روايته عن الفوضى التي سادت وسط المدينة في فترة ما بعد الظهر، والهياج الذي سيطر على الحشود الغاضبة، فراحت تحطّم وتنهب وتضرم النيران وتطعن بالسكاكين، الأمر الذي تسبّب بسقوط الكثير من القتلى والجرحى... قال له السائق إنه قام بنقل عدد من المصابين بسيارته، وإن ما شهده من أهوال قد أصابه بالغثيان، إذ أقدم الغوغاء على بقر بطن

صبي وتدلّت أحشاؤه خارجها، لكن المسكين أغلق الشق بيده، وبقي على تلك الحال حتى أنقذته أعجوبة من هلاك مُحقّق.

انتاب الذعر داود عند سماعه اسم المُعتدى عليه، فقد كانت تربطه به صلة قرابة بعيدة، ونصحه السائق عندئذ أن يقفل عائدا، ويبحث عن وسيلة أخرى لبلوغ دارنا.

لم أكن موجودة في مواقع المواجهات، لكن روايات شهود العيان وما بلغني من الأصدقاء، بالإضافة إلى ما اطلعت عليه في أرشيف جاليتنا من إفادات ووثائق ساعدني على فهم ما حدث في المراحل اللاحقة، إذ أشعل الاعتداء الأول فتيل ما تلاه من جرائم، خصوصا بعد أن رأى الناس رجال الشرطة والجيش وهم يشاركون في الهجوم، فالتحق بهم المارة من المدنيين وكل حامل ضغينة أو حقد في قلبه ضدنا، وسرعان ما امتد العنف إلى جانب الرصافة في الضفة اليسرى للنهر، وأحياء مثل "أبو سيفين" و"راس الجول" اللذين عاش فيهما المسلمون مع اليهود، وصار ارتكاب جرائم القتل والنهب على أيدي البدويين وبقايا الجيش والشرطة علنيا في الشوارع، ما أسفر عن مذبحة واسعة النطاق، كما شوهدت عربات النقل وهي تحمل قطع الأثاث المسلوبة وسواها من ممتلكات سكان تلك المناطق الفقيرة.

تعرّضت النساء للاغتصاب، وذُبِح الأطفال على مرأى من أهليهم الفزعين قبل أن تنال منهم طعنات السكاكين وطلقات الرصاص، ثم توجّه الغوغاء لنهب كل ما تبقّى في محال اليهود، ولم يغادروها حتى أضرموا النار فيها... سائقو العربات وراكبو حافلات النقل من اليهود

كانوا يُجرّون خارجها لضربهم أو قتلهم، أما البيوت، فكانت تُقتحم عنوة، ويُعذّب ساكنوها أو تُبتر أطرافهم عوضا عن قتلهم ريثما يتم سلب ممتلكاتهم، وتُحرق الدور بعد ذلك.

الأسر اليهودية التي كانت لها بنات حسناوات باتت أهدافا مفضّلة لهجمات الجنود الهائجين الذين لم يتردّدوا في ضرب الحرّاس الأُجراء، الأمر الذي اضطر رجال تلك الأسر إلى رمي الفتيات من الشرفات الخلفية كي يتلقّفهن الأصدقاء والجيران ويقوموا بتهريبهن، أو كانت المسكينات يقفزن فوق الأسوار أو يتسلّلن عبر أبواب السطوح بحثا عن ملاجئ آمنة لهن في البيوت المجاورة، ولم يسلم الأطفال من الخطر، فكان الأهالي يقذفونهم من فوق الأسطح إلى أذرع الأصدقاء الفزعين، حفاظا على حياتهم.

تم أيضا اقتحام كنيس وحرقه على طريقة النازيين، كما أُتلِفت جميع كتب التوراة الموجودة فيه... تلك الجرائم حدّثنا عنها فيما بعد رجل تمكّن من النجاة بأعجوبة عن طريق الاختباء في حفرة، وراح يراقب من موقعه فيها الفظائع المُرتكبة على أيدي الجنود الذين جذبوا الأطفال بعيدا عن أهليهم، وقاموا بقطع أذرع الفتيات الصغيرات للحصول على أساورهن الذهبية، كما كان شاهدا على اغتصاب نسوة حوامل قبل شق بطونهن، بينما أبلغنا صبي في الثالثة عشرة من العمر أنه رأى عبر الستارة في منزله رجالا يجرّون فتيات يهوديات من شعورهن في الشارع، وينهالون ضربا بالفؤوس والمطارق على الذكور الذين كانوا برفقتهن.

السائق الذي نصح داود بالعودة إلى الداخل كان أول من التقيناه من شهود المجزرة، لكن كيف لنا أن نجد وسيلة آمنة لإحضار وليدتنا ونحن محاصرون محبوسون؟ من كان ليجرؤ على الخروج في مثل تلك الفوضى؟ لحسن الحظ، خطوط الهاتف كانت ما تزال عاملة، فبللت ريقي بشربة ماء، ثم حاولت الاتصال بدارنا.

"فريجة، والدا داود يريدان رؤية الصغيرة".

"بوسعي إحضارها"، قالت فريجة... "سأضعها في عربتها، وأقوم بدفعها حتى نصلكم".

"كلا، اصغي جيدا لما سأقوله، وافعلي ما أطلبه منك بالضبط! أبلغي "والي" (حارسنا الكردي) أن يُحضر عربانة من الطريق الرئيسي، وليطلب من سائقها أن يوقفها أمام الباب".

"لسنا بحاجة لعربانة، فأنتم قريبون جدا منا"، اعترضت فريجة، ثم قالت: "سأكون عندكم بعد دقيقة".

قلت لفريجة فزعة: "إنه وقت رضاعتها، وهما يريدانني أن أبيت معهما للاحتفال بالشفوعوت سوية، فأرجوك أن تفعلي كما أقول لك، ولا تجعليني أقلق! دعي ملكة تحضر معكما كي تحمل الحفّاضات وبعض الملابس للصغيرة، واجلبا لباس نوم لي أيضا، وليرافقكما والي ويجلس بجوار سائق العربة، لكن عديني أولا أنك لن تحملي معك سوى صغيرتي، ولتتكفّل ملكة بحمل باقي الأغراض!".

أوشكت أن أصرخ فزعة أكثر من مرة خلال مكالمتي مع فريجة، لكنني استجمعت قواي، وحاولت قصارى جهدي أن اقنعها بهدوء

وصبر بأداء ما طلبته منها، كما حرصت على عدم الإشارة إلى الاعتداءات كي لا ترتعب وتُفزع المحيطين بها... كانت ملكة في الثامنة عشرة من العمر، ولم يكن مقبولا تركها وحدها في البيت مع شمتوف والأكراد، فأصررت على فريجة أن تحضرها معها.

مرّ الوقت عليّ كدهر وأنا أنتظر وصول صغيرتي مع فريجة وملكة الغافلتين تماما عن الخطر الذي هدّد حياتهما... لم نبد ذعرنا أمام الفتاتين عندما قدمتا أخيرا، فلا فائدة كانت تُرتجى من ذلك، لكنهما أدركتا بفطنتهما حراجة موقفنا وتوترنا.

كان الجو شديد الحرارة، لكننا لم نجرؤ على الصعود إلى السطح كما اعتدنا أن نفعل في ذلك الوقت من كل عام، وحاولنا تحصين أنفسنا عن طريق رص قطع الأثاث الثقيلة خلف الباب الأمامي، ثم قمنا بإسدال الستائر على النوافذ، وإسناد قطع السجاد عليها حتى كدنا نختنق من الحر، فقرّرنا النزول إلى النيم سرداب على أن نبقي أضواءه مطفأة، لكن الصغير سيمون لم يكن يطيق الظلام وراح يبكي، الأمر الذي هدّد بإثارة انتباه المارة في الشارع، كما كانت ابنتي لينا تمقت الظلمة هي الأخرى، فلجأنا إلى تشغيل المذياع مع ابقاء صوته خفيضا للغاية، علّ الضوء الخافت المنبعث من مؤشر المحطات يُهدّأ روعيهما قليلا... عشنا ليلة شبيهة بكابوس، باتت المدينة خلالها مستباحة للصوص والقتلة الذين وجدوا في الفراغ الأمني فرصتهم الذهبية للسطو والذبح، فكانت ولولات النساء المفجوعات وصراخهن بأسماء أحبتهن المقتولين تتناهى إلى مسامعنا ونحن جالسون في الظلمة، لا ندري إن

كان ما ينتظرنا هو الفرج أم دورنا في لقاء مصير مخيف، ورحنا نفكّر في أماكن أكثر أمنا للاختباء فيها، وماذا يمكن أن نفعل لو...

في تلك الأثناء، كان أربعة عشر فردا من عائلتي مجتمعين في قصرنا في الكرّادة، هم: بابا ونانا وسلمان وديزي ومارسيل وريجينا وزوجها روبن وأطفالهما السبعة، بالإضافة إلى طاقم العاملين المكوّن من جاسم وفطّوم وحاقولي وزهرة... كان عليهم مواجهة اقتحام محتمل بوسائل دفاع ضئيلة للغاية، فراحوا يتباحثون عن سبل أخرى كفيلة بدرء الأذى عنهم، وكان اليأس قد استبد بسلمان لدرجة أنه اقترح حرق القصر حال دخول الغوغاء إليه، لكن بابا رفض الفكرة تماما، وأوعز بإغلاق الباب باستخدام المفتاح الكبير وتحصينها بالمزلاج، فيما تم إرسال الأطفال إلى النيم سرداب، وطِّلب منهم أن يمكثوا فيه هادئين، ثم قام بابا وسلمان بارتداء دشداشات عربية الطراز للتمويه.

تتذكّر "كلارا" ابنة شقيقتي أنها مضت تراقب المهاجمين بذعر وهم يقتربون من البيت، إذ اقتحموا أولا دار آل خزام المجاور المهجور، ونهبوا محتوياته باستثناء ما تعذّر عليهم نقله أو لم يكونوا مُهتمّين بسرقته، فقاموا برمي تلك القطع التي تضمّنت أواني خزفية وأدوات مائدة في النهر قبل التوجّه إلى هدفهم التالي، وراحوا يقرعون باب قصرنا الأمامي بقوة ويحاولون فتحه برمي أثقالهم عليه... لحسن الحظ أنهم لم يكونوا يملكون العدد التي تُستخدم لدك الأبواب المحصنة والتي كانت ستمكّنهم من الدخول خلال ثوان معدودة، فدفع بابا بجاسم كي ينهرهم بصوته الجهوري الحازم، ويأمرهم بالانصراف لأن

الدار مملوكة لمسلمين، وتنفّس الجميع الصعداء عندما تأكّدوا من رحيلهم.

كان آل "يديد" جيراننا في الكرادة، لكنهم التجأوا إلى حي "البتاويّين" للاحتماء داخل دار عائلة الزوجة، ورووا لنا لاحقا ما شاهدوه من أهوال من سطح البيت، وما سمعوه من صرخات أطلقها ضحايا الاعتداءات الوحشية طوال الليل... تمترس آل يديد وأقاربهم في الداخل لكسب وقت يكفي لتدبير فرارهم عبر السطوح المجاورة في حال اقتحام الدار من قبل الغوغاء، كما قاموا بدفن مقتنياتهم الثمينة في تجويف تحت أرضية المطبخ، وأمضوا ليلتهم مرتدين كامل ثيابهم تحسّبا لوقوع الأسوأ، وكان ذلك حال كثرة من الأسر اليهودية.

استمرت بغداد بالاحتراق دون أن يجد أهلها أثرا للبريطانيين، وطلع علينا فجر الاثنين الثاني من حزيران ونحن لم نزل في النيم حتى هوت ضربات عالية على باب الدار أفزعت الجميع، فصعد الرجال بحذر لاستطلاع الأمر، وتمكّن هارون من التعرف على صوت الطارق الذي كان جارا مسلما شغل في السابق منصب محافظ البصرة، وكان صديقا لعائلة فيوليت... أبلغنا الرجل أنه جاء لاصطحابنا إلى بيته المجاور لدار القنصل المصري كي نكون بحمايته مع أسر يهودية أخرى كان يؤويها في نيم سردابه، لكنّه حذرنا من خطورة الوضع في الخارج.

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد حينما تسلّلنا مسرعين... لمحنا جارنا الملاصق المسلم "عبد الرزاق حلمي"، وكان رجلا شهما أصرّ على استضافة بعضنا في داره، فانقسمنا إلى فريقين: توجّه هارون

وفيوليت وصغيرهما سيمون للاختباء في نيم الجار الأول مع ستة وعشرين يهوديا، وانضممنا نحن إلى مئة وخمسين شخصا تجمّعوا في نيم جارنا النبيل.

ظهر حشد غاضب ونحن نوشك على دخول دار السيد حلمي الذي كان يحمل مسدسين، فراح يلوّح بهما مُهدّدا وزاجرا الغوغاء بالكف عن ارتكاب أفعالهم الخسيسة، وعلمنا فيما بعد أن العديد من المسلمين قد تصدّوا للمشاغبين ومنعوهم من التعرّض لجيرانهم من اليهود، إذ حال مختار أحد الأحياء، وكان في الخامسة والستين من العمر، بين أهل منطقته من اليهود وخمسين مجرما أرادو اقتحام دورهم، ومنع المعتدين بحزم من دخول الحي.

أمضى السيد حلمي النهار في إجراء اتصالات هاتفية مع معارفه لاستطلاع ما دار من أحداث، والبحث عن السبل المتاحة لحمايتنا، أما السيدة حلمي، فكانت مرتبكة ومنهكة، لكنها لم تكف عن سؤالي إن كانت ميرا التي باتت محط اهتمام الجميع بحاجة لشيء... لن ننسى ما حيينا المشاعر الودودة التي أحاطنا بها جيراننا خلال محنتنا، ولا لطفهم وكرم ضيافتهم اللذين غمرانا بهما، فبالرغم من حراجة الأوضاع والخطر الذي هدّد حياتنا، تمكنت صداقة اليهود والمسلمين من الصمود بوجه التحدّيات.

بدأ توافد المهاجمين منذ الساعة الثامنة صباحا، وكانوا يأتون في مجاميع متتابعة بقيادة رجال الشرطة الذين خلعوا شاراتهم كي لا تُعرف هوياتهم، كما التحق بالحملة الشرسة عدد من البدويين وسكنة الأحياء

المُعدمة مستغلين الفوضى التي سادت المدينة، بالإضافة إلى عناصر كتائب الشباب، والجنود الفارّين من جبهات القتال الذين أمضوا الليلة الماضية في تنظيم صفوفهم لشن هجوم أوسع في اليوم الثاني، لكنهم جوبهوا بمقاومة أقوى هذه المرة.

أصبحت دفاعات جاليتنا أكثر فاعلية مع تجميع كم كبير من الأحجار الثقيلة والقار والزيت المغلي والخرق التي استخدمت كأسلحة في المواجهة، كما تم اختيار قائد لكل مجموعة من المدافعين كي يُصدر الأوامر للباقين، لكن الفرار عبر السطوح المتجاورة كان أكثر الوسائل فاعلية في إنقاذ حياة كثير من اليهود، وهو ما أوشك آل يديد على فعله عندما رصدوا من سطح بيتهم في البتاويين وصول الغوغاء واقتحامهم الدور الواقعة في الزقاق.

جشع المهاجمين كان عاملا آخر أدّى إلى تقليل الخسائر في الأرواح، إذ خالفت غالبيتهم الأوامر بقتل اليهود، وانشغلوا بتفتيش البيوت المستباحة، وتجريدها من كل غالٍ ونفيس، ثم أسرعت الحشود الهائجة بالتوجّه إلى شارع الرشيد لنهب مخازنه التجارية قبل أن تسبقها إليها مجموعات أخرى وتستحوذ على محتوياتها... عمليات سلب محال الشوارع الرئيسية استمرّت لأربع ساعات، وتوالت السرقات في الحي اليهودي حتى الساعة الثانية من بعد الظهر، وما كانت لتتوقف لولا الخشية من امتداد يد التخريب إلى سائر الأحياء المسلمة، الأمر الذي دفع قوات الأمن أخيرا إلى التدخّل وفرض سيطرتها، ففرّ اللصوص لو إذا عندما فتح رجال الشرطة نيران بنادقهم الرشاشة، وخلت بذلك

الشوارع من السائرين، كما نجا آل يديد بمعجزة من الهلاك، إذ وصل جنود يمتطون الخيل في اللحظة التي كان الغوغاء سيدخلون فيها الدار، وقاموا بتشتيت جمعهم ومطاردتهم.

توقف دويّ الرصاص بحلول الساعة الواحدة بعد الظهر، ومضت بقية اليوم دون وقوع أحداث مريعة أخرى، لكن تأمين الطعام للعدد الكبير من اللاجئين في منزل آل حلمي كان مشكلة تحتّم حلّها بسرعة، فقام شمتوف بتسلّق السور الفاصل بين دارينا، وجلب كل ما كان قد أعده من أكل أو وجده في خزائن المطبخ، وكانت الأولوية لإطعام أطفالنا الجياع بطبيعة الحال... بدأنا بالخروج من مخبئنا عندما تم إعلان التوصّل إلى هدنة، لكن الوضع كان لا يزال غير آمن، وكان بوسعنا رؤية فلول اللصوص وحافلاتهم المليئة بالمنهوبات وهي تجوب الشوارع.

لم يسد الهدوء الكامل حتى تمام الساعة الخامسة مساء عندما بثت الإذاعة نبأ قيام الوصي بتعيين "جميل المدفعي"(8) رئيسا للوزراء، وكان الأخير معروفا بحسه الإنساني وعدم حقده علينا، كما أُعلِن عن القضاء على مجموعات عدّة من الغوغاء، وفُرِض حظر للتجوال من غروب الشمس إلى شروقها، فسيطرت على الشوارع حالة من الصمت المطبق، وغابت عنها الحركة خلال ساعة واحدة فقط... السواد الذي اكتنف الأبنية المحروقة، بالإضافة إلى ما تبعثر في الطرق من مسروقات سقطت من اللصوص عندما شرعوا بالفرار كانا آخر آثار رعب الساعات الست والعشرين الماضية، ويذكر حفيد آل يديد "ديفيد كحيلة" أن أربعة من

الغوغاء قد تم إعدامهم شنقا، وعُلّقت أجسادهم على أبواب المدينة الأربعة كي يكونوا عبرة لغيرهم.

لم نكتشف فداحة الخسائر والحجم الحقيقي للدمار إلا بعد مرور زمن طويل، إذ تفاوتت الروايات في تقدير عدد القتلى من مئة وعشرة أشخاص إلى سبعمئة، أما الجرحى، فتراوح عددهم ما بين مئتين وأربعين مصابا وألفين[9]، كما تشير السجلات الرسمية إلى وجود العديد من غير اليهود من ضمن القتلى، ويشمل ذلك الغوغاء ورجال الأمن، وأيضا المسلمين الذين هبّوا لنجدة جيرانهم، فنظرا لعلاقات المودّة التي كانت تربطنا بأتباع الأديان والملل الأخرى، سارع العديد من المدنيين العراقيين إلى إيواء أصدقائهم من اليهود في بيوتهم، وتوفير الحماية والطعام لهم كما حدث معنا، وهو ما دفع البعض حياتهم ثمنا له... يبقى أن قسما من اليهود كانوا يسكنون في أماكن بعيدة عن ساحات المواجهات، فنجوا بذلك من الخطر، ولم يكونوا على علم بوقوع كارثة طالت الكثيرين من أبناء جاليتهم.

الرعب الذي عشناه ووحشية ما تعرّضنا له في ذانك اليومين من شفوعوت حفرا جرحا غائرا سيبقى أثره إلى الأبد في وعينا الجمعي، فها أنا أكتب سطوري بيد مرتجفة رغم مرور عشرات السنين على الفرهود، وزاد في وجعنا تجاهل المسؤولين محنة الناجين من المذبحة، وعدم أخذهم أية إجراءات لمساعدتنا، ومحاسبة الجناة الذين بقوا طلقاء خارج السجون دون توجيه تهم لهم أو الادّعاء ضدهم، فلا تحقيق

أجري، ولا تعويضات دُفِعت، بل وجد الضحايا أنفسهم أمام خيارين مريرين: القبول بالأمر الواقع، أو رفضه... حسم ذلك تردّدنا، وجعلنا نعقد العزم على الرحيل مهما كان الثمن، فأبرق داود في الصباح التالي إلى أخيه غالي في بومباي كي يتقدم بطلب تأشيرة دخول لنا إلى الهند، وكانت البرقية عبارة عن كلمات قليلة جدا: "احصل على الفيزا!".

شرعنا بتصفية ممتلكاتنا، ومنحنا نعيمة شقيقة زوجي كل ما أرادت الحصول عليه من قطع أثاثنا، فدارها في الكرّادة كان قد تم اقتحامها من قبل الغوغاء الذين نهبوا كل محتوياتها، ولحسن الحظ أنها وأسرتها لم يكونوا في البيت وقت هجوم اللصوص عليه، إذ كانوا يقيمون مع شقيقتها روزا وزوجها أبي نسيم كما ذكرت آنفا.

اتصلت نعيمة وزوجها هاتفيا بجارهما المسلم عند بدء اندلاع أعمال الشغب، وطلبا منه حماية دارهما، والمحافظة على قطع السجاد الفارسية الجديدة التي كانا قد غلفاها بعناية وأخفياها في النيم سرداب... كانا يظنان الجار موضع ثقة، فقد اعتاد على زيارتهما في أيام السبت لتناول بيض السبت الذي كان يحبه، لكنهما صدما عندما رجعا إلى بيتهما بعد انتهاء الاضطرابات ليجدا محتوياته وقد سرقت بالكامل بعد أن قتل الغوغاء الحارس الكردي الذي حاول منعهم من الدخول، وسحقوا جثته.

لم يترك المقتحمون شيئا سليما في الدار، ولا حتى مقشة، فما عجزوا عن سلبه، قاموا بتحطيمه، بما في ذلك المراوح السقفية، وكذلك

الحمّام الذي فاضت المياه منه وأغرقت باقي الغرف بعد سرقة حنفياته، وبطبيعة الحال، لم يجدا أثرا لقطع سجادهما الثمين.

لم تكن الخسائر المادية أكثر ما حزّ في نفس نعيمة وزوجها، بل كانت خيانة جارهما لهما أشد وجعا، خصوصا عندما وجدا سجادهما مفترشا الأرضية في داره[10].

هوامش الرسالة الثانية عشرة

(1) محمد يونس السبعاوي، أحد رموز حركة مايس بقيادة رشيد عالي والعقداء الأربعة (1910–1942).

(2) من المنطقي أن تكون المخاطبة قد تمت باستخدام صيغة: "عُمري باشا" أو "أرشد باشا" نظرا لكون العمري إحدى الشخصيات السياسية البارزة في العراق خلال العهد الملكي (1888–1978).

(3) المعروف في المراجع الإسلامية بـ "يوشع بن نون"، وهو من الشخوص المذكورة في العهد القديم كأحد أعوان موسى، ثم تولى قيادة بني إسرائيل بعد وفاته.

(4) لم يتم العثور على ذكر لذلك النوع من الكعك في مصدر آخر.

(5) رحالة وأديب وإعلامي عراقي مولود في مدينة الموصل، له مؤلفات كثيرة ونشاطات مثيرة للجدل (1900–1979).

(6) أبرز مدن محافظة "الأنبار"، تقع على مبعدة ستين كيلومترا شمال غرب العاصمة، وقد أقام سلاح الجو الملكي البريطاني قاعدة له عند بحيرة الحبانية القريبة منها في عام 1936، كما ورد ذكره في الفصل السابق.

(7) أول الجسور الحديدية في بغداد، شيّده العثمانيون، ثم تم تفكيكه لاحقا.

(8) سياسي عراقي بارز، ولد في الموصل عام 1890، شغل منصب رئيس الوزراء مرات عدة خلال العهد الملكي، وتوفي بعد شهور قليلة من سقوطه في عام 1958.

(9) "تباينت الإحصاءات، لكن هناك شبه إجماع على أن عدد القتلى كان 187 والجرحى 240 من يهود وسواهم، كما أشار القائمون على شؤون الجالية إلى أن 586 محلا ومخزنا قد تم اقتحامها ونهبها، وقُدّرت قيمة المسروقات بأكثر من ربع مليون دينار عراقي، أو ما يعادل اليوم أكثر من تسعة ملايين جنيه إسترليني، أما عدد الدور التي هوجمت، فكان 911 وتضرّر من جراء ذلك قرابة 3400 أسرة و12300 ساكنا، قدّرت خسائرهم المادية بما يقارب 380 ألف دينار، أو ما يفوق اليوم 13 مليون جنيه إسترليني" – ملاحظة أوردها محرّرا الرسائل في هامش فصل الفرهود، ولم يتسنّ للمترجّم التحقّق من دقّة الأرقام الواردة فيها.

(10) عاشت أسرة المترجم تجربة مماثلة عند مغادرتها العراق عام 2006 بعد أن عهدت إلى جارها بالمحافظة على دارها، لكنه خان الأمانة وقام بسرقة محتوياتها، ونقلها إلى بيته.

الرحلة الجوية الأولى

وصلنا إلى مدرج مطار بغداد في الساعة السادسة من صباح يوم بارد من أيام شهر تشرين الثاني... كان وجهي شاحبا للغاية، وراح جسدي يرتعد بفعل القلق والترقّب، فما مررنا به استنزف مشاعري، ونضبت دموعي من كثرة البكاء.

مضت خفقات قلوبنا تُردّد: *وداعا! وداعا!* ونحن غير مصدقين لما يحدث... لم يرافقنا أحد من أفراد عائلتينا في رحلتنا إلى المطار خشية أن يلفت وجودهم الانتباه ويثير الريبة حولنا، إذ كنا خائفين من أن يتم إسقاط إعفاء داود من الخدمة العسكرية، كما كان من الوارد أن تُلغى سفرتنا لأي سبب، فأتممنا توديع الأهل، ثم طلبنا من طاهينا المخلص شمتوف أن يأتي معنا للاعتناء بطفلتينا خلال الطريق.

بدأت الأحداث الجسيمة في تفتيت جاليتنا، فقامت شقيقتي ريجينا وأسرتها بتصفية ممتلكاتهم أيضا، وعزموا على السفر برا إلى فلسطين بعد أسبوع من مغادرتنا، غير أن والد داود بقي غير راضٍ عن قرارنا ومنتقدا له حتى آخر لحظة، بل إنّه وبّخ داود لإرساله برقية مُكلِفة إلى غالي عوضا عن التواصل معه بريديا، لكننا كنا نريد اختصار الوقت، وحسنا فعلنا، إذ تم إيقاف منح التأشيرات بعد فترة وجيزة، ولم يعد أمام

الراغبين بالمغادرة شرقا سوى أن يسلكوا الطريق البري إلى إيران، ويعبروا الحدود متنكّرين بأزياء القرويين.

كانت أسرة ريجينا قد انتقلت للعيش في القصر حتى يحين موعد سفرها، فأمضينا يومنا الأخير في دار والديّ في توديع العائلة، وجاءت نعيمة أيضا برفقة أطفالها، ومرّ الوقت سريعا ونحن ملتهون معهم حتى حانت لحظة تفجّر المشاعر التي اختلطت فيها دموع الفرح والحزن... كنا سعداء بالنجاة من مجزرة الفرهود، لكن فراق الأحبة حزّ في نفوسنا، فوحده الرب يعلم إن كنا سنجتمع مرة أخرى وكيف.

الجانب المقلق الآخر للرحلة تمثّل في كوني أول فرد في عائلتي سيركب الجو كما الطير، أو مثل السندباد الذي اعتلى العنقاء وحلّقت به في السماء، حسبما ورد في حكايات ألف ليلة وليلة... تلك كانت فكرة نانا عن الطيران، لكنها استسلمت في النهاية لمشيئتنا بعد أن أدركت عدم جدوى الاعتراض على ما انتوينا فعله.

خمسة شهور كانت قد مضت على فظائع شفوعوت، رجعت الحياة في بغداد خلالها إلى حالتها الطبيعية أو كادت، وبدا الفرهود ككابوس تحتم على الجميع نسيانه، ومع عودة البريطانيين إلى تولي زمام الأمور في البلد تجدّدت شكوكنا في صواب ما عقدنا العزم عليه... من يعلم إن كان بوسعنا الرجوع بعد رحيلنا؟ وهل كان قرارنا بمغادرة وطننا الأم وترك الأهل والأصدقاء وكل ما ألفناه صحيحا؟ أضف إلى ذلك أن جاليتنا اليهودية تعد الأقدم في العالم، إذ استوطن أجدادنا أرض الرافدين منذ العصور التوراتية السحيقة، واختاروا البقاء في بابل في

الوقت الذي عاد فيه كثير من أقرانهم إلى أرض إسرائيل، فهل كان أهل زوجي مُحقّين في وصفهم مشروع هجرتنا بالطيش؟ وهل صحيح ما قاله بابا أن لا مستقبل لنا في الهند؟

لم يكن ليَ أو لداود تمرّس في الترحال، ولم يسبق لأي منا أن ركب الجو، فقلة فقط في تلك الأيام كانت قد اختبرت الطيران، كما راودتنا شكوك في قدرة طائرة بريطانية على التحليق والحرب لم تنته بعد... رحلتي مع بابا ونانا إلى فلسطين كانت تجربتي الوحيدة في السفر إلى الخارج، وكان الأمر أسوأ بالنسبة إلى داود، فما الذي كنا نتطلّع إلى تحقيقه بهجرتنا إلى بلاد بعيدة كالهند؟ ومتى وأين سيتاح لنا أن نرى أفراد عائلتينا مرة أخرى؟

أثقلت جرأة القرار وجسامة المسؤولية كاهلينا، خصوصاً وأنها المرة الأولى التي نتمرّد فيها على الأعراف السائدة، فلم يكن أيّ منا الابن الأكبر أو الأصغر في أسرته، ولم يسبق لنا أن كنا في موقع القيادة، بل كنا حريصين دوما على فعل ما توقّعه الآخرون منا، وعدم تجاوز الخطوط الحمراء.

استمر قلقنا حتى بعد أن قمنا بتثبيت مهد ميرا النقّال في المكان المخصّص له في وسط الطائرة، واتخذنا مقعدينا فيها متظاهرين أن كل شيء على ما يرام، لكننا لم نتنفّس الصعداء ونتمكن من الاسترخاء تدريجيا حتى هبطنا في البحرين للتزوّد بالوقود، فأدركنا حينها أننا قد تجاوزنا مصاعب وهلع الشهور الماضية، ونجحنا في الفرار بعد أن انطلت حيلتنا على السلطات التي اقتنعت بزعم داود أنه أكبر من عمره

الحقيقي وغير مُكلّف بأداء خدمة العلم، الأمر الذي استغرق وقتا طويلا، وتطلّب منا تقديم الرشى، والسعي للحصول على وساطات من أصحاب المناصب الرفيعة بمساعدة الأقارب والأصدقاء، فلم يعد واردا بعد كل ما شهدناه خلال الفرهود وما تلاه أن يقاتل داود اليهودي دفاعا عن قضايا العرب، واستدعت الرحلة إلى أذهاننا قصة تيه أسلافنا في الأرض.

واصل الأصدقاء والأقارب محاولاتهم الحثيثة لإقناعنا بالعدول عن قرارنا طيلة الأسابيع الأخيرة التي دُعينا خلالها إلى العديد من حفلات الوداع المُبلّلة بالدموع، وكانوا يقولون لنا في كل مرّة إن الوقت لم يفت بعد... تذكّرنا إصرارهم ونحن في طريقنا إلى بدء حياة جديدة، وكانت مفارقة أن يوم مغادرتنا تزامن مع ذكرى زواجنا الرابعة.

الهجرة مع طفلين صغيرين تُمثّل مغامرة لأيّ زوجين، فما بالك ونحن مسافرون في وقت رزح العالم فيه تحت وطأة الحرب.

علمنا خلال توقّف طائرتنا في البحرين أن أحد المسافرين معنا، وهو السيد "ر. رشدي" كان يسكن دارا مقابلة لدارنا في بغداد ويعرف داود جيدا، فكان نعم رفيق في الرحلة، وأبلغنا أنه مهاجر إلى الهند مثلنا، بالرغم من عدم تحدّثه أو فهمه اللغة الإنكليزية، الأمر الذي هوّن علينا، وعزّز ثقتنا بأنفسنا.

محطتنا التالية كانت "جودبور"[1]، وتصادف وصولنا إليها مع الاحتفال بيوم "شقائق النعمان"[2] الذي لم نكن قد سمعنا به من قبل، كما لم يسبق لنا أن شاهدنا الزهور الحمراء التي وُزّعت علينا لوضعها في

عـروات ثيابنـا، لكننـا تقبّلنـا الأمـر بـلا جـدال... داعـب أحـد الضـبّاط البريطانيين طفلتي لينا ذات الأعـوام الثلاثة بقولـه: "يا لـكِ مـن صـغيرة محظوظـة! لقـد بلغـتُ السـتين مـن العمـر دون أن يتسـنّى لـي ركـوب الطائرة"، ثم التفت نحوي وسألني: "كيف كان شعوركِ وأنت تحلّقين في السماء، هل راودكِ الخوف؟" وددتُ لحظتها لو كان بوسعي البـوح بما اختلج في صدري، فربما كان سبب عدم خوفنا من الطيـران مـا مررنـا بـه من أهوال في بغداد.

الصدمة الوحيدة في رحلتنا كانـت قـدرتنا على القيـام بهـا، وهـو مـا رفع معنوياتنا، وأشعرنا بشيء من الاسترخاء والتحرّر، فقرّرنا مدّ إقامتنا في المدينة لحين استعادة نشاطنا قبل أن نأخذ القطار المُتجه إلى بومباي، لكن الهند حكاية أخرى.

هوامش الرسالة الثالثة عشرة

(1) من أكبر مدن ولاية "راجستان" الواقعة في شمال غربي الهند.

(2) "Poppy Day" أو "Remembrance Day" مناسبة تحتفل بها دول رابطة "الكومنولث" التابعة للتاج البريطاني في يوم إعلان وقف القتال في الحرب العالمية الأولى لإحياء ذكرى الجنود الذين سقطوا فيها، وتعد زهرة شقائق النعمان أو الخشخاش رمزا لها.

آخر رحلة

تدهورت أوضاع الجالية بعد مغادرتنا، وتعرّض أبناؤها لمزيد من الاضطهاد وسلب الحقوق، فيما اعتُبِر واحدا من أكثر فصول تاريخنا في أرض الرافدين مرارة... لستُ مبالِغة إن قلت إنّ الجميع صاروا يتطلّعون للرحيل، فشهد العقد التالي نزوحا جماعيا ضخما ما كان ليتم لولا توفّر فرصة السفر جوا المعروفة بحملة "عليّا"[(1)] التي أتاحت نقل مئة وعشرين ألف يهودي من العراق إلى إسرائيل بين عامي 1950 و1952 بعد إسقاط كل مستحقاتهم، وبشرط ألّا يتجاوز متاع الفرد منهم حقيبة سفر واحدة.

نتج عن ذلك اندثار الجاليات اليهودية المتواجدة في أرجاء العراق، وانكماش عدد اليهود من مئة وثلاثين ألفا في وقت حدوث الفرهود إلى ستة آلاف فقط، تمركزوا في بغداد... كانت شقيقتي نعيمة واحدة من الباقين، وبرحيلها أُسدِل الستار نهائيا على سنوات عيشنا على أرض بابل.

وداع نعيمة للوطن الأم كان استثنائيا حتى بمعايير تلك الفترة العصيبة التي تمخّضت اضطراباتها السياسية المتلاحقة عن انقلاب عسكري آخر، أطاح بالنظام الملكي في مجزرة راح ضحيتها الملك الشاب فيصل الثاني وخاله الوصي السابق على العرش عبد الإله.

حدث ذلك في عام 1958 الذي شهد أيضا هدم مدرستي القديمة (أليانس لورا خضوري) على أيدي الغوغاء، ثم إعلان حظر السفر إلى الخارج، ومع حلول 1963 فُرِض على اليهود حمل بطاقات هوية صفراء اللون خاصة بهم... لم تكد تمر ثلاث سنوات على ذلك التاريخ حتى وجدت نعيمة نفسها مُحتجزة في سجن بغداد المركزي.

طيلة فترة زواجهما، حرص ساسون زوج نعيمة على توفير نمط حياة مُترف لهما، تمتعا فيه بآخر وسائل الرفاهية، لكن الحال تغيّر إثر وفاته قبل تسع سنوات، فبالرغم من كونها جدة لثمانية أحفاد وأمّا لخمسة أبناء، وجدت نعيمة نفسها أرملة وحيدة في الحادية والستين من العمر، إذ كان الجميع قد غادروا بغداد، واستقرت ابنتها "دوريس" وابنها "فرانكي" في تل أبيب، بينما اختار أولادها "موريس" و"داني" و"فريدي" السفر إلى الولايات المتحدة والعيش فيها، كما كان معظم أفراد جاليتنا قد رحلوا عن العراق الذي تقلّص عدد اليهود فيه إلى أقل من ثلاثة آلاف... توسّل أبناء شقيقتي والدتهم أن تلتحق بهم، لكنها ظلت تأمل أن تنجز تصفية ممتلكات الأسرة أولا، ثم تسافر على مهلها بعد أن تهدأ الاضطرابات والمشاعر المعادية لليهود، غير أن الأوضاع ازدادت سوءا، ومع صدور قرار بعدم منح تأشيرات خروج لليهود، وقعت نعيمة في الشرك ولم يعد بوسعها الرحيل.

المنفذ الوحيد المتبقي أمام الساعين إلى المغادرة كان عبور الحدود مع إيران كما ذكرت، فكان ينبغي عليهم التوجّه أولا إلى

"خانقين"[2] المحاذية للحدود، والواقعة على مبعدة مئة وثلاثين كيلومترا تقريبا شمال بغداد، ثم الاستعانة بدليل كي يقودهم في رحلة السير على الأقدام إلى الجانب الآخر... كانت خانقين قرية كردية، وشأن معظم الأكراد، كان أهلها متعاطفين معنا ومستعدين لتقديم يد العون لنا، أما إيران، فكانت لا تزال تحت حكم الشاه، ولها علاقات دبلوماسية مع إسرائيل، كما ضمّت العاصمة طهران جالية كبيرة من يهود العراق الذين التجأوا إليها واستقروا فيها عقب تدهور الأوضاع في بلدهم، وكانت من بينهم كلارا (ابنة شقيقتي ريجينا) وأسرتها.

كان لنعيمة العديد من الممتلكات التي تولّت أدارتها بنفسها، كما كانت مسؤولة عن تجارة زوجها ساس الذي توفي اثر نوبة قلبية في عام 1957، وكانت من بين أملاك الأسرة في خانقين قطعة أرض لم يكتمل بيعها، إذ اشترط المشتري لتسديد ثمنها حضور نعيمة كي تقوم بتسجيل القطعة باسمه، ثم حاول أن يجعل عرضه مغريا أكثر بتعهده أن يدبّر أمر تهريبها إلى إيران... نجاح عدد من اليهود بالفرار كان له الأثر الكبير في اتخاذ شقيقتي قرارها الجريء، رغم وجود حالات أخرى لهاربين تم الإمساك بهم وإعادتهم إلى بغداد، لكنها حزمت أمرها وأبلغت الرجل استعدادها للحضور، وتسجيل الأرض باسمه والتنازل عن ثمنها مقابل أن يتكفّل بإيصالها إلى إيران.

كانت نعيمة قد جمعت كل ما بحوزتها من نقد استعدادا ليوم مغادرتها، وقامت بشراء قطع من المجوهرات، أخفتها مع عدد من المسكوكات الذهبية في حزام لفته حول خصرها قبل انطلاق رحلتها إلى

خانقين... لم تكن شقيقتي غافلة عن مخاطر السفر بلا تصريح، كما نصّت القوانين الصارمة على عدم جواز إخراج أي شيء ذي قيمة عالية من البلد، لكنّها كانت متلهّفة بشدة للوصول إلى إيران، ولذلك شعرت بالانزعاج عندما أبلغها المالك الجديد بعد إنهاء إجراءات تسجيل الأرض أن تدبير خروجها سيستغرق ساعات عدة.

أُسقِط في يد نعيمة، إذ بات أمرها كله بيد الرجل الذي سمح لها أن تمضي الليلة في المزرعة، وقام وكيل الأسرة باستقبالها وتهيئة غرفة نوم لها فيها، لكن ضربات عنيفة على الباب أيقظتها في الصباح الباكر... لم يحل فزع شقيقتي دون حضور ذهنها، فأسرعت بتخبئة الحزام، ثم فتحت الباب لتجد أمامها رجال الشرطة الذين حضروا إثر بلاغ تقدّم به المشتري عنها.

تم اصطحاب نعيمة إلى مركز الشرطة، وشرع المأمور باستجوابها، لكنها أصرت على أن وجودها في خانقين كان بغرض إنجاز بعض المعاملات التجارية، ومتابعة شؤون أملاكها فيها، ولم تغيّر أقوالها حتى بعد قيام الشرطة بتفتيش الغرفة، والعثور على الحزام الذي عُدّ دليلا ضدها... أبلغها المأمور عندئذ أن المسألة قد خرجت عن نطاق صلاحياته، وأمر بإحالتها في اليوم التالي إلى القاضي المختص في بغداد، فأمضت شقيقتي ليلتها في الحجز.

تأثرت نعيمة لحضور ابن الوكيل إلى مركز الشرطة كي يشهد لصالحها، ويؤكّد للمأمور أنّها سيدة طيبة لم تظلم أحدا طيلة حياتها، كما أشاد بزوجها الراحل الذي أحسن إليه وإلى عائلته، بل وعرض أن يتم احتجازه عوضا عنها، لكن أحدا لم يُصغِ إليه.

تم إرسال شقيقتي في عربة شرطة متجّهة إلى بغداد في الصباح التالي، وكانت قد أعربت للمأمور عن قلقها من وجودها لوحدها مع رجاله، فأوعز مُتكرّما أن ترافقهم سيارة أخرى لتأمين سلامة وصولها، ونقل الحزام الذي عثروا عليه في غرفتها.

أمضت نعيمة الطريق الطويل من خانقين إلى بغداد في التوسّل إلى رجال الشرطة المرافقين لها كي يسمحوا لها بإجراء مكالمة هاتفية واحدة، فوافقوا أخيرا على إيقاف العربة لبرهة قصيرة، سارعت خلالها بالاتصال بمدير الشرطة وقتها، وكان صديقا مقرّبا لابنها موريس، وأبلغته بما تعرّضت له، والوجهة التي كانوا يقتادونها إليها... ما أن وصلت شقيقتي إلى بغداد حتى فوجئت بمدير الشرطة وهو يدخل عليها الزنزانة باكيا لرؤيتها في تلك الحال، ثم أوصى مأمور السجن برعايتها، وأن يحسن معاملتها ريثما يقوم بالاتصال بالوزير المسؤول لتأمين الإفراج عنها خلال أربع وعشرين ساعة.

استقبل الوزير الضيف في مكتبه بحفاوة، وأمر أن تُقدّم له القهوة، لكن مدير الشرطة قال: "قبل أن أشرب القهوة، لديّ طلب عاجل"، ثم مضى شارحا موقف نعيمة، وموضّحا للوزير أنها لم ترَ من أحفادها الثمانية سوى واحد.

"ماذا تقول؟" ردّ الوزير غاضبا... "لا أصدّق أنك جئت تطلب مني التوسّط لامرأة يهودية!".

محصلة المقابلة كانت سيئة للغاية، إذ أصدر الوزير أمرا لإدارة السجن بتغريم شقيقتي خمسة آلاف دينار، بما يعادل ثلاثة وستين ألف

جنيه إسترليني في هذه الأيام[3]، وأن يتم إيداع المبلغ خزينة الدولة.

أبلغت "ألست صبيحة"، مسؤولة سجن النساء نعيمة بما وردها، وقالت لها إن وضعها بات أسوأ من قبل.

بقيت شقيقتي سجينة بلا محاكمة لأكثر من سنتين، اندلعت خلالهما "حرب الأيام الستة"[4] في عام 1967 التي جرّت المزيد من الاضطهاد على اليهود المتبقّين في العراق، فصار رجال الشرطة السرية يراقبونهم حيثما ذهبوا، كما تمت مصادرة عقاراتهم، وتجميد حساباتهم المصرفية، وتسريح العاملين منهم في الدوائر الحكومية من وظائفهم... محال ومكاتب كثيرة أغلقت أبوابها بعد أن أُلغِيت التصاريح التجارية الممنوحة لأصحابها اليهود، بل وقطِعت عنهم خطوط الهاتف أيضا، كما فُرِضت عليهم الإقامة الجبرية في بيوتهم لفترات طويلة، وتم الزج بالكثيرين في السجون دون أن يُسمح لهم الاتصال بعوائلهم مثلما كان الحال مع نعيمة، وعانى آخرون من الضرب والتعذيب لانتزاع اعترافات منهم بالتجسّس لصالح إسرائيل، وهو ما أدّى إلى موت بعضهم.

حمدا للرب أن شقيقتي لم تتعرّض لأيّ من ذلك، لكن الحزن والضيق نالا منها، فمرضت، وقامت الست صبيحة باستدعاء طبيبة السجن لمعاينتها، وكانت الأخيرة مسلمة أيضا، فرقّ قلبها لحال نعيمة... مع مرور الوقت، جمعت صداقة وطيدة وثقة بين الثلاثة، فلم تتردّد مسؤولة السجن وطبيبته في المخاطرة أكثر من مرة في سبيل مساعدة صديقتهما في تهريب رسائلها لأفراد عائلتها.

كتبت نعيمة أولى رسائلها لابنها مارسيل، وشرحت له فيها موقفها، ثم قامت بإرسال رسالة لي في لندن حيث كنت أقيم مع أسرتي، وصفت فيها حالها، وترجّتني كي أساعدها، فأعدت قراءة السطور المرة تلو الأخرى والعبرة تكاد أن تخنقني... توجهت بالدعاء إلى خالقي، رغم أني قليلا ما أسأله العون في أموري الشخصية، ورحت أردّد همسا "شيما يسرائيل"[5]، وهي أهم صلواتنا على الإطلاق، فلعل الربّ يتولّى تأمين خروج شقيقتي السريع من السجن.

... ما العمل الآن؟ لمن التجئ لطلب المساعدة؟

كان ذلك زمنا عصيبا عانت بغداد فيه من اضطرابات سياسية متلاحقة، كما تم قمع شتى الأقليات، خصوصا الأكراد، واندلعت أعمال الشغب مجدّدا في أنحاء العاصمة، وتلطّخت أرجاء شارع الرشيد بالدماء، لكن الظلم بلغ مداه في عام 1968 مع الإعلان عن "الإيقاع بحلقة تجسّس صهيونية" من التجّار، وإعدام المُتآمرين المزعومين في السابع والعشرين من كانون الثاني عام 1969 في "ساحة التحرير"[6] عقب محاكمات صورية، وكان من بينهم ثمانية من اليهود.

دعا صدام حسين (نائب رئيس الجمهورية المعيّن حديثا) كل مستمعي إذاعة بغداد إلى "الحضور للاحتفال بالعيد"، فتدفق على الميدان مئات الآلاف من العراقيين، وراحوا يهزجون حول القوائم التي تدلّت منها أجساد المشنوقين وهي تحمل علامات كُتب عليها "يهودي"، ويهتفون عاليا: "الموت لإسرائيل!" و"الموت لكل الخونة!" ثم انتُهِكت حرمات الجثث التي تُرِكت مُعلّقة تحت الشمس الحارقة طوال النهار.

استمر احتجاز شقيقتي العزيزة في ظل تلك الأوضاع الملتهبة، وبقيت تحت رحمة بشر كأولئك، لكن المصاعب لم تنل منها، وظلت صامدة بشجاعة كانت محط تقدير الجميع.

بربرية الإعدامات الجماعية ومشاهد الجثث المشنوقة المعلّقة صدمت الرأي العام العالمي وأثّرت فيه، فشرعنا بالتحرّك لإنقاذ نعيمة، وسارع ابنها موريس في نيويورك بالاتصال بعدد من الشخصيات السياسية البارزة، وأعضاء مجلس الشيوخ الذين قرّروا بدورهم الاستعانة بخدمات مستشارين، وتوكيل محامين مرموقين لمتابعة قضيتها، وانفقوا مبالغ كبيرة في سبيل ذلك، بينما لفتت ابنتها دوريس في إسرائيل وزيرا في الحكومة، وكان بغدادي الأصل أيضا، إلى خطورة موقف والدتها، فأخذ على عاتقه إثارة موضوع نعيمة كمثال لاستمرار اضطهاد اليهود في العالم العربي خلال مباحثاته مع نظيره الأردني الذي راعه ما سمع، ووعد بتحري الأمر.

انطلقت حملات دعم ومظاهرات احتجاج في أنحاء مختلفة من العالم، فقامت جاليتنا في لندن بتنظيم مسيرة ليلية على أضواء الشموع، شاركنا فيها أنا وداود ولينا وميرا وطفلي الثالث "سيمون"، بالإضافة إلى العديد من الأصدقاء والغرباء الذين تعاطفوا مع معاناة شقيقتي، بينما اعتصمت قلة ضمّت ميرا أمام مبنى السفارة العراقية حتى طلوع النهار، وقام حاخام بتلاوة دعاء "قاديش"[7] الذي يُقرأ عند الموت، ثم نفخ في الشوفار، فأصاب الارتباك طاقم العاملين في السفارة الذين اعتبروا سماع الدعاء اليهودي والصوت المنبعث من قرن الكبش نذيري شؤم،

خصوصا وأن دوي الأخير كان ردفا لمناسبات الحزن والفجيعة مثل يوم كيبور... غطت محطات التلفزة الحدث، وكتبت عنه الصحف في الأيام التالية، وعن الصلاة التي أقيمت على روح أحد الرجال المعدومين في منزل أقاربه في لندن، وكنا من المشاركين فيها أيضا، لكن ذلك لم يزحزح السلطات العراقية عن موقفها المُتعسّف.

اتباع حدسي في أوقات الشدّة عوضا عن الإصغاء فقط لصوت العقل كان أحد الدروس التي تعلّمتها من الحياة، فوجدتني ذات يوم أترك العنان لقدميّ كي تقوداني إلى "نادي الغاردينيا" الذي كان ملتقى يهود العراق في العاصمة البريطانية، حيث قمت بشرح محنة شقيقتي لكل الموجودين فيه... كان رئيس النادي "نعيم دنغور" حاضرا، فاشار عليّ بالتواصل مع "منظمة العفو الدولية" التي لم أكن قد سمعت بها من قبل، إذ كانت لا تزال فتية(8)، لكن الأيام أثبتت أن نصيحته كانت في محلها.

قمت بزيارة مكتب المنظمة أكثر من مرة حتى قرّر رجل لطيف للغاية هو السير "أوزموند وليامز" تبنّي قضيتي، لكنه أوضح لي عندما قابلني أنه ليس محاميا، وأن منظمة العفو هيئة خيرية غير حكومية تسعى إلى الحفاظ على حقوق الإنسان، وبالتالي فنتائج جهودها في ذلك الاتجاه غير مضمونة، ثم سألني: "فلنفترض أني ذهبت لمقابلة السفير العراقي، ماذا عساي أقول له؟".

"أبلغه أن والديّ ما زالا على قيد الحياة، وأنهما قلقان بشدة بشأن شقيقتي، وأبلغه أن من بين أحفادها من يوشك على الإنجاب، وأنها قد

تجاوزت السبعين من العمر!" لم تكن نعيمة قد بلغت تلك السن بعد، لكنني لجأت إلى المبالغة كي يكون لكلماتي تأثير أكبر... "ذكّره أيضا أن كل ممتلكاتها من أموال وعقارات ومجوهرات قد صودرت، أي أنها دفعت ثمنا باهظا وعانت بما يكفي، فهي محتجزة منذ عامين بلا محاكمة!".

اختنق صوتي بالبكاء عند الجزء الأخير، وبدت علامات التأثر على مستمعي، لكنني لم أعوّل كثيرا على الأمر، فبعد كل الخيبات التي أصابتنا، بت أخشى التعلّق بالمزيد من حبال الأمل الواهية.

قضية نعيمة لم تكن قد عُرِضت بعد على المحكمة في بغداد، ولم يتم تكليف قاض للبت فيها حتى ظننا أن احتجازها سيستمر إلى أجل غير معلوم، لكن يبدو أن تدخّل العديد من الجهات الأجنبية التي لجأنا إليها من محامين وأعضاء مجلس شيوخ، وكذلك الوزير الأردني ومنظمة العفو الدولية، وإثاراتهم المتعاقبة لموضوع شقيقتي مع السلطات العراقية قد أتت أكلها أخيرا، فقد جاءت الست صبيحة ذات يوم إلى زنزانة نعيمة كي تزفّ إليها بشرى صدور قرار بإخلاء سبيلها.

الإفراج كان مشروطا بذهاب شقيقتي إلى خزينة الدولة للتوقيع على وثيقة تؤكد موافقتها على التنازل "طوعيا" عن كل ما كانت تمتلكه من مزارع وعقارات وتجارة وأرصدة مصرفية للحكومة العراقية، مقابل حصولها على الحرية... لم يكن أمام نعيمة خيار آخر.

وصلت شاحنة مخصّصة لنقل الماشية كي تأخذها من السجن، فكان على شقيقتي المُسنّة أن تتسلّق مؤخرة الشاحنة المرتفعة

المفتوحة، وتبقى ممسكة بجوانبها طيلة الطريق كي لا تسقط، وهو ما بدا لها مستحيلا، فقالت للسائق: "كيف لي أن أصعد؟ ألا تكفيهم الأموال التي "سأتبرّع" بها لإرسال سيارة مناسبة تقلّني؟".

"معك حق سيدتي، لكن رفضكِ الصعود سيعرّضني لمشاكل جمّة قد تؤدي إلى خسارتي وظيفتي، فأرجوكِ أن تساعديني!" توسّل إليها السائق، ثم أردف: "سأجثو على ركبتيّ ويديّ كي تصعدي على ظهري".

أشفقت شقيقتي على الرجل، فقامت بخلع فردتي حذائها وامتثلت لرغبته، لكن الرحلة كانت شاقّة للغاية، عانت خلالها من صفير الريح في أذنيها، والمطبّات التي دكّت عظامها وهي تحاول جاهدة مقاومة السقوط... بالرغم من مرور أربعين سنة، ما زالت نعيمة تعاني من آثار الطريق من آلام في الأذنين والظهر، لكنه الثمن الذي تحتم عليها دفعه كي تنال حريتها.

أرادت شقيقتي الذهاب إلى منزلها لحزم حقيبتها، لكن طلبها رُفِض، كما رُفِض السماح لها بزيارة قبر زوجها لآخر مرة، فقاموا بنقلها إلى المطار، وإعطائها بعض المال كمصروف جيب، ثم وضعوها على متن طائرة متّجهة إلى طهران، ومنها إلى تل أبيب قبل أن ينتهي المطاف بها في نيويورك.

لم يكن بوسع نعيمة فهم سر الإفراج المفاجئ عنها أو طرح السؤال الذي كان على طرف لسانها منذ أن أُبلِغت بالأمر، وحتى وصولها إلى صالة المغادرة حيث شعرت ببعض الطمأنينة... حينها فقط

تجرّأت على الاستفسار من مرافقها الذي قال لها إن القرار جاء نتيجة تحوّلها إلى مصدر إحراج للسلطات.

استلمتُ في لندن برقية من مكتب منظمة العفو الدولية في باريس، أكّدت إطلاق سراح شقيقتي ووصولها إلى إيران، فقمت على التو بالاتصال بنيويورك وزف البشرى لموريس، ثم كلّمت نانا وبابا وأبناء نعيمة الباقين في إسرائيل الذين ابتهجوا لسماع الخبر السار، وشكروا الرب لاستجابته لدعائنا.

نعيمة كانت آخر من غادر العراق من أفراد عائلتي...

فوداعا يا بغداد!

مع السلامة يا أرض بابل!

في أمان الله يا جنة عدن!

هوامش الرسالة الرابعة عشرة

(1) تعني "الارتقاء" بالعبرية، لكنها باتت مرادفة لعودة اليهود من دول الشتات إلى أرض "إسرائيل".

(2) تقع المدينة والقضاء إداريا ضمن محافظة "ديالى" في شرقي العراق، وهي من المناطق الثريّة بالنفط، وموضع نزاع بين الحكومة المركزية وإقليم كردستان.

(3) يجب الأخذ بنظر الاعتبار أن تقدير قيم المبالغ المذكورة في الكتاب قد تم في الفترة التي سبقت صدور طبعته الأولى في بريطانيا عام 2008.

(4) المعروفة لدى الشعوب العربية بـ "النكسة" لأنها أسفرت عن ضم إسرائيل القدس الشرقية والضفة الغربية وقطاع غزة ومرتفعات الجولان إلى أراضيها.

(5) تعني "اسمع يا إسرائيل!" بالعبرية، وهي مأخوذة من نص توراتي، وتتضمّن الشهادة بوحدانية الخالق.

(6) من أكبر وأشهر ميادين العاصمة، تقع الساحة في مركز بغداد على جانب الرصافة، ويشخص في حدّها "نصب الحرية" الشهير للرسّام والنحات الراحل "جواد سليم".

(7) تسبيح بحمد الرب، جرت العادة على تلاوته عند فقد الأحبة للدلالة على رسوخ إيمان الداعين واحتسابهم.

(8) "Amnesty International" تأسّست في لندن عام 1961.

... الما بعد

كانون الثاني، 2006

قبل عشرين عاما، دوّنت الملاحظة التالية وأنا أشرع في سكب الذكريات الأقرب إلى قلبي على الورق: "جُلّ ما سأخبركم عنه لم يعد موجودا، فتلك كانت *بغدادي*، أرضي الأم التي ترعرعت في حضنها، وبالكاد بقي لها أثر اليوم، كما لو أنها كانت خطوط طباشير أزالتها مُمحاة من على اللوح، استعدادا لكتابة قصة جديدة".

سطّرت الألفية الثالثة رواية موجعة ذات فصول متفاقمة عن العراق الذي احتل عناوين الصحف ونشرات الأخبار على شاشات التلفزة... لم يظل شاخصا من آثار أيامنا في بغداد سوى أقل القليل، فذاك الصوب، أو الضفة الأخرى من دجلة التي كانت الخيم والأكواخ المتفرقة تعانق خط الأفق فيها مع أشجار النخيل صارت جزءا مهما من مركز المدينة، وسكنها العديد من الوزراء، وشُيّدت فيها أبنية ضخمة، أما جانب الكرخ حيث تقع القصور الرئاسية و"ساحة الاحتفالات الكبرى"[(1)] الشهيرة التي حيّا صدام حسين الجماهير فيها، فكانت أهدافا حيوية خلال حربي الخليج في 1991 و2003 عندما انهمرت عليها سيول من الصواريخ التي دكّتها دكّا، وتمترس فيها لاحقا المحتلون الجدد من الأمريكان ضمن ما

عُرِف بـ "المنطقة الخضراء"[2]، كما تشرذم عرب العراق إلى فرق متنازعة راح بعضها يذبح بعضا.

... فإلى أين تمضي الأحداث، ومتى وكيف ستنتهي المواجهات؟

بقي بابا ونانا عازمين على العودة إلى العراق حالما تستقر الأوضاع فيه، ورفضا بيع القصر الذي تمّت مصادرته، ثم هُدِم ضمن حملة تحديث بغداد، وأُقيم فندق "بابل أوبروي"[3] على أرضه، واحتل حرم "جامعة بغداد"[4] مساحة شبه جزيرة الكرّادة، واختفت الجزرة التي كانت وجهتنا المفضّلة للتنزّه، وأيضا معالم الأحياء التي كان يسكن فيها أصدقاؤنا، كما قُطِعت شجرة التوت في حديقة جارنا زعيم الطائفة السنيّة من بيت النقيب، إذ شُيّد جسر في موقع الدار على الجانب الأيمن من قصرنا، حيث اعتاد حمار مسن أعمى أن يمضي النهار سائرا في دائرة لرفع الماء من النهر لري بستان صاحبه، بينما تتكفّل محطات الضخ في يومنا هذا بإيصال المياه إلى الجميع، وان تسببت أعمال التخريب والاضطرابات في حصول أعطال وقطوعات متكرّرة في إمدادها.

كنت حزينة للغاية لتركي بغداد التي شهد جيلي ازدهارها ونهضتها بعد عصور من الظلام، وآلمني بشدة فراق المدينة التي شاركناها أفراحها وأتراحها، ورقبناها وهي تنمو وتتطوّر على نحو سريع لم يعرف تأريخها الممتد له مثيلا، وكان لنا دور بارز في دفعها للحاق بركب التحضّر كي يعم الخير والرخاء سائر أهلها... كيف أنسى الأرض التي عشنا عليها جنبا إلى جنب مع المسلمين قبل أن تعكر الاضطرابات صفو علاقتنا، وما نتج عن ذلك من ظلم واعتداءات تعرضنا لها خلال عهد رشيد عالي؟

لم نستطع أبدا أن نفقه سبب نقمتهم علينا، نحن الذين كنا أخلص مستشاريهم وموضع ثقتهم، ما الذي أطاح بمكانتنا المرموقة التي اكتسبناها عبر تفانينا في خدمة المجتمع دون النظر إلى أي اعتبار لدين أو ملّة؟ كان من بيننا من تبوّأوا مقاعدا برلمانية، كما تقلّد أحد رجالنا كرسي رئيس المحكمة العليا، وهو أعلى منصب قضائي في عموم البلاد، ولم تكن الحكومة تتدخّل في شؤون عقيدتنا، واحترمت طريقة عيشنا، رغم اختلافها عن حياة سائر المسلمين في بعض مفرداتها، لكنها كانت في أغلبها مشابهة للسائد ومتوافقة معه... خير مثال على ما ذكرته أن جميع مرافق المدينة كانت تغلق أبوابها في أيام السبت، احتراما لطقسنا في الشاباث، الأمر الذي لم يكن يحدث حتى في أيام الجمع.

كنا نُعامل على قدم المساواة مع الآخرين وكانت أفعالنا، لا ديننا، هي الفيصل في التعاطي معنا قبل أن تبث النازية ونظيراتها من الحركات القومية سموم الفتنة التي عكّرت صفو حياتنا، وانتشرت كالوباء في مدننا... أفكر أحيانا أن سبب انقلاب أخوتنا العرب علينا هو أننا كنا أهدافا سهلة أمامهم، فلم نكن نتحرّج من الظهور ولا نجد مُبرّرا للاختباء، وقد يكون ذلك ما جعلهم يؤثرون مهاجمتنا، والتنفيس عن غضبهم من خلال استهدافنا، عوضا عن قتال بعضهم البعض الذي ستكون له تبعات وخيمة[5]، لكن بالرغم من نبذ شعبنا لنا، كنا نعلم أن جيراننا لم يكونوا أشرارا، وأنهم في دواخلهم لا يمقتوننا، فقد أحسن كثر منهم معاملتنا، وعبّروا عن استيائهم لرؤيتنا ونحن نحزم حقائبنا استعدادا للرحيل.

... ألم نكن حتى الأمس رفاقهم وندماءهم؟

انتهى وقت الأسئلة مع اقتلاعنا من جذورنا، وبعثرتنا في أنحاء الأرض كما يُنثر الريش الذي تُحشى به الوسائد، فأنّى يمكن جمعه من جديد؟

ابتدأت رحلة تجوالنا في البلاد بحثا عن مدينة نضرب فيها جذورا جديدة، وتصير لنا وطنا بعد تركنا لبغداد، فاستقر المقام بنا أخيرا في لندن التي تأقلمنا بسرعة مع حياتنا فيها، إذ كان عدد لا بأس به من أبناء جاليتنا قد سبقونا إليها، وقاموا بتأسيس نادي الغاردينيا الذي أتاح لنا لقاء المعارف ولعب الورق والطاولة معهم، وتجاذب أطراف الحديث عن الأيام الخوالي، واستعادة أغنياتنا القديمة الأثيرة على القلوب، وكانت الأمسيات تنتهي دائما بولائم مكوّنة من أطباقنا التقليدية.

خبرت في لندن لأول مرة شعور أن يكون المرء مجهولا، خصوصا وأن لهجتي لم تكن بجودة لهجة الإنكليز، فكان يحدث كثيرا أن يقوم رفاقي في لعب الورق من غير العراقيين بسؤالي عن وطني الأم، ولم يكن يسيرا عليّ أن أعطيهم إجابة مباشرة في زمن كان يجهل الكثيرون فيه موقع العراق، بينما ظن من عرفه منهم أن جميع أهله من المسلمين، فماذا عساي أن أرد؟

حاولت في البداية أن أشرح لهم تعقيد الموضوع، وخلفياته المتشابكة، لكنهم كانوا يدهشونني بقولهم: "أوه، أنت أجنبية إذا!"... هكذا، بكل بساطة، وكأن صفة أجنبية تختصر كينونتي بأكملها، ولذلك خطر لي ذات يوم أن أجرّب الإجابة عن السؤال بقولي: "أنا أجنبية"، فاكتفى السائل بردي المُقتضب، ولم يطالب بتوضيح.

مع تعاقب سنوات عيشنا في لندن، وتقدم العمر بي وبأفراد الجالية الذين كانوا يشاركونني الحنين إلى بغداد أيام زمان، بدأ عدد مرتادي نادي الغاردينيا يقل تدريجيا، ولم يُبدِ أبناؤنا اهتماما يُذكر بحضور لقاءاتنا التي بدت غريبة عنهم، فقد اندمجوا ببيئتهم الجديدة، وصارت لهم مشاغلهم الخاصة، كما بات لبعضهم أطفال لا يجيدون التحدّث بالعربية، ولا يفهمون منها شيئا... كل ما سبق أدى لإغلاق النادي وبيع العقار، فشعرت كأن يدا خفية تسعى لقطع الخيوط التي ربطتني بحياتي السابقة، خيطا تلو آخر.

غايتي من كتابة رسائلي هذه كانت أن أخبركم أيها الأبناء والأحفاد عن أصولكم الحقيقية قبل أن يندثر كل شيء مثلما حدث مع نادي الغاردينيا... أردت أن أروي لكم تفاصيل عيشنا، وما مررنا به دون إصدار أحكام، *فبغدادنا، بغدادي*، ذهبت، ولن تعود.

أتساءل بيني وبين نفسي أحيانا إن كان عمال الإنشاءات قد عثروا على الكنز الذي أودعه بابا أساسات قصرنا في الجهة اليمنى من بابه الرئيسية، تحت موضع تعويذة الميزوزا تحديدا، جلبا للحظ الحسن، وما زلت أذكر اليوم الذي أخبرنا والدي فيه عن الأمر بسرية تامة، فبعد أن غادر البنّاؤون الموقع، قام بابا ليلا بوضع جرّة صغيرة مليئة بالعملات الذهبية مع رسالة مكتوبة بالعبرية القديمة في أساس الدار، وأحاطها بالآجر في الصباح الباكر.

... ترى، ما الذي حلّ بكنز بابا الدفين؟

هوامش الما بعد

(1) افتتحت في نهاية الثمانينيات، وكانت تضم مضمارا للاستعراضات العسكرية ومنصّة مطلّة عليه، وشيّد فيها لاحقا قوسا "نصر" على هيئة سيوف متقاطعة.

(2) وقع الاختيار عليها كي تكون مقرا لقيادة قوات التحالف ومجلس الحكم الانتقالي وعدد من السفارات قبل أن يتم تسليمها إلى الحكومة العراقية.

(3) افتُتِح في مطلع ثمانينيات القرن السابق، وقيل إن تصميمه الخارجي قد استوحى الزقورات العراقية القديمة، لكنه تعرّض لعدد من الهجمات والتفجيرات خلال العقدين الماضيين، كما تعاقبت على إدارته شركات عدة.

(4) المقصود هنا هو "مجمّع الجادرية" الذي ضم مقر رئاسة الجامعة وعددا من أقسامها، وكان المعمار العالمي ألماني الأصل "Walter Gropius" ومكتبه المعروف بـ "TAC" قد وضعا تصميمه في أواخر الخمسينيات.

(5) الأمر الذي حدث بالفعل، وما زال يحدث.

خاتمة

أمضت فيوليت وداود وابنتيهما لينا وميرا سنتين ونصف في بومباي، وكانوا يقضون شهور الصيف في مدينة بونا... ازدهرت تجارة الأسرة خلال إقامتها في الهند، بينما انهمكت فيوليت في تربية طفلتيها، وباتت لها حياة اجتماعية سعيدة، لكن حالتها الصحية بدأت بالتدهور بدون سبب ظاهر، وعانت من نوبات ربو حادة بالتزامن مع أخذ بابا ونانا قرار مغادرة العراق أخيرا والتوجّه إلى فلسطين، الأمر الذي شجّع فيوليت على شد الرحال مع أفراد أسرتها نحو الأرض المقدسة للالتحاق بوالديها.

في عام 1944، أبحرت سفينة الركاب التي كان الأربعة على متنها ضمن موكب مكوّن من عشرين سفينة تكفّلت قوات البحرية الملكية بحمايتها حتى وصولها إلى وجهتها النهائية في الشرق الأوسط... استغرقت الرحلة ثلاثة أسابيع، وعلق في ذاكرة فيوليت منها مشهد البحّارة وهم ينصبون الشباك يوميا على هيكل السفينة لاصطياد الطيور المهاجرة، أو "العصافير" كما كانت تسمّيهم، ثم يعهدون بها إلى الطاهي الذي كان يقدّمها للركاب كوجبة عشاء.

لم تستسغ ميرا فكرة قتل الطيور وطبخها، لكن لينا كانت تستمتع بتناولها، وتجدها لذيذة للغاية... بعد توقّف قصير في ميناء بور سعيد،

استأنفت السفينة إبحارها إلى حيفا التي أشّر وصول الأسرة إليها بداية فصل جديد من الحكاية.

لم تعد فلسطين في عام 1944 الجنّة التي كانتها في السابق، فأثر الحرب العالمية الثانية كان باديا على كل مفردات الحياة اليومية للناس، كما شهدت السنوات التي سبقت إعلان الاستقلال عن بريطانيا في 1948 الكثير من الأحداث العاصفة من تفجيرات وهجمات ضد سلطة الانتداب، لكن يوما بعينه لن يُمحى قط من ذاكرة الأسرة التي استقر بها المطاف في شهر شباط من عام 1948 في سكن قريب من شارع "بن يهودا"[1] في أورشليم، إذ استهدف انفجار هائل مبنى "البريد الفلسطيني"، وأسفر عن مقتل ستة وخمسين يهوديا وتشويه الكثيرين، كما تسبب بتشظّي زجاج نوافذ الشقة التي كانوا يقطنونها بالإيجار.

الحادث المريع شكّل نقطة تحوّل في حياة الأسرة التي كانت قد تنقّلت برفقة قطع الأثاث التي جلبتها معها من الهند بين عدة مساكن، أملا بأن يخفّف تغيير الأماكن من معاناة فيوليت مع الربو، لكن الأمر استمر على ما هو عليه، وكان عدد الأبناء قد ازداد واحدا مع وضع فيوليت الطفل الصبي الذي طال انتظاره قبل ثلاث سنوات في تل أبيب، وحمل اسم سيمون، تيمنا بجدّه لأبيه شمعون.

مع تصاعد وتيرة العنف وتفاقم الحالة الصحية لفيوليت، قررت الأسرة الرحيل مرة أخرى، فاتخذت من قبرص وجهة لها هذه المرة، وكان ذلك قبل أسابيع فقط من استعار نيران الحرب التي شنّتها الدول العربية المجاورة على إسرائيل اثر إعلان الأخيرة استقلالها، وتزامن

الهجوم مع احتفال ميرا بعيد ميلادها السابع.

تبخّر سريعا الأمل بالعثور على ملاذ آمن في قبرص الخاضعة لحكم البريطانيين، فما كادت الأسرة تتأقلم على حياتها الجديدة في "نيقوسيا"، حتى سقطت الجزيرة في قبضة "المنظمة الوطنية للمقاتلين القبارصة"[(2)] الساعية لضم قبرص إلى اليونان، وتلا ذلك اندلاع مواجهات عنيفة بين القبارصة اليونانيين والقبارصة الأتراك، كما تعرّضت القوات البريطانية هناك إلى سلسلة من الهجمات... الحدث الذي كان أشبه بالمعجزة هو شفاء فيوليت أخيرا من الربو، وهو ما عجز الأطباء في نيقوسيا عن إيجاد تفسير له، لكنها استنتجت بعد مراجعة محطات رحلتها أن السبب ربما كان ترك الأسرة قطع الأثاث القديم وراءها هذه المرة، تحديدا مرتبة القطن التي كانوا قد ابتاعوها من بومباي، وقام أحد الندّافين الهنود بصناعتها وفق مقاييس السرير، ثم رافقتهم في حلّهم وترحالهم، دون أن تدرك فيوليت أنَ علّتها لم تكن سوى حساسية نتجت عن نومها على المرتبة طيلة السنوات الماضية.

انتقلت الأسرة عام 1964 للعيش في لندن حيث توفي داود بعد مرور عشر سنوات على ذلك التاريخ، فاستمرت فيوليت في السكن لوحدها في شقتهما، ومتابعة تطوّرات الأحداث في العراق عن كثب عبر القنوات الفضائية، وكذلك التواصل اليومي عبر الهاتف مع شقيقاتها الباقيات على قيد الحياة والمقيمات في الولايات المتحدة وإسرائيل: نعيمة وفهيمة وديزي.

في الحادي والعشرين من آذار سنة 2006، فارقت فيوليت الحياة عن أربعة وتسعين عاما عقب اعتلال صحتها، لكنها بقيت حتى النهاية محاطة بمحبة ورعاية أبنائها وأحفادها وأبناء أحفادها الذين كتبت من أجلهم رسائلها هذه.

لحقت نعيمة بشقيقتها بعد مرور شهر واحد، إذ وافتها المنيّة في بلدة "فورت لي" الواقعة ضمن ولاية "نيو جيرسي" في الولايات المتحدة قبل أسابيع ثمانية فقط من بلوغها المئة، تاركة وراءها خمسة أبناء، أما ديزي فقد توفيت بعد ثمانية شهور في كانون الأول من عام 2006 في تل أبيب عن عمر ناهز السادسة والثمانين، ولها من الأبناء اثنان، وكانت مارسيل المقيمة في تل أبيب ثانية الراحلات، إذ ماتت في نيسان من عام 2005 وهي في الرابعة والثمانين، ولها من الأبناء اثنان يعيشان في البرازيل، أما أولى المغادرات، فكانت ريجينا التي توفيت في تل أبيب أيضا عام 1997 عن عمر ناهز الرابعة والتسعين، ولها ستة أبناء.

أخر الشقيقات رحيلا كانت فهيمة التي ماتت في شهر تشرين الأول من عام 2008 اثر بلوغها السابعة والتسعين، ولها من الأبناء خمسة، وكانت قد أمضت السبعين سنة الأخيرة من حياتها مقيمة في ذات الشقة التي وطأتها أول مرة عند وصولها إلى تل أبيب على متن الحافلة التي أقلتها من بغداد،

توفي سلمان عن عمر ناهز السابعة والتسعين في شباط من عام 2005 في مدينة "بني براك"(3)، وكانت فيوليت قد التقت بفتاة جميلة من بنات الجالية اليهودية خلال إقامتها في بومباي، فرشحتها للزواج من

شقيقها، وحملت العروس اسم فيوليت أيضا[4]... انتقل الزوجان للعيش في إسرائيل بعد فترة وجيزة من ارتباطهما حيث أوغل سلمان في التديّن، وسار أبناؤه الخمسة على خطاه.

عاش بابا ونانا في تل أبيب بعد مغادرتهما بغداد، ثم التحقا بفيوليت في نيقوسيا حيث أقاما لسنوات معدودة، لكنهما عادا إلى إسرائيل، وقاما ببناء دار في بني براك، قطنا في الطابق العلوي منه، بينما احتل سلمان وأسرته الطابق الأرضي... امتد العمر ببابا ونانا حتى جاوزا التسعين، فتوفيت نانا أولا في عام 1973، ثم لحق بها زوجها عام 1975.

بعد مرور خمس سنوات على وفاة شمعون والد داود في بغداد عام 1945، التحقت والدته "حبيبة" بابنها الأكبر هارون الذي كان يعيش مع أسرته في مدينة "ميلانو"[5] الإيطالية، لكنها توفيت بعد فترة وجيزة من وصولها، أما شقيقات داود الثلاث، فقد هاجرن جميعا إلى إسرائيل حيث عشن ومتن تباعا، بينما انضم غالي الذي كان شديد الإعجاب بـ "غاندي"[6] إلى "آشرام"[7] في الهند، وبقي فيه حتى لقي حتفه في ظروف غامضة عام 1955... توفي هارون في ميلانو عام 1987 عن عمر ناهز السابعة والثمانين، وما زالت زوجته فيوليت على قيد الحياة، ولهما من الأبناء اثنان.

فرّ رشيد عالي والمفتي العام للقدس الحسيني مُتنكّرين إلى طهران، ثم غادراها إلى برلين التي أمضيا فيها باقي سنوات الحرب... لم يعد لأي منهما تأثيره ونفوذه السابقان، فتنقّل رشيد عالي بين المنافي

في السعودية ومصر قبل أن يعود إلى بغداد عقب إسقاط الحكم الملكي في العراق عام 1958، ثم اتُهم في شهر كانون الأول من تلك السنة بالتدبير لمحاولة انقلاب ضد الرئيس "عبد الكريم قاسم"[(8)]، فأودع السجن وحُكِم عليه بالإعدام، لكنه مُنِح عفوا خاصا في عام 1961، وغادر العراق سريعا للاستقرار في بيروت التي وافته المنية فيها بعد مرور أربع سنوات.

استمر المفتي في محاولاته لتجنيد الشباب من المسلمين في يوغوسلافيا للقتال مع الألمان دون أن يحالفه التوفيق، وإن عُرِف جنوده بأنهم أكثر شراسة وفتكا باليهود من رجال الـ "شوتز شتافل"[(9)] والـ "غستابو"[(10)]... أُلقي القبض عليه في فرنسا، لكنه نجح في الفرار إلى مصر عام 1946، ومكث فيها في ضيافة الملك "فاروق"[(11)]، ثم سافر إلى لبنان، ومات فيه عام 1974.

التهمت النيران منطقة سوق الشورجة العتيق في شهر نيسان من عام 2005، وقدرت قيمة الخسائر التي تسبّب بها الحريق بأكثر من مليون دولار أمريكي، كما أسفر عن محو آخر ما تبقى من آثار بغداد القديمة، لكن الحدث لم يرد في عناوين نشرات الأخبار[(12)] بالرغم من جسامته، أما المقبرة اليهودية الواقعة على الطرف الشرقي من العاصمة بالقرب من الأحياء الفقيرة التي يقطنها أكثر من مليوني مسلم من أبناء الطائفة الشيعية[(13)]، فتعاني حاليا من الإهمال الشديد.

اتخذ الآلاف من يهود العراق أوطانا بديلة لهم من الدول التي هاجروا إليها بحثا عن الأمان في شتى بقاع الأرض، تحديدا في إسرائيل

والولايات المتحدة وكندا وأستراليا وبريطانيا... لا يتجاوز عدد أفراد الجالية اليهودية اليوم في بغداد أثني عشر شخصا، بمن فيهم آخر الحاخامات الذي أعلن في يوم كيبور من عام 2006 عن نيته مغادرة العراق.

هوامش الخاتمة

(1) شارع رئيسي في وسط المدينة، يُعرف أيضا بتسمية "ميدراخوف".

(2) المعروفة بـ "EOKA" اختصارا لاسمها باليونانية.

(3) مدينة تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، شرق تل أبيب.

(4) زوجة سلمان كانت ثالث فيوليت في العائلة، فبالإضافة إلى صاحبة الرسائل، حملت زوجة هارون شمّاش اسم فيوليت أيضا.

(5) ثاني أكبر حواضر إيطاليا بعد العاصمة روما، وتقع في شمال البلاد.

(6) الزعيم الهندي المعروف الذي قاد حركة استقلال أمته عن بريطانيا عن طريق العصيان المدني السلمي (1869-1948).

(7) مركز أو معتكف لممارسة التأمل، وبعض النشاطات الروحانية.

(8) مولود في بغداد عام 1914، وهو أحد أبرز أعضاء تنظيم "الضباط الأحرار" الذي أطاح بالحكم الملكي في العراق في 14 تموز عام 1958، وكان أول من تقلّد رئاسة الوزارة في العهد الجمهوري. تم الانقلاب عليه سنة 1963، وأُعدِم رميا بالرصاص.

(9) المعروفة اختصارا بـ "SS" ويعني اسمها بالألمانية "وحدة الوقاية"، تأسست في عام 1925، وكانت مهمتها في البدء تأمين الحماية لهتلر، لكنها تحولت لاحقا إلى واحدة من أكثر منظمات النازية إجراما.

(10) جهاز المخابرات الألماني سيئ الذكر الذي أسسه هتلر عام 1933، وكان مسؤولا عن عدد من أبشع جرائم النازية.

(11) عاشر حاكمي مصر من سلالة "محمد علي" وملكها قبل الأخير. وُلِد في القاهرة عام 1920، وأطاح انقلاب عسكري بحكمه عام 1952، فعاش منفيا حتى وفاته في عام 1965.

(12) تم العثور على روابط لصفحات عدة في مواقع إخبارية عراقية وعربية أوردت اندلاع حريق هائل في سوق الشورجة، ربما كان المقصود هو عدم إجراء تحقيق جاد لمعرفة سبب الحادث الذي دار حوله لغط كبير.

(13) تُعرف اليوم بـ "مدينة الصدر"، وكانت تُدعى سابقا "الثورة" قبل أن يقرر صدام حسين إطلاق اسمه عليها في الثمانينيات.

فيوليت شمّاش (1912-2006)

وُلِدت في بغداد، واضطرت إلى الفرار من العراق إلى الهند برفقة زوجها وطفلتيها عقب أحداث الفرهود عام 1941... ارتحلت فيوليت مع الأسرة بعد ذلك للإقامة في كل من فلسطين وقبرص وإسرائيل قبل أن يستقر المقام بها في لندن في عام 1964، حيث شرعت في تدوين مذكراتها في ثمانينيات القرن العشرين.

ميرا روكا (ابنة فيوليت)

عملت في قطاع السياحة والسفر في بريطانيا قبل أن تقوم مع زوجها توني بافتتاح فندق ومصنع للنبيذ في توسكاني الإيطالية.

توني روكا

صحفي بريطاني، مارس مهنته لسنوات في لندن ضمن طاقمي تحرير جريدتي الـ ***Daily Mail*** والـ ***Sunday Times*** قبل أن يعمل مراسلا في نيويورك... ظهرت كتاباته كمؤلف مستقل في العديد من المطبوعات في كل من بريطانيا والولايات المتحدة، ومن أعماله المنشورة كتاب سيرة بعنوان ***Catching Fireflies***.

علي شاكر

مهندس معماري عراقي/ نيوزلندي، مؤلف كتاب ***A Muslim on the Bridge*** ورواية ***كافيه فيروز*** وكتاب ***صدام وأنا ومتلازمة ستوكهولم***... نشر العديد من المقالات والمراجعات والترجمات في العالم العربي والولايات المتحدة وبريطانيا ونيوزلندا التي يحمل عضوية اتحاد كتابها، وهو أيضا مدوّن في ***Arcade*** (جامعة ستانفورد).

«جُلّ ما سأخبركم عنه لم يعد موجودا،
فتلك كانت بغدادي، أرضي الأم التي ترعرعت في حضنها،
وبالكاد بقي لها أثر اليوم، كما لو أنها كانت
خطوط طباشير أزالتها مُمحاة من على اللوح،
استعدادا لكتابة قصة جديدة».

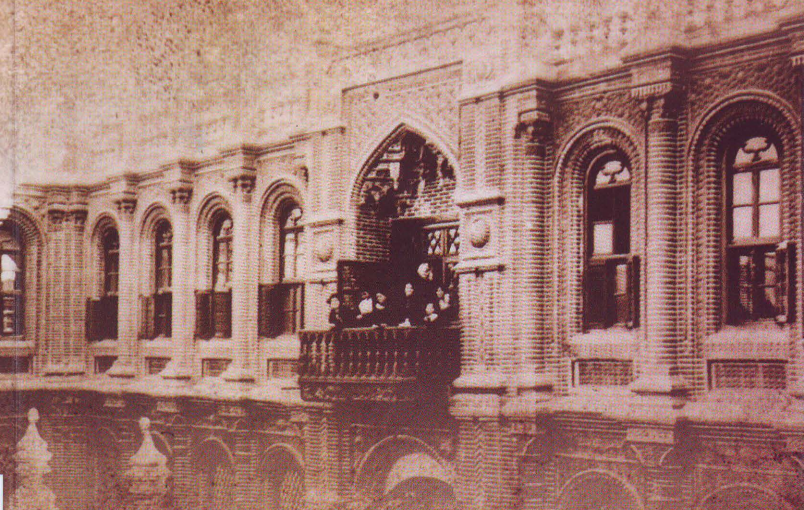

ISBN: 978-614-01-3170-5
9 786140 131705

نيل وفرات.كوم
جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com